بمناسبة الاحتفال بمرور خمسمائة عام على فتح استانبول

العاهل العثماني

أبو الفتح السلطان محمد الثاني

فاتح القسطنطينية

و

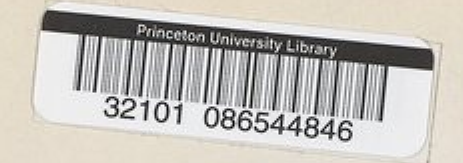
حياته العدلية

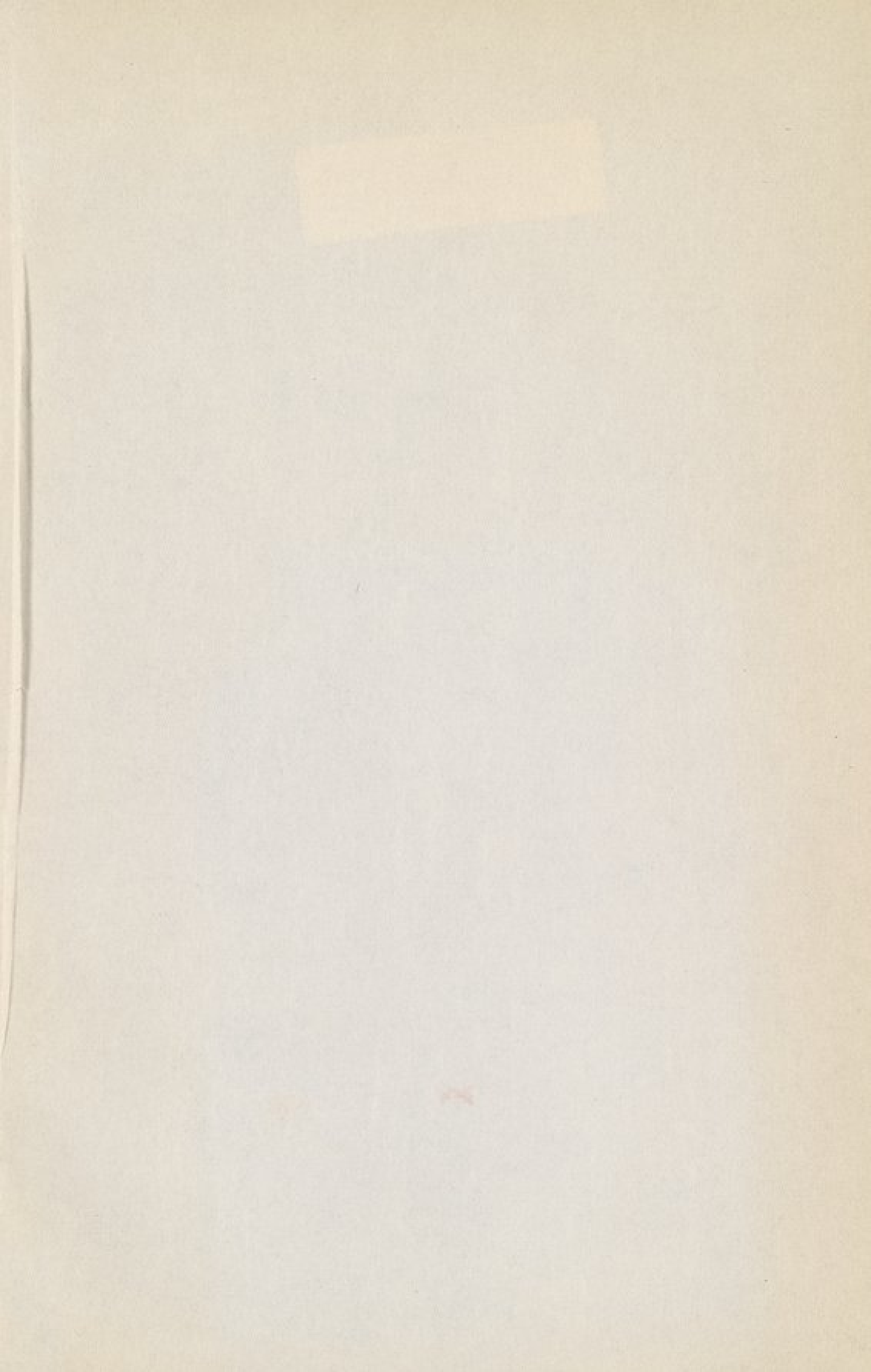
تأليف

علي همت بركي الآقسكي
من رؤساء محكمة النقض بتركيا سابقاً

تعريب

محمد احسان بن عبد العزيز


Princeton University Library
32101 086544846



بمناسبة الاحتفال بمرور خمسمائة عام على فتح استانبول

al-ʿĀhil al-ʿUthmānī

العاهل العثمانى

أبو الفتح السلطان محمد الثاني

فاتح القسطنطينية

و

حياته العدلية

تأليف

علي همت بركي الآقيسكي

من رؤساء محكمة النقض بتركيا سابقاً

Ali Himmet Berki

تعريب

محمد احسان بن عبد العزيز

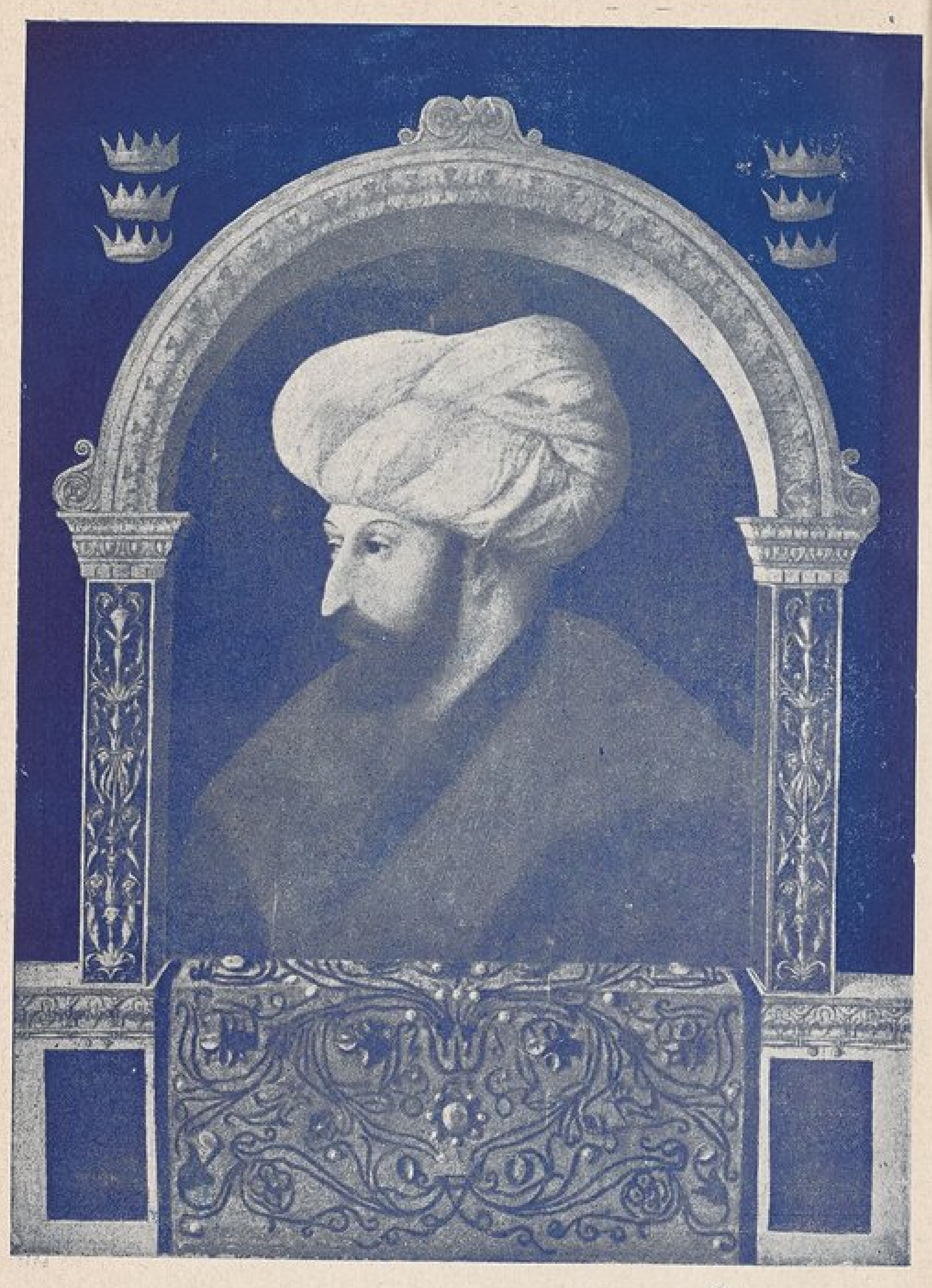
الناشر

محمد سامي أمين الخانجي

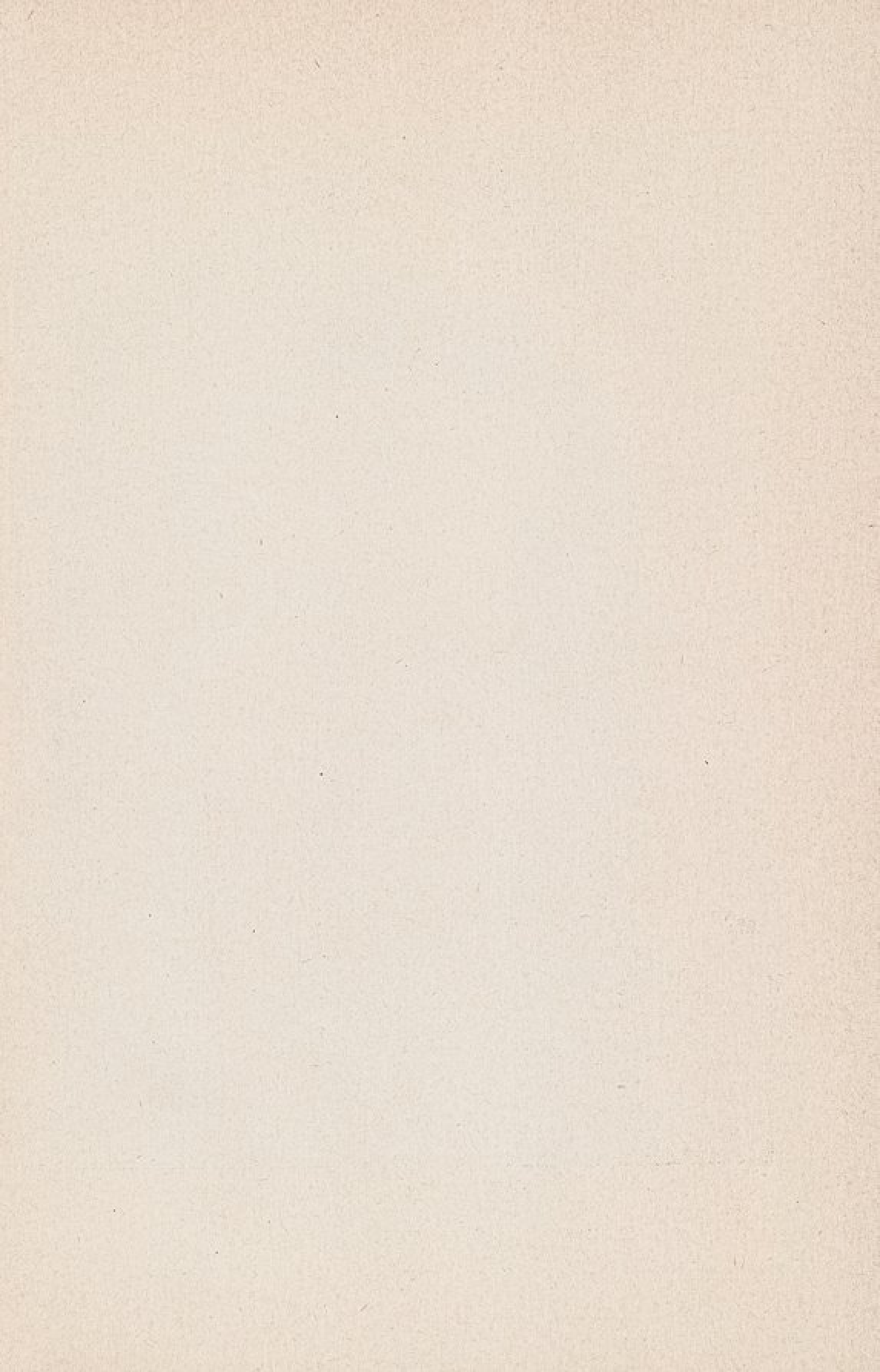
الكتبي بمصر

١٣٧٢ — ١٩٥٣

مطبعة السعادة بمصر



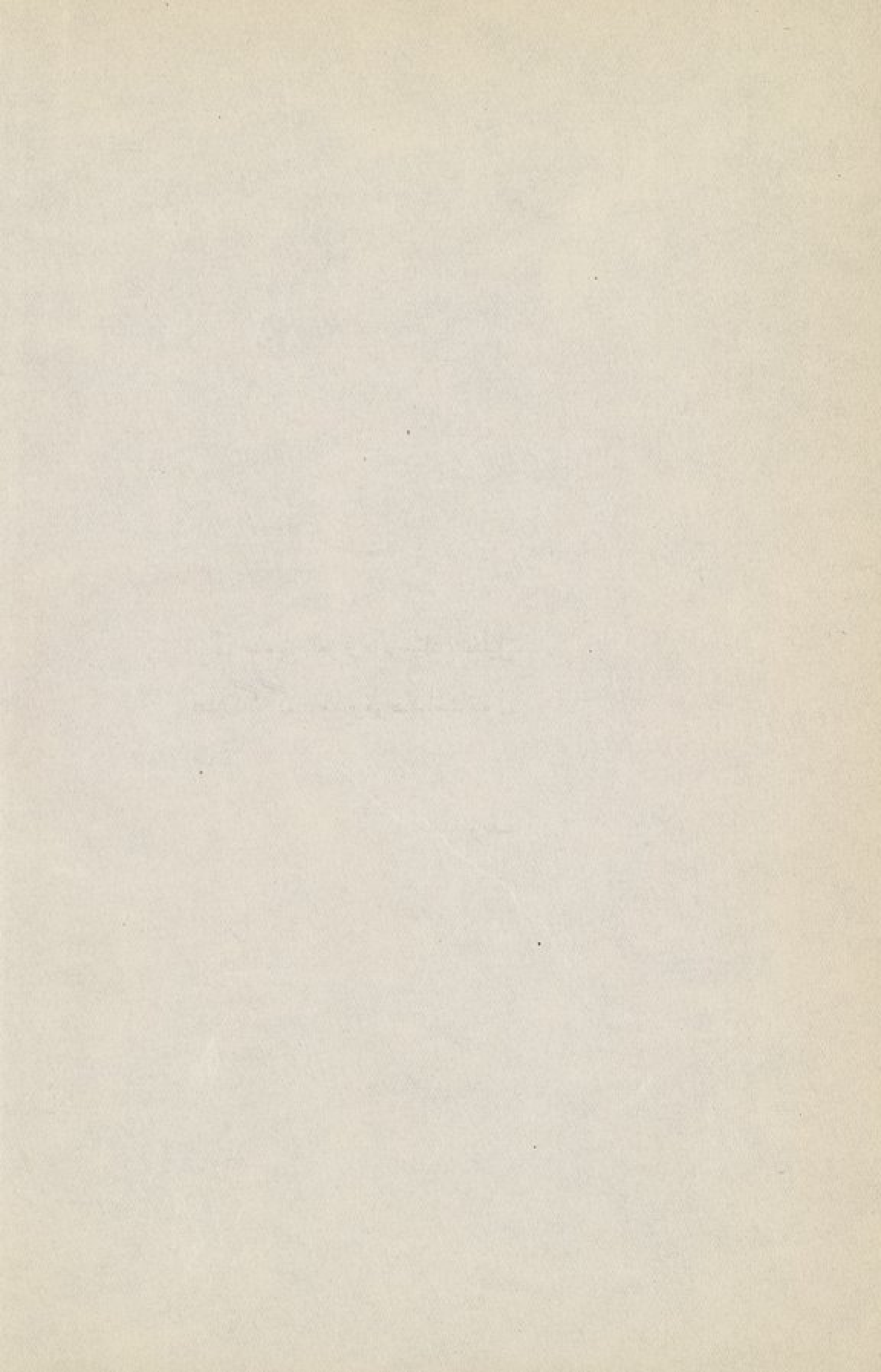
السلطان محمد الفاتح



الإهداء

الى صديقي العزيز الأستاذ الجليل
فطين گوگمن مدير مرصد استانبول
سابقاً

المؤلف



بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المترجم

القسطنطينية مدينة عظيمة الأهمية كثيرة المزايا حباها الله تعالى جمالا طبيعياً يأخذ بالألباب ولا يكاد يوجد فى غيرها من مدن العالم ولذلك كانت مطمح أنظار الملوك والسلاطين وحلم الغزاة والفاتحين من أقدم العصور حاولوا فتحها دون أن ينالوا بغيتهم فقد ذهبت محاولاتهم سدى أمام مناعتها الطبيعية وحصونها المحكمة وأسوارها القوية حتى جاء العاهل العثمانى السلطان محمد خان الثانى فعقد العزم على فتحها وأعدّ لها العدة وحاصرها من البر والبحر حصاراً شديداً دام نحو شهرين وانتهى باستيلائه عليها فى العشرين من شهر جمادى الأولى سنة ٨٥٧ هجرية[١] (٢٩ مايو سنة ١٤٥٣ ميلادية) واتخذها عاصمة المملكة العثمانية وبذلك تحققت على يده البشارة النبوية المحمدية : « لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش » .

وعند ما يحل يوم [٢٩ مايو سنة ١٩٥٣] يكون قد مضى على هذا الفتح المبين والنصر العزيز خمسمائة عام ميلادي وبهذه المناسبة قررت الحكومة

---

(١) قال المفسر الآلوسى فى تفسير قوله تعالى : [. . . بلدة طيبة ورب غفور] الآية ١٥ سورة سبأ ما نصه : « ومن الاتفاقات النادرة أن لفظ « بلدة طيبة » بحساب الجمل واعتبار هاء التأنيث بأربعمائة كما ذهب إليه كثير من الأدباء وقع تاريخاً لفتح القسطنطينية وكانت نزهة بلاد الروم .

روح المعانى طبع منير الدمشقى ص ١١٦ ج ٢٢ .

التركية الاحتفال بذكرى فتحها وإخراج كتاب شامل عن حياة بطل هذه الذكرى الخالدة والحالة السائدة فى عصره من مختلف النواحى العسكرية والعلمية والقضائية والادارية والاقتصادية . . . وعهدت هذه المهمة العلمية التاريخية إلى جماعة من العلماء وحملة الأقلام ليكتب كل منهم فى ناحية من النواحى الآنفة ، وقد اختير للكتابة فى حياته العدلية الاستاذ الجليل « على همت بركى الآفكى » رئيس محكمة النقض بتركيا سابقاً ومن ألمع رجال الفقه والقانون فكان اختياراً موفقاً وقوساً أعطيت باريها فإنه خدم القضاء بنزاهة وكفاءة قرابة أربعين عاماً تقلب خلالها فى مناصبه إلى أرقاها ، وألف كتباً قيمة منها كتابه القيم « منطق الحقوق » فى اصول الفقه .

عكف الأستاذ على دراسة موضوعه فدرسه درساً وافياً فى رزانة القاضى ونزاهته ودقة العالم وتواضعه وأمانة المؤرخ وحياده وحماسة الوطنى الغيور فأخرج هذا الكتاب الذى يعد عملا غير مسبوق إليه فى موضوعه يستحق عليه الشكر والتقدير .

ويرى المطلع على الكتاب أن الأستاذ عرض حياة محمد الفاتح عرضاً شاملا جميع مراحلها فأبرز منها نواحى النبوغ والعظمة فوصفه أميراً شاباً يعنى بتعليمه وتثقيفه وتربيته عناية بالغة تهيئه للاضطلاع بأعباء الملك وتؤهله للقيام بما ينتظره من الأحداث الجسام ويتلقى علومه على أيدى اساتذة معروفين بسعة العلم ومتانة الخلق ويقرأ سير كبار القواد والفاتحين وبخاصة سيرة اسكندر الأكبر المقدونى ويرى فى نفسه مزاياه فيحلم بفتوحاته وانتصاراته .

وسلطانا يتولى السلطنة مرتين مرة فى سن مبكرة جداً فى حياة والده وبارادته واخرى بعد وفاته ويسير بالرعية سيرة حسنة على اختلاف نحلهم ومللهم وينشر الأمن والعدل فى ربوع البلاد التى يحكمها ، ويجمع تحت لوائه

شتات الدويلات الحاكمة فى الاناضول القائمة على اطلال الدولة السلجوقية ويجعل منها دولة عظيمة موحدة الأدارة قوية البنيان مرموقة المكانة مرهوبة الجانب .

وقائداً شجاعاً منصور اللواء يخوض غمار المعارك يهزم جيوش الأعداء ويدوخ بلادهم ويزيل دولهم .

وسياسياً محنكا يدير شؤون مملكته الواسعة بعقل وحكمة ويضع من النظم والقوانين والتقاليد ما يوطد أركان ملكه ، ويضمن للحاكم مهابته وللسلطان ابهته وعظمته .

وعالماً كبيراً عطوفاً على أهل العلم يوثرهم ببره وينشىء فى قلب عاصمة ملكه الجديدة جامعة علمية كبيرة لا زالت مبانيها الفخمة قائمة حول مسجده المعروف باسمه تشهد لبانيها بمبلغ عنايته بالعلم وبالغ عطفه على أهله ، وتنطق بما كان للعلماء من عزة وسؤدد فى عصره ،ويستقدم من أنحاء البلاد الاسلامية كبار العلماء يحتفى بهم ويجرى عليهم واسع الرزق ويجعل من قصره منتدى علمياً يتناقش فيه العلماء المسائل العلمية العويصة ، وقد يشاركهم فى المناقشة مشاركة العالم المتمكن من علمه ويجد متعة كبيرة سواء فى المناقشة او عندما تسفر من الآراء العلمية .

وشاعراً مطبوعاً يقرض جيد الشعر ويقول بليغ النظم . وأديباً كبيراً ملماً بعدة لغات يملك ناصية البيان ويواتيه فصيح الكلام . ويجزل عطاياه للشعراء والأدباء أيا كانت جنسياتهم وبلدانهم .

وهكذا يمضى الأستاذ مطلقاً النفس فى التنويه بمزاياه وتعديد سجاياه ويخلص منها الى أنه يحتل مكاناً ممتازاً لا فى تاريخ الترك فحسب بل فى تاريخ العالم أجمع وانه يعد بحق من أبرز الشخصيات العالمية بما قام به من أعمال جليلة وخلف من آثار خالدة .

وبعد ما فرغ الاستاذ من الكلام على شخصية الفاتح الفذة والاشادة بعبقريته شرع فى موضوع كتابه وهو الحيـــاة العدلية والقضائية فى عهده الزاهر فمهد لهـا أولا بعرض موجز للقضاء فى الاسلام فى عهوده المختلفة الى عهد العثمانيين ، ومحمد الفاتح بخاصة فذكر الوضع القضائى والتشكيلات القضائيةوالادارية والأسس التى بنيت عليها والقوانين المعمول بها والتطورات التى مرت بها والهيئات التى أنيط بها تطبيقها .

وقد عنى الاستاذ عناية خاصة بالقانون المنسوب الى محمد الفاتح الموجود فى مكتبة « فينا » فناقشه مناقشة علمية خلص منهـا إلى أنه غير صحيحة النسبة إلى الفاتح . ولم يفت المؤلف أن يذكر تراجم بعض العلماء الذين تولوا القضاء ويقدم معلومات عن الحياة العلمية فى ذاك الوقت ويذكر المعاهد العلمية التى درسوا فيها وتخرجوا ، وشروط الالتحاق بهـا ومراحل التعليم والبرامج ، ويخص بالذكر الجامعة التى أنشأها الفاتح والتى تعرف بالمدارس الثمـان العالية [= مدارس الصحن] فيوفى كل ما عرض له من المسائل حقه من البحث العلمى المدعم بأدلة لايرقى إليها شك .

ومن خلال هذه الأبحاث يتبين للقارىء الجهود التى بذلها العثمانيون فى فى تنظيم بلادهم إدارياً كان او قضائياً وما أصابوه من النجاح والتوفيق فى هذا المضمار ايضاً لم يكن بأقل من نجاحهم فى ميدان القتال . فانهم قد نظموا البلاد التى فتحوها تنظيما شاملا جميع مرافقها ومناحيها وفقاً لمـا كان سائداً فى عصرهم من العرف والأساليب ، وفى حدود ما رسمت الشريعة الاسلامية من النظم والأحكام . وبفضل ما فى هذه النظم والأحكام من العدالة والتسامح والملاءمة لطبائع المحكومين على اختلاف مللهم ونحلهم عاشت دولتهم أطول مدة عاشته دولة إسلامية ، صامدة كالطود الشامخ أمام الضربات الهدامة التى توالت عليهـا فى غير هوادة من كل جانب ، ولعل الذين يطلعون على هـذا

الكتاب يدركون أن العثمانيين لم يكونوا قوماً فاتحين لا شأن لهم يذكر فى ميادين العلم والحضارة كما يزعم المغرضون من مؤرخى الغرب ومقلدتهم من مؤرخى الشرق بل كانوا أمة علم وفن وإدارة وحضارة كما كانوا أبطال الحرب وكماة الهيجاء . وأما العوامل التى دفعت مؤرخى الغرب الى تشويه سمعة الدولة العثمانية والحط من قدرها فلا يتسع المقام لسردها هنا وقد كفانا مؤنة ذلك الأمير شكيب ارسلان فى تعليقاته القيمة على كتاب « حاضر العالم الإسلامى » .

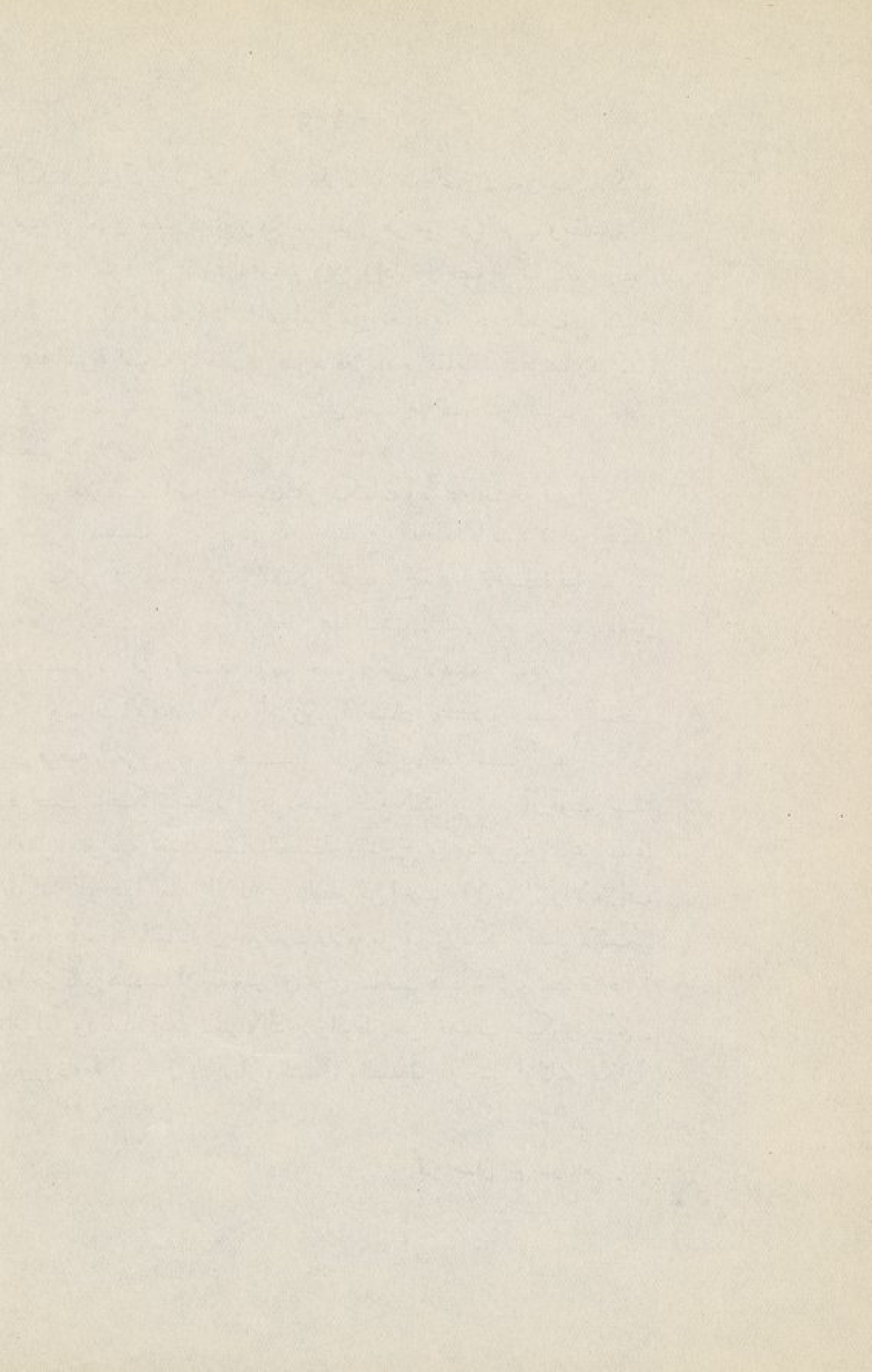
وبعد فلست اطيل الحديث عن الكتاب ومؤلفه فسيجد فيه القارىء الكريم المنصف كل ما يرضى العلم والتاريخ والعاطفة مما يشهد لمؤلفه بفكر مرتب ورأى ناضج وصحة الحكم والاستنتاج وغزارة المادة فيما تعرض له من الأبحاث . وأرجو أن يظفر هذا الكتاب القيم من الباحثين الذين لايعنيهم إلا الحق والحقيقة ما هو خليق به من الاهتمام والتقدير .

وشاءت الأقدار الإلهية أن يزور الأستاذ الكبير مصر وأتيحت لى فرصة التعرف به ، فحدثنى عن كتابه هذا مشيراً على بتعريبه فرحبت بالفكرة شاكراً على حسن ظنه وثقته بى آملا أن أودى بهذا العمل المتواضع خدمة ضئيلة للحقيقة والتاريخ واجد فرصة للإعراب عما أكنه نحو هذا العاهل الإسلامى العظيم من الحب والإجلال والاعتراف بماله ولأسرته المتفانية فى خدمة الإسلام من أيادى تشكر وفضل لا ينكر واختم كلمتى هذه سائلا الله تعالى أن يجزى صاحب هذه الذكرى العطرة الخالدة جزاءاً وفاقاً لما قدمه للعلم والدين والوطن من خدمات مشكورة وأعمال مبرورة وينزله منازل الأبرار والشهداء والصديقين وحسن اولئك رفيقاً ؟

المترجم

محمد أحسان بن عبد العزيز

عفى عنهما



ترجمة المؤلف

هو الاستاذ الجليل «علي همت بركي» ولد ليلة الاثنين السادس والعشرين من صفر الخير سنة ١٢٩٩ هجرية بقرية «اونولا»، إحدى قرى ناحية «إبرادى» التابعة لقضاء «آقسكى» بولاية «آنطاليه» [= آضاليه] من أعمال الأناضول . ووالده الأستاذ عثمان تيمورجى زاده من القضاة الشرعيين وكان قاضياً بمدينة آلبستان حينما رزق بمولوده .

أتم دراسته الابتدائية والثانوية فى مدارس بلدته ثم رحل الى استامبول لاتمام دراسته العالية فحضر دروس الأستاذ الكبير محمد شاكر كمرلى زاده التوقادى من مدرسى جامع السلطان محمد الفاتح فقرأ عليه كتب الدراسة المقررة فى ذاك العهد حتى حصل منه على الاجازة العلمية . والتحق أيضا بمدرسة القضاء الشرعى وواظب على دروسها حتى تخرج وكان أول دفعته ، وكان تخرجه فى المدرسة وحصوله على الإجازة العلمية فى سنة ١٣٢٧ ﻫ .

وبعد تخرجه بنحو شهرين عين مسوداً فى دار الافتاء الملحقة بالمشيخة الاسلامية مع انتدابه لتدريس مادة «أحكام الأراضى» بمدرسة القضاء الشرعى . وفى ٣٠ يوليو سنة ١٣٣٠ عين قاضياً لمدينة «توقات» بلدة استاذه وحميه المار الذكر . وفى ١٥ سبتمبر سنة ١٣٣١ نقل منها الى «اماسيه» . وهكذا تنقل من مدينة الى أخرى متدرجاً فى المناصب القضائية والعلمية حتى عين رئيساً ثانياً لمحكمة النقض فى أغسطس سنة ١٩٣٣ م وباشر أعمال الرياسة إلى أن بلغ السن القانونية وهى خمس وستون سنة ومدت خدمته سنة أخرى للانتفاع بخبرته وكفاءته . ولكنه قبل اتمام السنة طلب إحالته الى المعاش ليتفرغ للعلم فأجيب الى طلبه . ومن ذاك

الوقت الى الآن يخدم العلم عن طريق البحث والتأليف مع خدمة العدالة عن طريق المحاماة . ومن مؤلفاته المطبوعة : « الارث والانتقال » ، « الأوقاف » ، « الميراث والتطبيقات » ، « منطق الحقوق » ، وله مؤلفات أخرى غير مطبوعة .

ولحضرته ثلاثة أنجال عنى بتربيتهم تربية دينية وتثقيفهم ثقافة علمية عالية وهم الأساتذة : عثمان فاضل ، محمد شاكر ، وأحمد سعد الدين . فالأولان أستاذان فى الجامعة ، والأخير قاض فى المحكمة . نفع الله بهم العباد والبلاد ؟





وجه المدالية　　　　الوجه الثانى

مدالية باسم السلطان محمد الثانى حفرها المثال « برتولادى » على قطعة من النحاس الاصفر

كلمة المؤلف

فكرت ملياً حين بلغتني رغبة السيد «فؤاد سيرمن» وزير العدل السابق بتركيا أن أضع كتاباً يتناول الحياة العدلية والقضائية فى عهدالسلطان محمد الفاتح بمناسبة الاحتفال المزمع اقامته احياءً لذكرى مرور خمسمائة عام على فتح القسطنطينية ، فرجعت الى ذاكرتى باحثاً عما تحفظه من أنباء العدل والقضاء فى ذلك العهد وتصورت مدى ما سأستفيده من الكتب الموجودة ، ومايعترضنى من الصعاب فى هذا السبيل لعدم اشتغالى بالتاريخ ، فهالنى الامر ، ومع ذلك لم يدفعنى الى رفض الرغبة مادام موضوعها العدالة والحكمة اللتين خدمتهما ردحاً من الزمن .

ومن العوامل التى لاتشجع على دراسة مثل هذه الموضوعات ، ألايوجد بين أيدينا كتاب جامع ألف فى القضاء والإدارة يزود الباحث بمواد كافية تعينه على الدراسة ، فان مؤرخينا سواء أكانوا من الترك او من الشعوب الإسلامية الأخرى عنوا أكثر ماعنوا بضبط المعارك الحربية والأحداث السياسية ، وبذلوا مثل هذه العناية للتشكيلات العسكرية والعلمية ، وما أبدى فى هذه المجالات من النشاط ، وبذل من الجهود ، فأغفلوا التشكيلات القضائية والإدارية وفروعهما [*]

فانى - إذا استثنيت الوقفيات - لم أجد حتى سجلات المحاكم الخاصة بذلك العهد على الرغم من كثرة بحثى وتنقيبى عنها .

---

[*] هذا ؛ ولا تخلو المكتبة العربية من الكتب الخاصة بالقضاء واخبار القضاة ولكنها ليست مما يفيدنا فى دراستنا وسنذكر بعضاً منها فى الفصول الآتية .

وقد نسج مؤرخو الغرب على هذا المنوال ولا يختلفون عن مؤرخينا إلا فى شىء واحد وهو عدم حيادهم فيما كتبوا (١) .

وفى مثل هذه الظروف والملابسات التى لم تكن مشجعة على مثل هذه الدراسة ، غلبت عواطفى على إرادتى ، وتحت سلطان هذه الغلبة نزلت عند رغبة الوزير . .

فكيف لا ، فان شخصية هذا العاهل التركى العبقرى توحى إلىّ منذ أيام التلمذة الأولى شعورا بالعزة الإسلامية والزهو القومى وتثير فى نفسى من ذكريات ماضينا المجيد ما أفخر به أيما فخر وأطرب له طربا لا حد له . فالامتناع إذن من دراسة جانب من حياته المباركة وعهده السعيد كان معناه تهرباً من أداء واجب إسلامى وقومى معاً .

ولهذه الاعتبارات شرعت فى كتابة هذه الأسطر :

---

(١) ولا يتعجب القارىء الكريم من تنديدى بادىء ذى بدء بموقفهم المغرض من تاريخنا فانى مع احترامى للعلم والعلماء أرى من واجبى أن أسجل هنا أن القوم عز عليهم أن يتم لعاهلنا السلطان محمد الفاتح هذا الانتصار العظيم الذى غير مجرى تاريخ الإسلام بل العالم كله فصبوا عليه جام غضبهم فوجهوا الى شخصه والى جيشه التهم جزافاً مما خطر على بال بغيته الحط من قدرهما والتهوين من شأنهما فى نظر التاريخ . وقد بلغت هذه التهم من الفظاعة مبلغاً وجد معه المؤرخ هامر نفسه — مع أنه مصاب بداء إخوانه مؤرخى الغرب — مضطراً لتفنيدها خشية أن يتهم بالتعصب والتحيز . والذى يدعو الى الأسف الشديد بوجه خاص أن كتابهم الأولين قد اختلقوا هذه المزاعم وهم يعلمون أنها خلاف الحق والحقيقة وإنما وضعوها لغرض خبيث فى نفوسهم . فخلف من بعدهم خلف لم يجدوا غضاضة فى تسجيلها فى كتبهم كأنها حقيقة تاريخية .





انزال الفاتح سبعين مركبا حربية من بشكطاش الى الخليج جراً على الارض

لا ريب أن السلطان محمد الفاتح ملك عظيم وأنه لحرى أن تكتب مجلدات ضخمة لاعن ناحية العدل من سيرته فحسب ، بل عن كل صفحة من صفحات حياته ، فانه منذ صباه إلى آخر لحظة من عمره المبارك الذى قضاه نقياً نزيها ، لم يفكر إلا فى أمته وسعادتها ، فأرصد حياته كلها لخير شعبه ورفع اسم وطنه عالياً وأمضى ربيع عمره فى ميادين القتال ومقاساة الشدائد والمحن ، وكم بات أرقا مسهداً لا ينعم بنوم هادىء ، فى سبيل الوطن .

قاد وهو فى سن الثالثة والعشرين من عمره أعظم الجيوش البرية والبحرية ، وابتكر أساليب وخططاً لم تكن معروفة فى عالم الحرب وفن القتال ، مثل تسييره السفن فى اليابسة ، فأمام عزمه القوى الذى لايعرف التزلزل ، هزم أقوى جيوش الأعداء ، وخضع أعند العصاة الثائرين عليه ، وتحطمت القلاع المنيعة التى عاصرت القرون والدهور .

وكان رحمه الله الى جانب معرفته باللغات العربية والفارسية واللاتينية واليونانية والسلافية والعبرية ، عالماً كبيراً وشاعراً مجيداً(١) .

---

(١) لا شك فى اجادته اللغات التركية والفارسية والعربية وفى وقوفه على آدابها وأما معرفته باللغتين اليونانية واللاتينية معرفة تمكنه من التفاهم والتكلم فتؤخذ من نص بعض كتب التاريخ عليها ، بقيت اللغتان السلافية والعبرية ، هل كانت معرفته بهما فى مستوى يستطيع معه أن يقرأ ويكتب أو يتكلم بها ، فلا نجد فى كتب التاريخ جوابا على هذا السؤال . ومع ذلك لا يصح الاستدلال على عدم معرفته بهما بوجود كتبة وموظفين فى ديوانه يعرفون هذه اللغات ، فمن الجلى أن السلطان لا يشغل نفسه بالمكاتبات المحررة وترجمتها وان كان ملماً باللغات التى كتبت بها تلك المكاتبات .

يقول المؤرخ أحمد وفيق بك فى كتابه «السلطان محمد الفاتح والرسام نلينى» : يؤكد لنا فرانجز أن السلطان محمداً الفاتح كان فى مستوى رفيع جدا من العلم والثقافة وكان يعرف خمس لغات ويتكلم بها ، وهى التركية والفارسية والعربية واليونانية واللاتينية =

دهش العالم كله أمام الانتصارات العظيمة التى وفق لها عاهلنا فشغلوا بحياته وتاريخه فألفت الكتب ونظمت القصائد ووضعت قصص تناقلتها الألسن وتداولتها الأيدى ونوه كبار المؤرخين المحايدين وأفاضل العلماء بمزاياه وخصاله سواء فى ميادين العلم والثقافة والقتال أو فى مجالات الإدارة والقضاء والسياسة مقرين له بأنه أقوى سلطان جلس على عرش السلطنة العثمانية بل من أعظم الشخصيات العالمية .

وهذا عالم هرات ومتصوفها الكبير وشاعرها النابغة المعروف بالجامى(١) نظم رسالة بليغة باللغة الفارسية فى مدح عاهلنا وصفه فيها بعلو القدر

= وأما أشعاره فقد جمعها الأستاذ كمال اديب تحت عنوان « أشعار الفاتح » وأعدها للطبع فطبعت بالحروف العربية واللاتينية فى مطبعة الجمعية التاريخية التركية بأنقره سنة ١٩٤٦ م ضمن مطبوعات هذه الجمعية .

وهناك بعض مغرضين يبدون احتمال كون هذه الأشعار منحولة اومصححة ولكن من يعرف شخصية محمد الفاتح الفذة يرد هذا الاحتمال لقائله باستنكار ، فمن الواضح جدا أن السلطان محمدا الفاتح بسجيته العالية ووقاره الممتاز وعزة نفسه البالغة درجة النخوة أرفع من هذه الصغائر على أن جلال المقام الذى يشغله ومستواه العلمى يمنعانه من ذلك ولو أراد .

(١) هو نور الدين عبد الرحمن المعروف بالجامى (*) من كبار علماء ايران وشعرائها ولد فى قرية « خرجرد » بالقرب من مدينة « جام » بمقاطعة « خراسان » =

(*) وله فى نسبته الى « جام » البيتان الآتيان :

مولدم جام ورشحهٔ قلمم   جرعه أز جام شيخ الاسلاميست

زين سبب در جريدهٔ أشعارم   بدومعنى تخلصم جاميست

والمعنى : محل ولادتى بلدة «جام» ورشحات قلمى قطرة من جام أستاذى شيخ الإسلام ولهذا السبب كان اسمى الشعرى « جامى » بكلا معنييه .

وسمو المنزلة وعراقة النسب والحسب ، وقوة المنطق والبيـان وصفاء الطبع وأنه صاحب ذكاء متقد ينفذ غوامض الفلسفة فيحلها ويرسل شعاعه إلى سبل الفلاسفة فينيرها . وأنه ما فتىء يجاهد فى سبيل الله وإعلاء كلمته حتى قوى ظهر الشريعة النبوية المحمدية وتقوضت أركان الكفر والضلال وتحولت معابد الأصنام إلى المساجد وأنه مقبل على مكارم الأخلاق ، ومترفع عن ذميمها. أما فى البذل والعطاء فقد فاق البحر وبذ السحاب . وما إلى ذلك من السجايا

= سنة ٨١٧ هـ فتلقى علومه فى هرات، ونبغ فى كثير منها ، كما نبغ فى الأدبين العربى والفارسى. وبعد اتمام دراسته العلمية أقبل على التصوف ، فأخذه عن سعد الحق والدين الكاشغرى من خلفاء الشيخ بهاء الدين النقشبندى مؤسس الطريقة المنسوبة إليه، ولم تمض مدة وجيزة حتى نبه اسمه وذاع صيته فى العالم الإسلامى ، فسعى إليه العلماء والأدباء من كل جانب .

وقد نال الحظوة لدى السلطان أبى سعيد ، وبعده السلطان بايقرا من أخلاف تيمورلنك ، لحفيا به وأ كرماه بما هو جدير بعلمه وأدبه ، وقد أخذ عنه التصوف على شير نوائى وزير السلطان حسين بايقرا وغيره من العظماء .

وكذلك ظفر بإعجاب السلطان محمد الفاتح وتقديره ، فدعاه إلى عاصمة ملكه فأجاب الدعوة وغادر بلدته متوجها إلى استانبول ، فلما وصل إلى مدينة قونيه فى طريقه إليها بلغه نعى الفاتح فرجع وتوفى إلى رحمة الله تعالى سنة ٨٩٨ هـ عن احدى وثمانين سنة.

وقد خلف رحمه الله تعالى كتباً نافعة خالدة فى العلم والأدب باللغتين العربية والفارسية منها : شواهد النبوة ، نفحات الأنس ، نقد النصوص ، أشعة اللمعات شرح فصوص الحكم ، لوامع ، رسالة فى الوجود ، الدرة الفاخرة ، رسالة فى الموسيق، سلسلة الذهب ، سبحة الأبرار ، تحفة الأحرار ، ليلى ومجنون ، بهارستان وغيرها .

وله شرح على كافية ابن الحاجب فى النحو مسمى «الفوائد الضيائية» ، كان من الكتب الدراسية فى معاهد استانبول وتركيا ، وفى بعض البلاد العربية .

الرضية والخصال الحميدة والمآثر الجليلة التى قلما تتوافر فى شخص(١) .

---

(١) ولأهمية هذه الرسالة من الوجهتين الأدبية والتاريخية دونتها هنا نقلا من المصادر الموثوق بها(١) مع ترجمتها النثرية . وإلى القارىء المعذرة إذا لم يجد فى الترجمة سوى المعنى المجرد عن جمال الشعر وسحره ، فإن الشعر إذا ترجم نثرا يفقد سحره وموسيقاه مهما كانت الترجمة أمينة دقيقة ، وهاكم الرسالة بنصها :

طاب رياك اى نسيم شمال … قم وسر نحو كعبة الآمال(٢)
نفس أزبوى صدق مشكين كن … راه اخلاص رفتن آيين كن
أزخراسان ببند بار نياز … راه بردار ملك روم أنداز
چون رسيدى زگرد راه بپرس(٣) … بارگاه جلال وجاه بپرس
چهره برخاك راه دربان ساى … باجازت زمين ببوس دارى
پيش شاه مجاهد غازى … بكشالب بنكته پردازى
كاى ترا ذروهٔ علا مسند … ملك ميراث تو أبآ عن جد
أصل تو تا بآدم أرشمرند … همه مسند نشين وتاجورند
خواست زيشان جهان فخر نخست … ليكن إمروز فخر جمله بتست
كم كسى برسرير جاه وجلال … چون تو كرد اكتساب فضل وكمال
مشكل حكمت أز كلام تو حل … منطق تو بيان هر مجمل
راه مشائيان زتو واضح … نور إشراقيان زتو لايح
طبع پاك ترا كه وقادست … فهم حكمت طبيعى أفتادست
بردلت حكمت إلهى تافت … كه رخ أزظلمت ملاهى تافت
فكر تو زدسوى رياضى راى … شد رياضى رياض خلد آراى
هست پشت شريعت نبوى … بنوى أز مساعىٔ تو قوى
محتد كفر ومعبد أصنام … شد زجهد تو قبة الاسلام
حسن تدبير تو بحرب وقتال … كرده قلع قلاع كفر وضلال
مقبلى بر مراسم إشفاق … معرضى أز ذمائم أخلاق
جمع در ذات تو برغم حسود … حكمت وعفت وشجاعت وجود

---

(١) تاج التواريخ — منشآت جامى — خرابات

(٢) قبلة الاقبال . قبلة الآمال (٣) زراه راه بپرس .

. . . .

بحروكانى يبخشش وجودت(١)   بلكه بردى زبحروكان هم دست

كان زدست توشد بسنك نهان   وزكفت بحر كف بروى زنان

تابود دوره ٔ فلك ممكن   تابود نقطه ٔ زمين ساكن

روش(٢) آن بوفق رأى توباد   شرف اين بخا كپاى توباد

أى معنبر نسيم نافه كشا   چو بپردازى أز دعا وثنا

ورقى چند نظمهاى غريب(٣)   لايق فهم هوشمند لبيب

باتو همراه ميكنم زنهار   زين غريبان ببزم شه يادآر

عرض كن در حريم مجلس او   اين محقر هديه ٔ وبكو :

أرسل النمل من خلوص وداد   بسليمان نصف رجل جراد

قائلا ذاك منتهى جهدى   والهدايا بقدر من يهدى

ثم أوجز مخافة الابرام   واغتنم(٤) بالسلام والاكرام

ترجمتها النثرية

طابت رائحتك الزكية يا نسيم الصبا   « قم وسر نحو كعبة الآمال »

إجعل نفسك بمسك الصدق عاطراً   واتخذ سلوك طريق الاخلاص شعاراً

شد من خراسان رحل الرجاء والأمل   واسلك طريقك إلى عاصمة بلاد الروم

وعندما تصل فاسأل غبار الطريق   سله عن مقر الجاه والجلال

عفر وجهك فى موطىء قدم الحاجب   وقبل الارض مستأذناً ثم ادخل

فاذا مثلت بين يدى المجاهد الغازى   فابدء الكلام بظرف ولباقة قائلا :

أنت فى ذروة من العلى والمجد   ووارث الملك أباً عن جد

إن ساقوا نسبك الى آدم   فكلهم أصحاب تيجان وذوو مقام

---

(١) بيوست .   (٢) روشن .   (٣) فريب .   (٤) واختتم .

. . . .

منهم طلب العالم الفخر الاول ولكن بك الفخر كله اليوم
قليل من الذين تربعوا عرش الجاه والجلال واكتسبوا مثلك الفضل والكمال
بكلامك تحل مشكلات الفلسفة ومنطقك بيان لكل مجمل
بك وضحت طريقة المشائين ومنك لاح نور الاشراقيين
أنت ذو طبع صاف وقاد فكان فهم الحكمة طبيعياً له
لمعت الحكمة الإلهية على قلبك فأعرض وجهك عن ظلمة الملاهى
إتجه فكرك إلى الرياضيات فصارت رياضاً تزين الخلد
حقاً ، إن ظهر الشريعة النبوية قوى بمساعيك وبطولتك
وبجهودك صار محتد الكفر ومعبد الأصنام ، قبة الاسلام
وحسن تدبيرك فى الحرب والقتال قلع قلاع الكفر والضلال
أنت مقبل على مراسم الاشفاق ومعرض عن ذمائم الأخلاق
تجمعت فى ذاتك على رغم الحسود الحكمة والعفة والشجاعة والجود
أنت بحر ومعدن بجودك وعطاياك بل أنت تفوقهما فى الجود والعطاء
بل المعدن اختبأ فى جوف الصخرة من جود يدك ، ولطم البحر الوجه خجلا من كفك
ما دامت دورة الفلك ممكنة وما دامت نقطة الارض ساكنة
فليكن دوران ذاك وفقاً لرأيك وليكن شرف هذه بتراب قدمك
أيها النسيم المعنبر حامل النافجة عند ما تفرغ من الدعاء والثناء
هذه بضعة أوراق من النظم الغريب اللائق بفهم العاقل اللبيب
احملك أياها أمانة وعهداً منا نحن الغرباء اذكرها لدى السلطان
وقدم إلى سدته العلية هذه الهدية المتواضعة وقل :
« أرسل النمل من خلوص وداد لسليمان نصف رجل جراد
« قائلا ذاك منتهى جهدى والهدايا بقدر من يهدى
« ثم أوجز مخافة الابرام واغتنم بالسلام والاكرام »

وممن شدا مناقب محمد الفاتح شاعرنا العبقرى المرحوم عبد الحق حامد(١) فقد نظم قصيدة عصماء فى مآثره وسجاياه تعد آية فى الشعر التركى ، وسأثبت معظم أبياتها مع ترجمتها فى الهامش لأتيح لشبابنا فرصة الاطلاع عليها ليعرفوا أسلافنا من المصادر الأصلية الصحيحة ولا يقعوا فريسة لأقاويل أناس مغرضين ، وروايات بعض المؤرخين العارية من طابع الصحة ممن ليست لهم مصادر يرجعون إليها سوى أساطير مورخى الغرب وخرافات البيزنطيين .

وبهذه المناسبة يهمنى أن ألفت الأنظار إلى النقطة الآتية بوجه خاص .

هناك بعض أحداث يقع بين ظهرانينا وفى المجتمع الذى نعيش فيه ومع ذلك نجهل حقيقته ولا نصل إلى كنهه . فما حاجتنا إلى أن نبحث هنا وهناك عن أدلة وشواهد لنثبت بها فضائل محمد الفاتح ، حسبه فخراً وشرفاً تلك اللفتة النبوية الكريمة التى شمله بها الرسول صلى الله عليه وسلم: ألم يمدحه هو وجيشه أبلغ مدح بقوله : « لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش(٢) » .

---

(١) هو عبد الحق حامد بن خير الله بن عبد الحق : أمير شعراء الترك فى العصر الأخير ، ولد سنة ١٢٦٧ هـ [٥ فبراير سنة ١٨٥١ م] على ضفاف البوسفور فى بيت علم وأدب ؛ كان أبوه خير الله أديباً مؤرخاً وقد تولى رياسة «لجنة الثقافة» [أنجمن دانش] التى انشئت فى عهد المغفور له السلطان عبد المجيد الاول وكان يعلق على هـذه اللجنة العلمية أهمية كبرى حتى حضر حفلة افتتاحها بنفسه وكان جده الاستاذ عبد الحق كبير أطباء المغفور له السلطان محمود خان الثانى : وقد نشأ شاعرنا نشأة أدبية فنبغ فى الشعر والادب . فله أشعار كثيرة جداً جيدة جداً أشهرها وأبلغها قصيدته المعروفة : « مقبر » رثى بها زوجته المتوفاة فى ربيع العمر . وقد أحدث بها انقلابا فى الشعر التركى وبعد نشر هذه القصيدة قال بعض الادباء : «دفن الشعر القديم فى المقبر» توفى فى ١٢ ابريل سنة ١٩٣٧ م ودفن فى استانبول .

(٢) وقد روى هذا الحديث عن بشر الغنوى ــ ويقال الخثعمى ــ فى مسند الامام أحمد ج ٤ ص ٣٣٥ ، واسد الغابة ج ١ ص ١٨٩ ، والاصابة ج ١ ص ١٥٧ والاستيعاب ج ١ ص ١٤٨ والجامع الصغير ج ٢ .

مثل هذه اللفتة الكريمة لم يفز بها إلا أفراد قلائل جداً . كان المسلمون الأولون يعلمون هذا الحديث الشريف فحاصروا القسطنطينية سبع مرات ليلبسوا بردة الشرف العظيم الذى يخلعها نبيهم الكريم على من

مرقد فاتحى زيارت

هر گوشه سنده دهرك   نام بقا مدارك
شایسته در دنیلسه   عالم سنك مزارك
قالدك جهانده برآن   هر آنك اولدی بردور
ملك أزلدی گویا   تختگده هم جوارك
سنسك او پادشه كه   بو أمت نجیبه
أمصار بخشگدر   أبحار یادگارك
میدان حربی قیلدك   سن تختگاه شوكت
لشكردی هپ مسلح   أتباع بی شمارك
ماضی ، اوپردهٔ غیب ،   اكشادهٔ حضورك
آتی ، اوراه مظلم ،   آمادهٔ گذارك
توحید ایدی مرامك   اسلام ایله أنامی
برلشدی اول او غورده   علمگله اقتدارك
بیت خدایه قونمش   جاهك مطاف اسلام
طورمش باشگده بكلر   بر قوم تربه دارك
طاقنده منجلی در   هپ بینات معنی
أسرار لم یزلدن   مصنوع اولان بودارك
ارواح مؤمنیندر   أنجم قدر مشاعل
بالای تربتگدن   تنویر ایدر مزارك
شمشیر قوتنده   خامه گدی لرزه بخشا
معجزدی مثل خامه   شمشیر خدعه كارك
اوقشاردی زلف یاری   تدبیر عادلانه ك
چارپاردی فكر خصمه   تقریر دلشكارك
هرشاهه بویله طالع   یار اولماز ای شهنشه

يفتح هذه المدينة العظيمة . ولكنها كانت من نصيب فى الترك العظيم الذى كان فى سن الثلاث والعشرين وجيشه الباسل .

ما كان ليسع الشعب التركى أن ينسى عاهله هذا ، وما نسيه قط بل حفظ

نادر كلير نظيرى — بر بويله شهر يارك
بردم يوزك گولنجه — عالم بهار اولوردى
مثل كسوف هرجا — ظاهردى إغبرارك
يوقدر سنك غروبك — اى نير معالى
وارشعله دهادن — بيك نجم تابدارك
گوستر ديگك معالى — أهرا مدر مسلسل
كهسارلر عموماً — بالين احتضارك
سن محرق فتندك — اى آتش جلادت
سوندك نهايت آما — برق اولدى هر شرارك
باب نجاتى سنسك — اى فاتح ايلين فتح
مفتاح يايدى آنجق — جد بزر گوارك
هردم سكا آچيقدر — ابواب عرش ورحمت
تربه گدراك عظيمى — فتح ايتديگك ديارك

* * *

آغوش مادريدن — خاك وطن أعزدر
آندن داها معزز — بر نوردر غبارك

* * *

ترەردى سجده گاهك — اولدقجه سن جبين ساى
حالا گلير زميندن — تكبير زار زارك
هر عزمك ايلمشدى — تفسير آيت حق
ظاهردى ناصيه كده — آثارى چاريارك
مدحگده شاعرانه — إلهاملر گوگدر
تعريفى يرده بيتمز — عرشه چيقان كبارك

« عبد الحق حامد »

ذكراه المباركة فى سويداء قلبه فخوراً مزهوا ومعتزا بها ، وهاهو ذا يستعد الآن ليحتفل بذكرى مرور خمسمائة عام على فتح القسطنطينية ليعرب عما يكنه نحو بطل هذا الفتح المبين من الشعور العميق بالتقدير والعرفان

ترجمتها النثرية

اسمك الخالد باق فى كل ركن من العالم
فجدير أن يقال : « العالم بأسره ضريحك »
لبثت فى العالم لحظة وكل لحظة أصبح عهداً
فكأنما الملك الازلى كان بجانبك على عرشك

أنت ذلك السلطان الذى الامصار
عطيتك والبحار تذكارك لهذا الشعب النبيل
اتخذت ميدان القتال مقراً لعرشك العظيم
وكان جميع رعاياك التى لا عدلها جنداً مسلحا

الماضى ، ذلك العالم المتحجب بستار الغيب ، منكشف أمامك
المستقبل ، ذلك الطريق المظلم ، ممهد لسيرك
كان هدفك توحيد الأنام بالاسلام
واجتمع لهذا الغرض علمك ومقدرتك
وضع جاهك السامى فى الكعبة فأصبح مطاف المسلمين
وقوم بأسره واقف عند ضريحك سادنا له
وفى قبة هذا الضريح المشيد من الاسرار الالهية
تتجلى آيات بينات من كل معنى سام
إن أرواح المؤمنين ، وهى مصابيح مثل النجوم ،
لتنير مرقدك من فوق ضريحك

* * *

كان قلمك فى قوة السيف يبعث الرعب
وكان سيفك فى إعجاز القلم يسحر الالباب
كان تدبيرك العادل يمس الاصدقاء مساً رقيقاً
وكان تفررك الخلاب يقرع الاعداء قرعا

بالجميل . وينشر هذا الكتاب المتواضع أيضا لمثل هذه الغاية السامية .

ليس محمد الفاتح للشعب التركى وحده ، وإنما هو شخصية عالمية ؛ للشعوب الإسلامية كلها للتاريخ كله .

يامك الملوك لا يكون مثل هذا الحظ حليفاً لكل ملك
ولا يجود الزمان بمثل هذا العاهل إلا نادراً
يالك من ملك اذا ابتسمت مرة إنقلب العالم ربيعاً
واذا اغتممت عم أثره كل مكان مثل الكسوف
لا غروب لك ياشمس العلى
لك الف نجم متألق من العبقرية
إن ما قمت به من معالى الامور لسلسلة من الاهرامات
كنت يا صاحب الجلالة ناراً تحرق الفتن حرقاً
انطفأت اخيرا ولكن انقلب كل شرارة منك برقاً

***

أنت الذى فتحت باب النجاح أيها الفاتح
أما جدك العظيم فانما أعد لك المفتاح
أبواب العرش والرحمة مفتوحة لك دائما
إن أعظم البلدان التى فتحتها هو ضريحك
إن تربة الوطن أعز من صدر الام الحنون
وأعز منها رفاتك الذى يشع نوراً
كانت مواضع سجودك ترجف كلما سجدت فيها
لا تزال الارض تردد صدى تكبيراتك الداوية
كل عزيمة من عزماتك كانت تفسيرا لآيات الحق
وكانت آثار الخلفاء الاربعة ظاهرة فى ناصيتك

***

لابد فى مدحك من إلهام شاعرى سماوى
اذ لا يتم فى الارض تعريف عظماء صعدوا الى علياء السماء .

وبعد هذا التمهيد الموجز فى هذه الشخصية العظيمة المحترمة أنتقل الى الموضوع فأقول :

لكى نكوّن فكرة عن الحياة العدلية والقضائية فى عهد من العهود ، ونقدم صورة منها ، فإما أن نكون قدعشنا فى العهد نفسه ، او نلمّ بالمواد الآتية:

١ — مقدرة من بيده مقاليد الحكم ـ سواء كان ممثلا فى شخص أو هيئة ـ على تنفيذ إرادته ، ومنهجه فى الادارة .

٢ — التشيكلات القضائية والادارية .

٣ — حالة المنوط بهم تحقيق العدالة من حيث الكفاءة والخلق .

٤ — القوانين المعمول بها والأسس التى قامت عليها .

فهذه المواد الأربع التى ستقوم عليها دراسة موضوعنا مضبوطة — ولو إجمالا — ضبطاً تاريخياً لا يتطرق اليه شك وثابتة بوثائق عديدة ، ومدونة فى بطون مؤلفات علمية خالدة .

الغالب فى عهد حاكم يحب العدل ويقدر على تنفيذ إرادته هو العدالة . والعكس بالعكس . هذه النقطة هامة جداً فى الحياتين السياسية والاجتماعية

العهود التى نعم أهلها بالعدالة مدينة لتوخى حكامها العدل فى تصرفاتهم أليست تلك الحياة السعيدة التى هنئت بها ايران الزردشتية فى عهد جاهليتها الأولى والتى لا تزال تزهو بها حتى الآن — مدينة لحاكمها انوشيروان المعروف بعدله(١) ؟

---

(١) هو الملك العشرون من ملوك أسرة الساسانيان التى حكمت ايران معروف بعدله وقوته وموضع فخر الشعب الايرانى ، خلف أباه قباد على عرش إيران سنة ٥٣١ وحكم حكما عادلا موفقا مدة ٤٨ سنة فقضى على المذهب الالحادى الشيوعى الذى كان انشأه « مزدك » فى عصر أبيه ، فقتل منشىء المذهب وأنصاره .

وبعد ، فانى شارع الآن فى دراسة موضوعى سائرا على هـذه المبادىء الأربعة محاولا ان أبين مقدرة محمد الفاتح على تنفيذ إرادته ومنهجه فى الادارة وتشكيلاته الادارية والقضائية ، وحالة المحاكم وغيرها من السلطات القضائية من حيث الكفاءة والقوانين التى كانت يعمل بها . ثم ادون فى آخر الكتاب القوانين المنسوبة اليه مع ابداء ملاحظاتى عليها .

ولكى أقدم فكرة عن المستوى العلمى وعدل المحاكم فى ذاك العهد اذكر نبذاً من تراجم من تولوا القضاء من الناحيتين العلمية والخلقية(١) ومن الله التوفيق .

---

(١) ولا أتعرض أثناء البحث للحياتين الحربية السياسية لانهما خارجتان من نطاق موضوعى والذين يريدون دراسة هاتين الناحيتين نوصيهم بمراجعة كتب التاريخ القديمة منها والحديثة وبخاصة الرسالة المسماة « محمد الفاتح » التى وضعها الاستاذ الدكتور سالم احمد الرشيدى الأندونيسى ونال بها الدكتوراه فى التاريخ من الجامعة الأزهرية .

مقدمـــــــة

حياة الفاتح وادارته

ولد السلطان محمد الفاتح بأدرنه ليلة السبت الموافق السابع من رجب سنة ٨٣٣ ثلاث وثلاثين وثمانمائة هجرية(١) وهو نجل السلطان مراد الثانى من أعظم سلاطين آل عثمان وحفيد السلطان محمد چلبي الأول مجدد بنيان الدولة العثمانية ومنشئها الثانى بعد نكبة تيمورلنك التى منيت بها البلاد عقب هزيمة بايزيد الأول فى معركة أنقره . والدته السلطانه خديجه عليمة(٢) كريمة

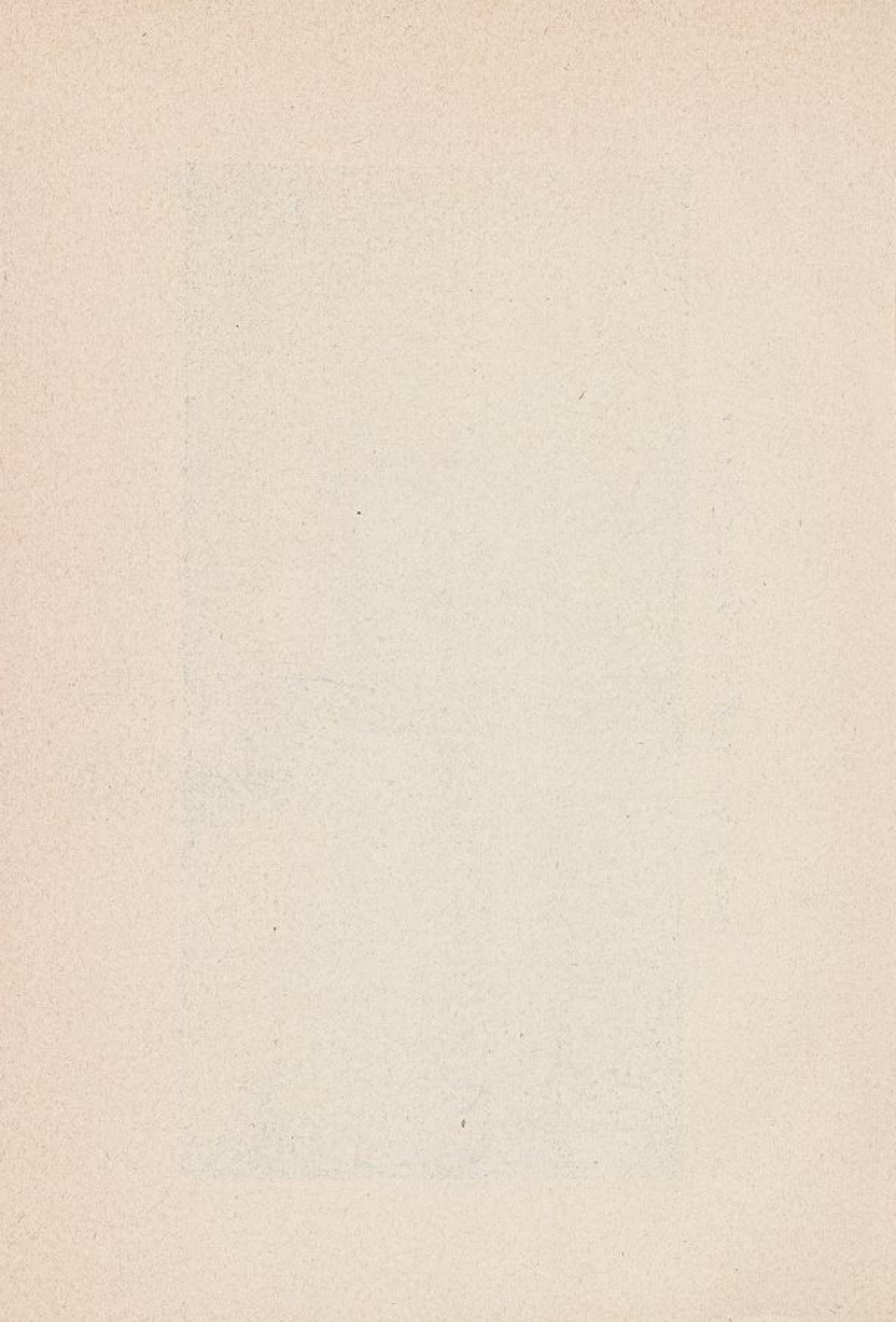
---

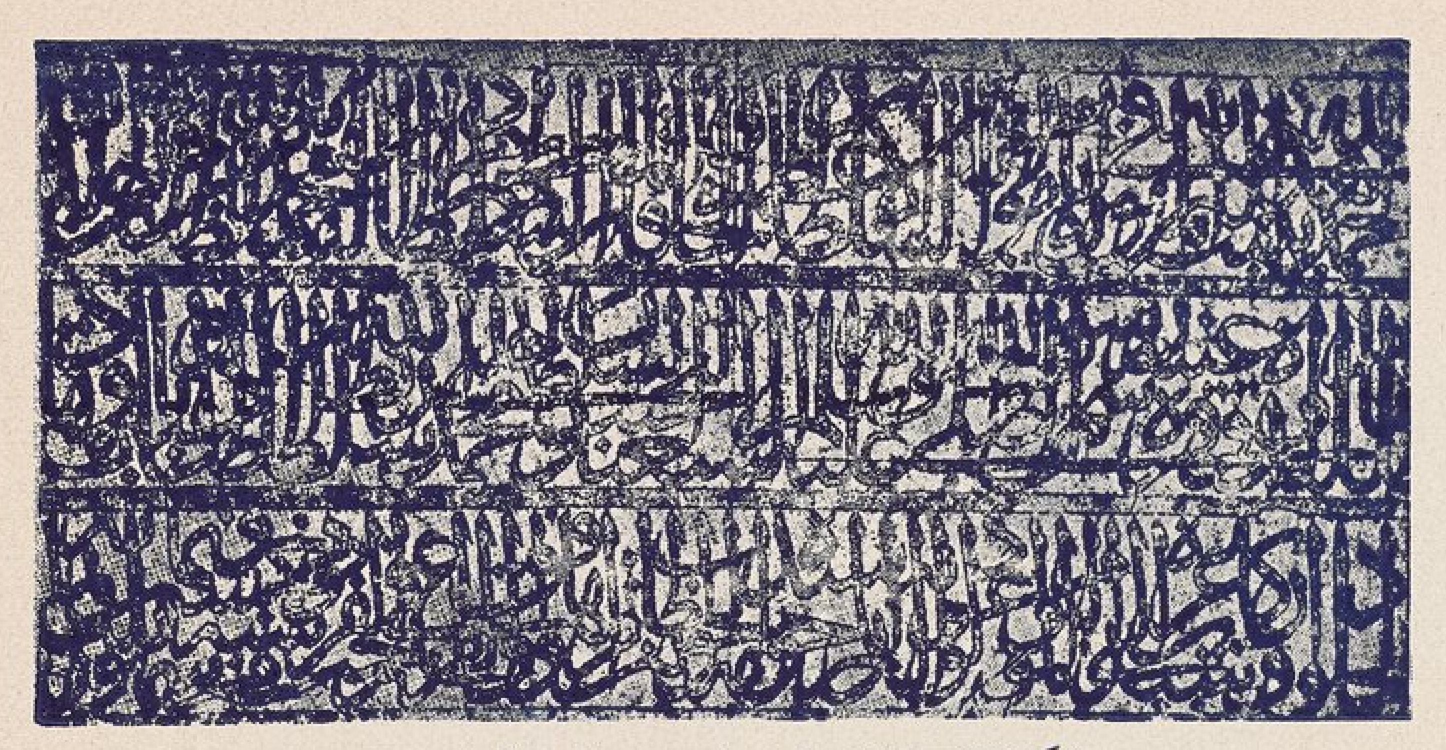
(١) اختلفت روايات المؤرخين فى تاريخ ميلاد محمد الفاتح فى سنته ويومه فأرخ صاحب الشقائق ميلاده فى سنة ٨٣٥هـ ، وأرخه عالى مؤلف كنه الأخبار فى ٧ رجب سنة ٨٣٤هـ ، وأثمار التواريخ فى ٢٦ رجب سنة ٨٣٣ ، واعتمد المؤرخ جودت (باشا) من بين هذه الروايات التاريخ الذى اخترناه ويؤيده ماضبطه أكثر المؤرخين من تاريخ جلوسه ومدة عمره .

(٢) وكذلك تضاربت أقوالهم فى والدته: قال بعض المؤرخين مثل هامر انه ولد من جارية ولم يذكر اسمها ، ورواية أخرى تقول : والدته سيدة اسمها « هما » فالصحيح هو الذى اخترناه فى المتن استناداً الى بعض الدلائل والقرائن ، ويرى الرأى نفسه بعض مؤرخى الترك مثل احمد رفيق (بك) فى كتابه المسمى « الترك امام بيزانس » .

والامر المحقق ان والدة الفاتح سيدة مسلمة ، ومن الغريب ادعاء كونها مسيحية استناداً الى «فرمان» مؤرخ سنة ٨٦٣ هـ مزعوم الصدور من الفاتح ومشتمل على العبارة الآتية : « سيدة الخواتين(*) المسيحية والدتى حالا السيدة دسپينا » ويدل على عدم صحة هذا الادعاء أمران :

(*) جمع خاتون ومعناها سيدة محترمة كبيرة المقام .





الكتابة العربية التاريخية على باب ضريح والدة الفاتح فى بروسه

. . . .

أولا — ان طغراء [= طرة] هذا الفرمان ليست لمحمد الفاتح بيقين .

ثانيا — ان والدة الفاتح توفيت الى رحمة الله تعالى قبل سنة ٨٥٣ هـ اى قبل تاريخ صدور الفرمان المزعوم بأكثر من عشرسنين ودفنت بمدينة بروسه العاصمة الاولى للدولة العثمانية وضريحها هناك فى حى « مرادية » وقد كتبت على باب الضريح العبارة العربية الآتية فى ثلاثة أسطر :

السطر الأول : « الحمد لله بنيت هذه التربة المنورة فى أيام مولانا السلطان الاعظم والخان المعظم السلطان بن السلطان مراد خان بن محمد بن بايزيد خان خلد الله

السطر الثانى : « ملكه بأمر ولده وقرة عينه سمى رسول الله صلى الله عليه وسلم السيد النجيب السلطان محمد چلبى اربط الله أطناب سلطان دولته بأوتاد

السطر الثالث : « الخلود وشيد أركان عزه إلى اليوم الموعود لوالدته المرحومة سيدة الخواتين طاب ثراها . ووافق الفراغ فى رجب الفرد من شهور سنة ثلاث وخمسين وثمانمائة » .

يفهم من هذه الكتابة التاريخية التى لا يتطرق الى صحتها أى شك ، فهماً قاطعا مبلغ ضعف الروايات القائلة بأن والدة الفاتح كانت مسيحية أو فرنسية أليس كذلك ؟

قال هامر حين ذكر المبانى القائمة حول مسجد الفاتح المعروف باسمه : « هناك حول المسجد وفى وسط دائرة تبعد عنه قليلا تشاهد مجموعة مبان تتألف من سبيل وحمامات ودار كتب ومدرسة للحديث وحوش مشتمل على قاعة وضريح وضريح السلطانة عليمة والدة الفاتح بالقرب منه » ولكن نظراً الى كتابة بروسه الآنفة يجب أن يكون هذا غير صحيح .

إسفنديار بك من أسرة الإسفنديارية(١) .

نشأ محمد الفاتح فى بيئة طابعها متانة الخلق ومن جيل سمته صفاء السريرة ونقاؤها . وعنى بتربيته وتعليمه عناية بالغة تحت إشراف أساتذة على مستوى رفيع من العلم والخلق(٢) .

جد فى طلب العلم واكتساب الفضائل الى سن الحادية والعشرين فتفتحت مواهبه الفطرية وتفتق ذهنه واتسع افق تفكيره فأثبت بذلك أنه خليق أن يكون نجلا نجيبا لسلطان عظيم عادل مثل السلطان مراد الثانى كما أثبت أن هذا الشبل من ذاك الاسد . وأجلى دليل على نجابته تلك الحيـــاة النزيهة الرزينة التى أمضاها فى مغنيسيا(٣)

كان محمد الفاتح المتربى تربية اسلامية يدرك انه سيجلس يوماً ما على عرش السلطنة العثمانية ويقدر المزايا والقيم التى تمس الحاجة إليها فى ادارة الدولة

---

(١) الإمارة الاسفنديارية هى احدى الإمارات التى قامت على أطلال الدولة السلجوقية وكانت تحكم مقاطعة قسطمونى ومدينة سينوب على ساحل البحر الاسود وكانوا يزعمون انهم من سلالة خالد بن الوليد رضى الله عنه . وقد ألحقت بلادهم بالدولة العثمانية فى عهد المغفور له محمد الفاتح . وآخر أميرمنهم هوالامير «قزل احمد» [احمد الاحمر] .

(٢) أساتذة الفاتح : ابن تمجيد ، المولى الكورانى ، المولى خسرو ، المولى زيرك ، خواجه زاده ، ولى الدين زاده احمد ، خطيب زاده ، حسن السمسونى ، سنان باشا . تلقى عنهم شتى العلوم والمعارف .

(٣) مغنيسا مدينة تاريخية بالأناضول ألحقت بالبلاد العثمانية فى عهد السلطان بايزيد الاول الملقب بيلديرم [اى الصاعقة] وأصبحت بعد ذلك مقراً لاقامة الامراء العثمانيين فاقام بها السلطان مراد الثانى ونجله الفاتح والسلطان مراد الثالث وغيرهم . وقد اكتشف معدن «المغنطيس» بجوارها فسمى باسمها.

قاموس الاعلام ج ٦ ص ٤٣٤٨



منظر لضريح والدة السلطان محمد الفاتح من الواجهة

ويعمل جاهداً على اكتساب هذه المزايا حتى يكون أهلا لشغل هـذا المقام السامى من جميع الوجوه .

وقد آنس منه والده العظيم القدرة على تصريف شئون الدولة والجدارة الذاتية بولاية الحكم . فالقى اليه مقاليده وهو لما يتجاوز سن الثالثة عشرة(١) والا فغير معقول من رجل حكيم بعيد النظر معروف بوطنيته مثل السلطان مراد الثانى أن يترك إدارة دولة عظيمة إلى شاب غر عاجز ، وان فى قيام الفاتح بحسن ادارة الدولة مدة تربو على سنتين مستقلا برأيه وتدبيره ، أوضح دليل على كفاءته الذاتية الممتازة وصدق فراسة والده العظيم فيه .

قد يقول قائل إنه كان يدير شئون الدولة بتوجيهات الوزراء مثل خليل باشا وغيره فنقول كلا . فان الشكاوى التى كانت ترفع الى والده بعدم استماعه لمن حوله من النصحاء والمرشدين ، تدل على انه كان يعمل برأيه .

وأما عودة والده الى الحكم ثانيا فليست من عجز الفاتح وإنما كانت مجرد حيطة اتخذت بسبب الحادث المعروف تفاصيله فى التاريخ وهو هجوم ملك المجر على البلاد العثمانية على رأس جيش صليبى ناقضا العهد وخارقا معاهدة الصلح المعقودة بينه والدولة وذلك بتغرير الكردينال « سيزارينى » مندوب البابا وتفهيمه لملك المجر ان عدم رعاية العهود مع المسلمين لا يعد حنثا ولا نقضا . فى مثل هذه الظروف الطارئة رأى السلطان مراد ان يعود الى الحكم تلبية لداعى الوطن واستجابة لنـداء الوزراء لـكيلا يستغل العدو حداثة سن الجالس على العرش . وبعد أن انتصر على العدو فى موقعة « وارنه »

---

(١) ولا يجوز ادعاء عدم أهليته الشرعية لـكونه دون سن الخامسة عشرة حين توليه الحكم فان الخمس عشرة سنة هى الحد الاقصى للبلوغ . ويثبت البلوغ قبل هذه السن فى الغالب .

عاد إلى عزلته ولكنه إزاء بعض الحوادث وفتنة عساكر الإنكشارية والحاح الوزراء لم يجد بدا من العودة الى الحكم .

ولما جلس الفاتح على عرش السلطنة مرة اخرى فى المحرم سنة ٨٥٥هـ كان عالماً وجامعا فى نفسه كل ما يجب توافره فيمن يتولى الحكم من الأوصاف والمزايا(١) .

تلقى الفاتح فى حياة والده العلوم الاسلامية من كبار الأساتذة مع سائر العلوم والمعارف التى تطلبها ادارة الدولة وعرف كيف يتحمل تبعات الحكم وينهض باعباء الملك ودرس سياسة الدولة الداخلية والخارجية .

وكان يعنى بمطالعة كتب التاريخ ويدرس حياة كبار الملوك والأبطال وفتوحاتهم ويقرأ سير القياصرة وقسطنطين الأكبر وتئودوسيوس الكبير

---

(١) يروى المرحوم احمد راسم بك فى تاريخه عن المرحوم نامق كمال بك ما يأتى:
لما تولى والده السلطان مراد الثانى مقاليد الحكم ثانياً عاد محمد الفاتح مخلوعاً الى « مغنيسا » حيث مقر عمله الاول وهو متأثر من الدرس القاسى الذى تلقاه ولا سيما من نفى واهانة زاغنوس باشا(*) ولئن كان هذا الحادث [يعنى خلعه] نقمة لشخص الفاتح فانه يعد نعمة عظمى للدولة فان الخطوب والمحن لهى المدرسة العليا يتلقى فيها الافذاذ ألواناً من دروس التجارب والعبر يتخرجون فيها أكمل مايكونون دربة واستعداداً لمواجهة الحياة . وكذلك كان هذا البطل فقد أفاد فى الفترة الطويلة التى قضاها مخلوعا ومعتزلا لامن مدرسة الخطوب والمحن فحسب بل تلقى من العلوم والمعارف قسطا وافراً كساه حلة العلم فوق رداء الحكم . ومن آثار هذه العزلة ان تعلم اللغات العربية والفارسية واللاتينية والعبرانية فكان من ثمرة هذه المعرفة الواسعة أن وقف على بواطن الامور ودخائل السياسه فى الشرق والغرب .

(*) كان زاغنوس مخلصاً للفاتح أثيراً لديه ولما خلع من الحكم عزل هو أيضاً من منصبه ونفى الى «باليكسر» وعندما تولى الفاتح الحكم مرة ثانية تضاعف نفوذ المتحدث عنه واصبحت له منزلة سامية وكلمة نافذة .

وتسترعى اهتمامه بصفة خاصة شخصية اسكندر الاكبر المقدونى ويجد فى نفسه مزاياه من القوة ومضاء العزم ونفاذ الارادة(١) ،

كان محمد الفاتح عالماً كبيراً فى العلوم الشرعية ومحباً لسائر العلوم والفنون كالموسيقى والرسم ويتذوق الادب والشعر ولم يكن يخلو من درس الفلسفة وعلم الفلك بعناية خاصة من حين إلى حين .

وكانت حياته بسيطة جداً ، وكانت هوايته فى قراءة الكتب والتدرب على فن القتال ، واذاوجد متسعا من الوقت خرج للصيد والطراد . وكان عزوفاً عن الشهوات والملذات ومجتنباً عن المنكرات وكانت مائدته تمتاز بالبساطة والخلو من الندماء والمشروبات الروحية بأنواعها وكان يكره الاختلاط المبتذل ويعيش فى عالم نفسه إما فى جو علمى او فى ميدان الجهاد والقتال .

كان رحمه الله يجد متعة روحية فى النقاش العلمى وهو أكثر من يتلذذ من المناقشات العلمية من بين سلاطين آل عثمان . وبما أنه عالم كبير كما سلفت

= ومن آثار هذه العزلة ايضاً ان أتم دراسة العلوم الشرعية والعقلية، اصولها وفروعها ، فكان من ثمرة هذه الدراسة الشاملة ان عرف كيف يؤسس دولة متحضرة لم يشاهد نظيرها فى تلك العصور . وأحدث تعديلا فى القتال وابتكر خططاً وأساليب تعد نواة لما يشاهد الآن من الرقى . . . »

(١) يقول المؤرخ كاريتو وولوس :

« كان السلطان محمد خان وريث دولة عظيمة وصاحب مالا يحصى من النقود والاسلحة والجنود وحاكم اجمل بقعة فى قارتى آسيا واوربا واكثرها عمراناً ومع ذلك كله لم يكن يكتفى بما تجمع فى يده من هذه القوى المادية بل كان يجول بأفكاره فى آفاق أوسع ويتخذ من امثال اسكندر وپومپر ويوليوس قيصر قدوة له »

ترجمة كارولیدى نائب ازمير سابقاً

الاشارة إليه فكان يؤثر العلماء ببالغ عطفه وكريم رعايته ويطلب إليهم مناقشة المسائل العلمية بحضرته ، وقد يشترك فى النقاش وفى أثنائه يخلع عن نفسه رداء الحاكم ويلبس شعار العالم ويعمل كعضو علمى فى مجلس علمى . وكان خضر بك ، وخواجه زاده ، والمولى خسرو ، والمولى الگورانى ، والمولى زيرك ، وعلى القوشجى ، وعلاء الدين على الفنارى ، وامثالهم من كبار علماء عصره ـ ندماءه فى العلم والفلسفة وجلسائه فى الادب والعرفان ، وكان قد يذكى النقاش ويجد لذة كبيرة من الآراء التى يسفر عنها صدام الافكار فى اثناء البحث الدقيق والنقاش العميق(١) .

كان رحمه الله رقيق القلب معروفاً بالرحمة والشفقة والعفو والصفح ، ولم يكن فى طبعه عنف ولاقسوة ، وحسبنا دليلا على مبلغ عطفه وأريحيته ان نذكر ما أنشأه من المطاعم الخيرية والمستشفيات ودور الضيافة ، وما أغدق على الايتام والارامل من العطايا السخية ونطلع على وقفيات هذه المنشآت الخيرية .

واماما كان يجنح اليه من الشدة فى ادارته ، وعمله الرسمى فكان من مقتضيات الحالتين الروحية والسياسية السائدتين فى ذاك العهد ، وما سبقه من الاحداث المؤسفة والصدور التى تغلى فيها مراجل الحقد والثأر . ودولة يحيط بها مثل

---

(١) ويحلو لى ان انقل هنا الثناء العاطر الذى اغدقه على الفاتح المؤرخ المصرى العلامة السخاوى مؤلف الضوء اللامع حيث قال فى ترجمة الفاتح « . . . كان ملكا عظيما اقتفى أثر ابيه فى المثابرة على دفع الفرنج بحيث فاقه مع وصفه بمزاحمة العلماء ورغبته فى لقائهم وتعظيم من يرد عليه منهم واهدائه فى كل قليل للمحيوى الكافيهجى مع مكاتباته الفائقة وانخفاضه عن أبيه فى اللذات وله مآثر كثيرة من مدارس وزوايا وجوامع ... » الضوء اللامع ج ١٠ ص ٤٧ .

هذه الظروف لا تمكن ادارتها بغير الحزم ، وليس فى وسع حاكمها ان ينتهج فى ادارته غير سياسة الحزم والشدة .

وأما حادث خنق أخيه الرضيع الامير احمد ، فلا يزال يكتنفه الغموض فى دافعه وفاعله ، فاذا حدث هذا الحادث المحزن بدافع الحرص على سلامة الوطن من ان ينقسم ويضطرب أمره فنسأل الله تعالى العفو والغفران . ومع ما فى هذا الحادث وامثاله من القسوة والفظاعة يعده بعض المتفكرين تضحية كبرى بذلت لصالح الوطن .

وصفوة القول : لا يستطيع منصف ان ينسب الى محمد الفاتح ظلماً أو قسوة غير اعدائه ، حتى الذين دفعهم التعصب الدينى أو القومى إلى التطوع للبحث عن عثراته والعمل على الحط من قدره ، لم يجدوا بالرغم عن كثرة بحثهم ما يشينه فى نظرهم سوى حوادث تعد على اصابع اليد الواحدة طوال حكمه الذى استمر نحو ثلاثين سنة ونيف ، على أن بعض هذه الحوادث له من الأسباب الوجيهة ما يبرر وقوعه والبعض الآخر لا يزال يحتفظ بطابعه السرى لم تكشف عنه الايام النقاب بعد . واذا تصورنا ما يرتكب الآن فى العالم الذى اصطلحوا على تسميته بالعالم المتحضر من أنواع الظلم والأعمال الوحشية باسم العدالة وبواسطة المؤسسات الممثلة لها يتبين لنا ان محمدا الفاتح كم كان عظيما وكم كان عادلا رحيما ذا شفقة ورقة .

كان المقياس عند هذا السلطان العظيم فى معرفة اقدار الرجال الذين يعهد اليهم شئون الدولة انما هو الكفاءة واللياقة والاستقامة والعفاف ولم يكن يقيم وزناً لغير هذه المزايا وكان أعظم القيم عنده شأناً العدالة والعلم والعمل والنشاط والنزاهة والاستقامة .

ولم تكن ميزة الفاتح فى مجال الثقافة والجندية ، بل كان صاحب كفاءة فائقة

فى وضع القوانين ، ورجل ادارة من الطراز الأول فقد أنشأ دولة عظيمة واستولى على امبراطوريتين وعشر دول ومائتى مدينة (١)

وضع النظم والقوانين وكفل للشعب التركى النصر فى الخارج والأمن والاستقرار فى الداخل. شهد العالم قبل محمد الفاتح كثيراً من الابطال والفاتحين فتحوا كثيراً من المدن وأنشأوا دولاً ولكن لم يكن لأعمال أحد منهم حظ من الثبات والاستقرار مثلما كان لاعماله .

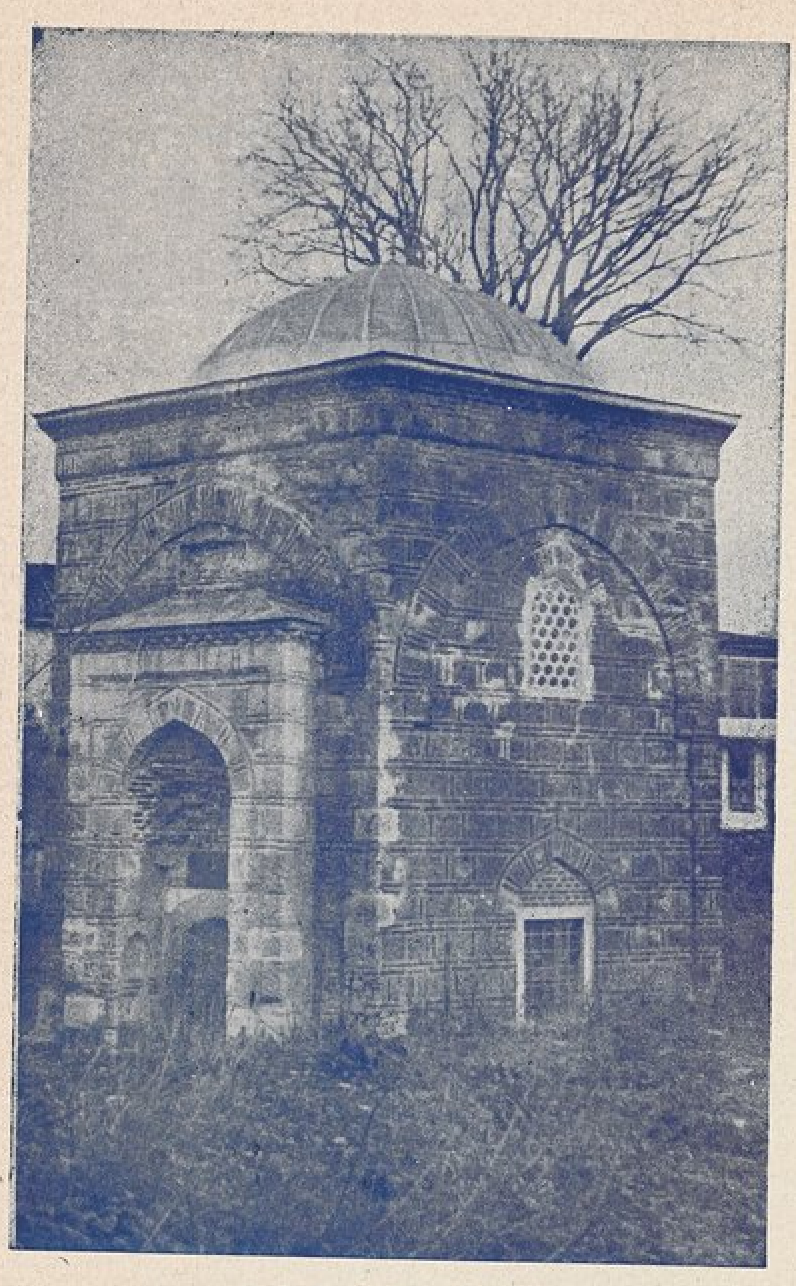
لم يقصر همه وهمته على فتح البلدان وتوسيع رقعة المملكة فحسب بل فعل كل ما من شأنه أن يضمن لدولة عظيمة بقاءها وامنها من العدوان واصابه التوفيق فى توفير الاسباب المادية والمعنوية الكفيلة بهذا الغرض .

ادعى بعض مؤرخى الغرب المعاصرين للفاتح أنه لم يكن وثيق الصلة بالدين ، مستدلا بسياسة التسامح التى انتهجها ازاء الكنيسة ، فهذا الزعم مخالف للحقيقة كل المخالفة ، فان محمدا الفاتح كان شديد التمسك بدينه فكانت أمنيته الوحيدة التى ينشدها ويعمل على تحقيقها نشر عقيدة التوحيد والمحافظة على تعاليم الشريعة المحمدية والعمل على رقيها ، وكان يحمد الله تعالى ويشكره على ما يصيبه من توفيقاته الصمدانية فيما يباشره من الأعمال ، ويعطف على علماء الدين ويكرمهم اكراماً لم يسبق له نظير .

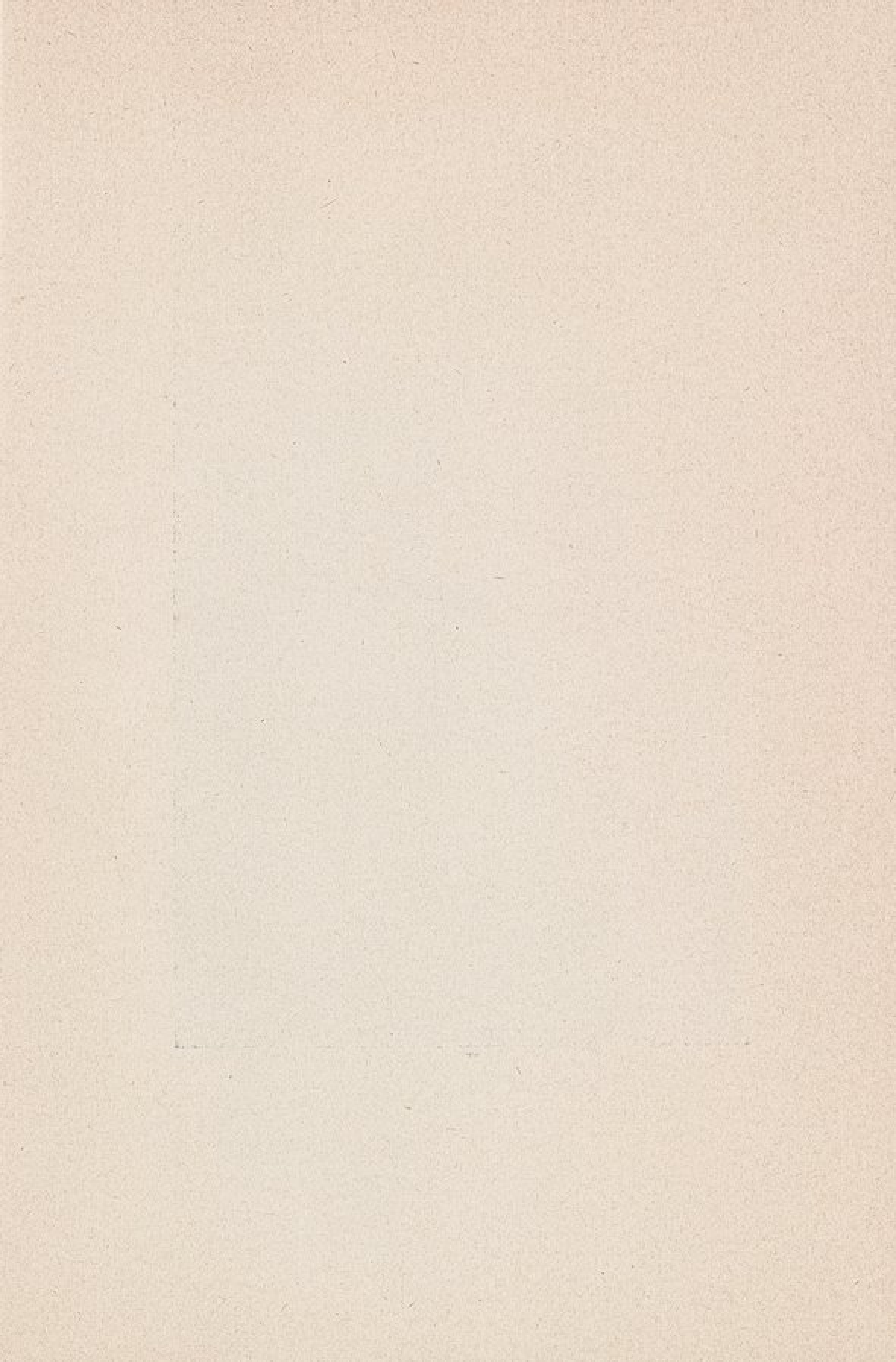
واما الامتيازات التى منحها الكنيسة ، فليس فيها اى شىء من المخالفة سواء للأحكام الإسلامية أو للسياسة العادلة التى كان يتوخاها فى حكمه .فقد ذكر فى الفقه الاسلامى الاحكام التى يعامل بها اهل الكتاب من غير المسلمين وانهم يتركون ودينهم مصونة أرواحهم وأموالهم واعراضهم لهم ما للمسلمين

---

(١) امبراطوريتى بيزانس وطرابزون ، ودول الصرب وبوسنه والبانيا ورومانيا والموره وقرمان وقسطمونى وغيرها .



ضريح والدة السلطان محمد الفاتح فى بروسه



وعليهم ما عليهم من الحقوق والواجبات ، فقد عاملهم الفاتح وفقاً للتعاليم الإسلامية وراعى عهد الذمة وطبق عليهم هذه الأحكام فى اليوم الثالث من الفتح . وفى ظل هذا التسامح الكريم عاش المسيحيون والموسويون وغيرهم من الطوائف غير المسلمة القاطنة فى بلادنا ... عاشوا آمنين مطمئنين متمتعين برغد العيش ورفاهية الحال ممارسين جميع حقوقهم ولكنهم مع الاسف الشديد لم يوفوا هذه المعاملة السمحة الكريمة بعض حقها من الشكر .

فاذا نظرنا الى هذا التسامح الاسلامى البالغ منتهى السمو وذكرنا المصير الاليم الذى آل اليه امر المسلمين بالأندلس فى الماضى ، وذكرنا أيضاً ما يجرى الآن فى عصرنا المسمى عصر المدنية من ضروب الاضطهاد التى تعانيها الأقليات والأعمال الوحشية التى تستهدف لها الامم المغلوبة وتقشعر من هولها الابدان ثم قارنا بين هذا وذاك ، وجدنا الفرق شاسعاً والبون بعيداً بعد السماء عن الأرض .

يقول أحمد رفيق (بك) فى كتابه «الغيرة الدينية والحب الوطنى فى سلاطيننا» : «كانت الغاية المنشودة لسلاطيننا أن يخدموا الاسلام بسيوفهم ويفوزوا بشفاعة الرسول الأكرم فالاحاديث النبوية الواردة فى فضل الجهاد ، والمثوبة الموعود بها المجاهدون ، حفزتهم الى الجهاد ، وكانوا فى غزواتهم وحروبهم يرعون دين عدوهم ويصونون أرواحهم وأموالهم واعراضهم ، وللسلطان محمد الفاتح قصب السبق فى هذا المضمار» .

لم تكن عناية محمد الفاتح بالعلم والثقافة بأقل من عنايته بشئون السياسة والحرب فقد بذ جميع سلاطين آل عثمان فى احترام العلماء ورجال الدين . وكان رحمه الله تعالى يدرك بنافذ بصيرته أن القوة المادية والحربية وحدها لا تكفل للامة السعادة والمجد ، فلابد من دعمها بقوة العلم والايمان والعدل ، ولذلك كان يعمل دائباً ليجعل من وطنه العزيز موطناً للعلم ، ومجمعاً للعلماء والشعراء ، ومركزاً للعدالة .

ولهذا الغرض استقدم العالم الكبير والرياضى الشهير « على القوشجى » من علماء ماوراء النهر مع أفراد اسرته وغمره بفيض من عطفه ورعايته حين وصوله (١). وعمل على تعميم العلم ونشر العدالة فى طول البلاد وعرضها ففتح فيها المكاتب والمدارس حتى فى أصغر قرية منها وأنشأ المحاكم فى المراكز.

كان رحمه الله يقرض الشعر فى عدة لغات، وله ديوان شعر تركى يسمى « ديوان عونى » (٢) وقد اشرنا اليه فيما سلف وننقل منه القطعة الآتية :

ساقيا مى صون كه بر گون لاله زار ألدن گيدر
ايريشور فصل خزان باغ وبهار ألدن گيدر
غره اولما دلبرا حسن وجماله قيل وفا!
باقى قالماز كيمسه‌يه نقش ونكار ألدن گيدر

ترجمتها

ياساقى الراح ناول الكأس ولسوف يحل يوم تذوى فيه الشقائق
ويحل الخريف ويدبر الربيع وينصرم البستان
وانت ايتها الحسناء الوفاء الوفاء لا تغترى بجمالك
فان الحسن والجمال زائلان لايدومان لاحد

---

(١) وقد وضع الاستاذ الجليل الدكتور سهيل انور كتابا باللغة التركية سماه « على قوشجى : حياتى ومولفاتى » [على القوشجى : حياته ومؤلفاته] تكلم فيه باسهاب عن هذا العالم الكبير.

والكتاب مطبوع بمطبعة كنان باستانبول سنة ١٩٤٨ م

(٢) «عونى» اسم شعرى لمحمد الفاتح وهوما يعرف عند شعراء الترك والفرس بالتخلص او المخلص، فكان الشاعر يختار اسمه الشعرى من اسمه او من اسم حرفته وبلده وما الى ذلك.

كان يجد لذة كبيرة فى انشاء الشعر والاستماع اليه ويجزل العطايا للشعراء بدون تمييز بين جنسياتهم واوطانهم ، ولم تقف جوائزه عند حدود الوطن بل جاوزتها الى الهند وايران فشملت شعراءهما فانه كان يرسل راتباً شهرياً محترماً الى خواجه جهان شاعر الهند وجامى شاعر ايران .

انشأ فى كل من بروسه وقسطمونى مدارس لتعليم الشعر الغنائى وأجرى راتباً على ثلاثين شاعراً فأضحت المدن الكبرى مجامع الأدباء والشعراء . ومن الشعراء الذين فازوا بعطف الفاتح وتقديره الشاعر حمدى (١) ناظم قصتى يوسف وذليخا وليلى ومجنون على غرار مانظمه جامى . والشاعر شهدى الذى بدأ ينظم التاريخ العثمانى كما نظم الفردوسى تاريخ ايران ولكن عاجلته المنية قبل اتمامه . والكلشنى وقد نظم نحو عشرين الف بيت فى أسلوب « مثنوى » لمولانا جلال الدين الرومى . والهى ملشى زاد المشتاقين ونتائج الارواح . ومن النساء الشاعرات الشاعرة « مهرى » الآماسية (٢) وزينب القسطمونية .

وليس شعراء عهد الفاتح هم الذين ذكرناهم بل كان هناك مئات من الشعراء غيرهم ، وقد سجل لنا كتب التراجم الخاصة بالشعراء سبعة شعراء تولوا الوزارة فى عهده . ونحن نترك تفصيلات هذا الموضوع الى من يكتب حياته الادبية .

---

(١) هو محمد حمدى بن العالم الكبير والصوفى الشهير الشيخ آق شمس الدين الذى شهد فتح القسطنطينية واكتشف قبر ابى ايوب الانصارى رضى الله عنه

(٢) نسبة الى آماسية مدينة بالأناضول معروفة بجودة تفاحها وهى « خرشنة » الوارد ذكرها فى قصيدة المتنبي فى مدح سيف الدولة :

حتى أقام على أرباض خرشنة   تشقى به الروم والصلبان والبيع

درج محمد الفاتح منذ صباه الباكر على اشباع نهمه من العلم والاستزادة من مختلف الثقافات وقد اختار من العلماء البارزين «خواجه زاده»[١] و«ابن الخطيب»[٢] مدرسين له وقرأ عليهما ما شاء من كتب السلف وأطلع أيضاً على مؤلفات العلماء المعاصرين وبحث آراءهم بدقة ونقدها نقداً علمياً.

---

(١) هو مصطفى مصلح الدين بن يوسف بن صالح البروسوى الشهير بخواجه زاده من كبار العلماء الذين أنجبهم الشعب التركي وموضع فخرهم قرأ عند المولى محمد آيا ثلوغ [وهو من علماء عهد السلطان مراد الثانى وكان يعرف بچلبى آيا ثلوغ] الأصلين والمعانى والبيان ثم وصل إلى خضر بك وهو مدرس بالمدرسة السلطانية فى بروسه فعين مساعداً [معيدا] له فاتم دراسته. وكان خضر بك يجله ويقدره تقديراً عظيما ومتى حدثت مشكلة علمية كان يقول: «ارجعوا الى العقل السليم» يعنى به صاحب الترجمة وقد فاز رحمه الله بتقدير الفاتح وعطفه فى ظروف مختلفة ومناسبات شتى فاتخذه مدرساً لنفسه واسند اليه اعمالا هامة وعينه قاضى عسكر الأناضول بعد المولى خسرو ثم قاضى استانبول وولى التدريس فى مدارس مختلفة. والف بامر السلطان كتابه القيم «تهافت الفلاسفة» فقوبل بتقدير واعجاب فى كل مكان وله مؤلفات قيمة. توفى الى رحمة الله تعالى سنة ٨٩٣ هجرية ودفن فى ضريح بالقرب من مدرسة امير سلطان فى بروسه.

(٢) هو محمد محي الدين الشهير بابن الخطيب قرأ على والده المولى تاج الدين ابراهيم المدفون بمدينة «إزنيق» والطوسى وخضر بك. كان عالماً كبيراً طلق اللسان جرىء الجنان قوياً على المحاورة فصيحاً عند المباحثة والمناقشة وكان عنده من الغرور وخشونة الطبع ما لا يتفق وما يجب ان يتصف به اهل العلم من التواضع ولين الجانب حتى انه بسبب غروره قد افتى باهدار دم عالم جليل مثل المولى لطفى التوقاتى الآتى ترجمته. وله مؤلفات قيمة. وقد شرع فى التعليق على شرح الوقاية لصدر الشريعة ولم يتمه. مات سنة ٩٠١ هـ ودفن بالقرب من ضريح على القوشجى بمقبرة ابى ايوب الانصارى باستانبول.

كانت له مكتبة خاصة تحتوى كتباً قيمة جمعها وانتقاها باهتمام وعناية ، وعين المولى لطفي (١) اميناً لها بعض مدة . وكان رحمه‌الله يعنى بالعلم والتعليم والمعلمين والطلبة عناية بالغة الغاية ويهيء لهم جميع وسائل التعليم ويوفر للطلبة أسباب المعيشة فى اثناء الطلب لكيلا تشغلهم مطالب الحياة عن التفرغ للعلم.

عهد الى وزيره الأول محمود (باشا) (٢) اصلاح نظام التعليم وكان محمود

---

(١) هو المولى لطف الله التوقاتى من كبار علماء الرياضة قرأ على سنان (باشا) وتلق الرياضة والهيأة من على القوشجى حين وصوله الى استانبول ودخل فى خدمة السلطان محمد الفاتح بواسطة سنان (باشا) فاشتغل اميناً لمكتبته الخاصة بعض مدة ولما نفى سنان (باشا) الى سفرىحصار سافر معه . وكان رحمه‌الله لايبالى بتقاليد المجتمع يرسل نفسه على سجيتها ويطلق لسانه على طبيعته وكأنما يقول كما قال المتنبي من قبل :

وهان فما ابالى بالرزايا   لانى ما انتفعت بأن أبالى

وغلب عليه روح المزاح والدعابة وكانت تصل دعابته الى درجة التجريح والايلام فى بعض الاحيان وله دعابة مع الفاتح معروفة ذكرها سهى الادرنه‌وى فى تذكرته . ولما توفى الفاتح لقى من ابنه السلطان بايزيد العطف والرعاية فعينه مدرساً فى بعض المدارس ولكثرة فضائله حسده اقرانه ولاطالة لسانه اتهموه بالالحاد والزندقة فاعدم سنة ٩٠٠هـ بفتوى ابن الخطيب المتقدم ذكره . فوقعت جملة « لقد مت شهيداً » تاريخاً لوفاته بحساب الجمل . وله حاشية على شرح المطالع والمفتاح للسيد وشرح جزءاً من البخارى والف رسائل كثيرة فى موضوعات شتى . ومدفون بمقبرة ابى ايوب الانصارى فى استانبول .

(٢) محمود (باشا) من اصل كرواتى [وفى رواية : ابوه رومى وامه من ايليريا] وقع اسيراً فى يد محمد آغا من رجال القصر فى احدى الغزوات فأخذ الى القصر السلطانى لما بدا عليه من مخايل النبوغ والذكاء والحق بدائرة الخزينة السلطانية ثم بخدمة الأمير محمد [السلطان محمد الفاتح] تربى فى القصر تربية عالية فحصل على قسط وافر من العلوم والفنون ولما جلس الفاتح على عرش السلطنة نصبه رئيساً =

(باشا) عالماً أديباً شاعرا وفى مركز يسمح له بالنهوض بهذه المهمة، فأنشأ فى المدن الكبيرة مدارس عالية الى جانب المكاتب الموجودة فى سائر المدن والقرى

وسنقدم فى الفصول الآتية بياناً عن هذه المدارس ومناهج الدراسة فيها (١) وكان محمد الفاتح يختار بنفسه العلماء الذين يتولون التدريس فى هذه

= لعساكر الانكشارية ثم والياً على ايالة الروملى وفى سنة ٨٥٧هـ ولاه الصدارة العظمى [= رياسة الوزراء] خلفاً لخليل باشا فقام بحسن ادارة شئون الدولة مدة خمسة عشر عاما وفى خلال هذه المدة قد اشترك فى كثير من المعارك تارة بمعية السلطان واخرى قائداً عاما . وتمكن من الحاق بلاد الهرسك بالبلاد العثمانية وانتصر على المجر وانقذ « لوفجه » وغيرها من المدن من يد العدو واستولى على جزيرة « مدللى » ثم عزل بسعاية محمد (باشا) الروم سنة ٨٧٢ هـ ونصب على سنجق « غاليبولى » وعهدت اليه فى سنة ٨٧٣هـ مهمة الاستيلاء على « اگريبوز »(*) فنجح فى مهمته . وابلى بلاء حسنا فى الحملة التى جردت على حسن الطويل فكوفىء بان عين صدراً اعظم مرة ثانية ثم عزل لتهم عزيت اليه ونفى - فى رواية - الى « خاص كوى » بالقرب من ادرنه فأقام بها الى ان وافاه الاجل سنة ٨٧٩ هـ وهناك رواية اخرى بانه اعدم .

كان عالما عاقلا سياسيا محنكاً شجاعا مقداما محبا للعلم والعلماء ، وقد ألف باسمه كثير من الكتب العلمية وله مسجد عظيم ومدرسة وحمام فى الحى المعروف باسمه باستانبول . وكذلك له مسجد ومدرسة فى « صوفيه » ومنشآت خيرية كثيرة من مساجد ومكاتب وقناطر فى بعض المدن التى فتحها فى الاناضول والروملى ولما استولى على « اگريبوز » منح رتبة القائد البحرى من الدرجة الثالثة .

(١) المفهوم من كتب التاريخ ومن رحلة ابن بطوطة ان سوق العلم فى الاناضول كانت رائجة جداً سواء فى عهد السلاجقة او فى عهد الامارات التى قامت على اطلالها فكان فى كل قرية مكتب للاطفال كما كان معظم المدن والقرى زاخراً =

(*) اغريبوز

المدارس ويناقشهم فى المواد التى يدرسونها ويسألهم عن المتفوقين من طلبتهم ليكافئهم . جاء فى الشقائق : سأل السلطان محمد الفاتح ذات يوم المولى خسرو قائلا : «من هو أنبغ طلبتك ؟» فأجاب : محى الدين محمد الشهير بمغنيسازاده وأثنى عليه كثيراً . فكرر السؤال قائلا : «ثم من ؟» فأعاد المولى خسرو الجواب قائلا : «مغنيسا زاده أيضاً» ، قال الفاتح : هل مغنيسا زاده اثنان حتى رددت على سؤالى بجواب واحد(١) فقال المولى خسرو : كلا يامولاى مغنيسا زاده واحد ، ولكن واحد عدّ بألف . وبناءً على هذه التذكية عينه مدرساً لمدرسة وزيره محمود باشا ثم لمدرسته نفسه ونصبه بعد ذلك قاضى العسكر .

خلاصة القول : ان السلطان محمدا الفاتح بثقافته الرفيعة وشغفه بالعلم وحبه الشديد للحكمة وفق كل التوفيق لتحويل بلده الى منبع العلم وينبوع الحكمة (٢)

= بالمدارس ودور الحفاظ والمؤسسات العلمية . والطلبة الذين يتمون دراستهم فى هذه المدارس كانوا يقصدون الى مراكز علمية كدمشق والقاهرة للاستزادة من العلم والثقافة . وبعد انشاء محمد الفاتح مدارسه الثمان فى استانبول قلت هذه الرحلات العلمية .

(١) ولا يخفى ما فى هذا السؤال والجواب من اللطف والدقة .

(٢) يقول المؤرخ عالى مؤلف كنه الاخبار مامعناه : «كان السلطان محمد خان فاتح القسطنطينية يحترم العلم والعلماء ويشمل برعايته السامية من يرد عليه منهم من بلاد العرب والعجم فقد أنشأ فى القسطنطينية مدارسه الثمان العالية وبها تحولت بلاد الروم الى منبع العلوم والحكمة واغنت طلاب العلم وعشاق المعرفة عن تجشم مشاق الرحلة الى بلاد بعيدة لاستكمال دراستهم وزيادة ثقافتهم ...» ج ١ ص ٣٧

وبعد ان حكم هذا العاهل الكبير نحو ثلاثين سنة حقق فيها من جسام الاعمال ماتضيق به العصور وفتح عهداً جديداً فى العالم ، انتقل من استانبول الى « اسكدار » فى اليوم السادس والعشرين من صفر سنة ٨٨٦ ﻫ على رأس جيش عظيم بالرغم من مرضه ولما وصل الى « گكبوزه » اشتد به المرض فى المكان المسمى « تكور چايرى » فتوجه الى الله توجهاً كلياً بلسانه وقلبه حتى التحق بالرفيق الاعلى . (١)

لم تعلم الجهة التى قصدها المغفور له بسفره هذا فكان من عادته رحمه الله كتمان حركاته العسكرية . وقد وصف عاشق باشا زاده وفاته فى ابيات مؤثرة جداً يفهم منها انه راح ضحية أخطاء(*) الاطباء الذين قاموا بمداواته . وفى الحقيقة ان الذى يقرأ هذا الوصف المؤثر الذى يصف به عاشق باشا زاده وفاة السلطان محمد الفاتح يخالجه الشك فى كون وفاته طبيعياً . ويؤيد هذا الشك ماذكره صاحب الشقائق النعمانية فى ترجمة الطبيب اللارى والطبيب يعقوب اللذين توليا مداواة السلطان فى اثناء مرضه الأخير ونقل ترجمتهما من الشقائق فيما يأتى :

---

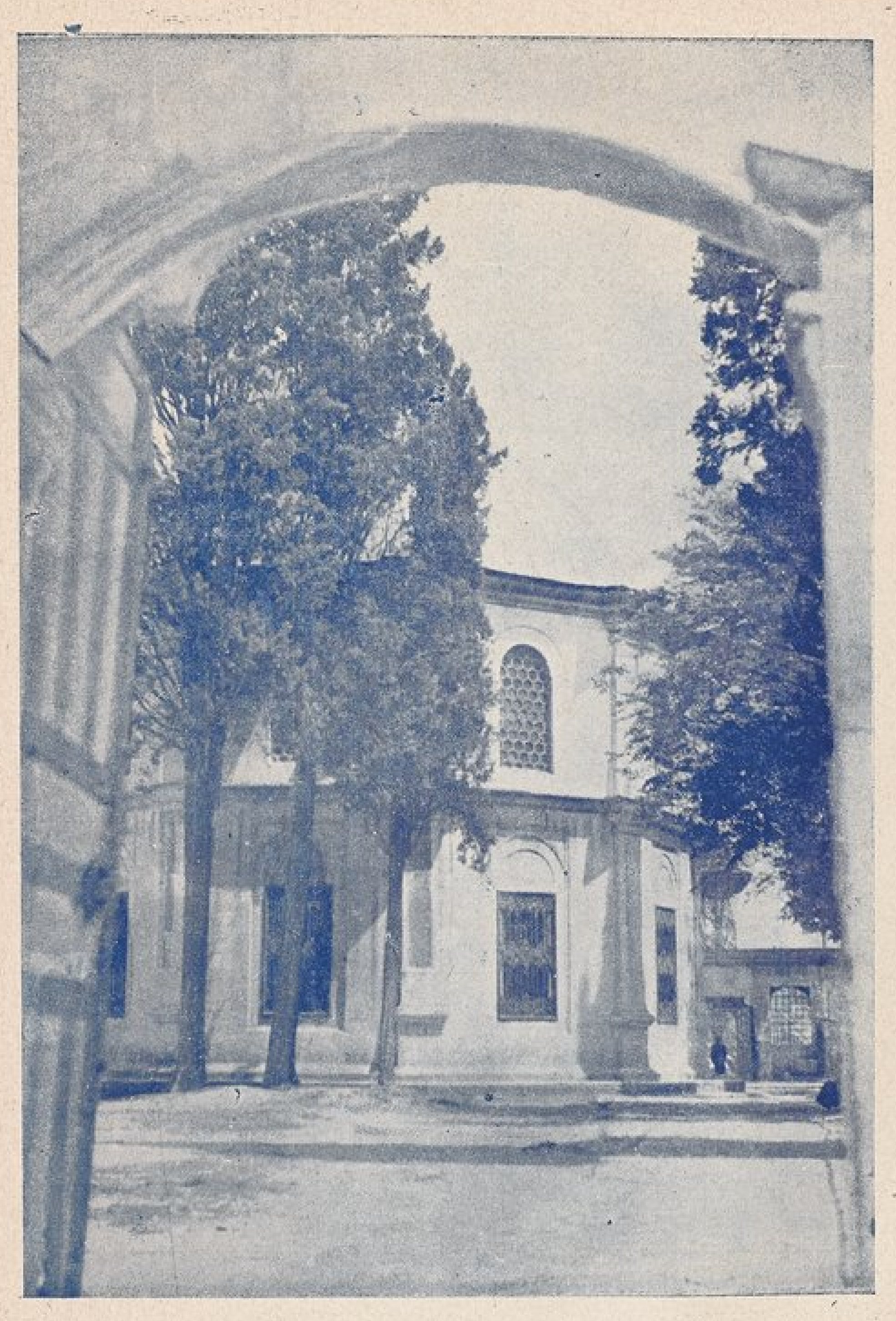
(١) ولما بلغ نعيه مصر كتب المؤرخ المصرى ابن اياس يقول :

« وفى ربيع الأول جاءت الاخبار بوفاة السلطان المعظم المفخم المجاهد الغازى ملك الروم وصاحب القسطنطينية العظمى وهو محمد بن مراد بن محمد . . . وكان ملكا جليلا عظيما ساد على بنى عثمان كلهم وانتشر ذكره بالعدل فى سائر الآفاق وحاز الفضل والعلم والعدل والكرم الزائد وسعة المال وكثرة الجيوش والاستيلاء على الاقاليم الكفرية وفتح الكثير من حصونها وقلاعها وكان نائب مملكة الروم فى حياة ابيه ثم استقل به من بعده ومكث به مدة طويلة تزيد عن احدى وثلاثين سنه ... الخ

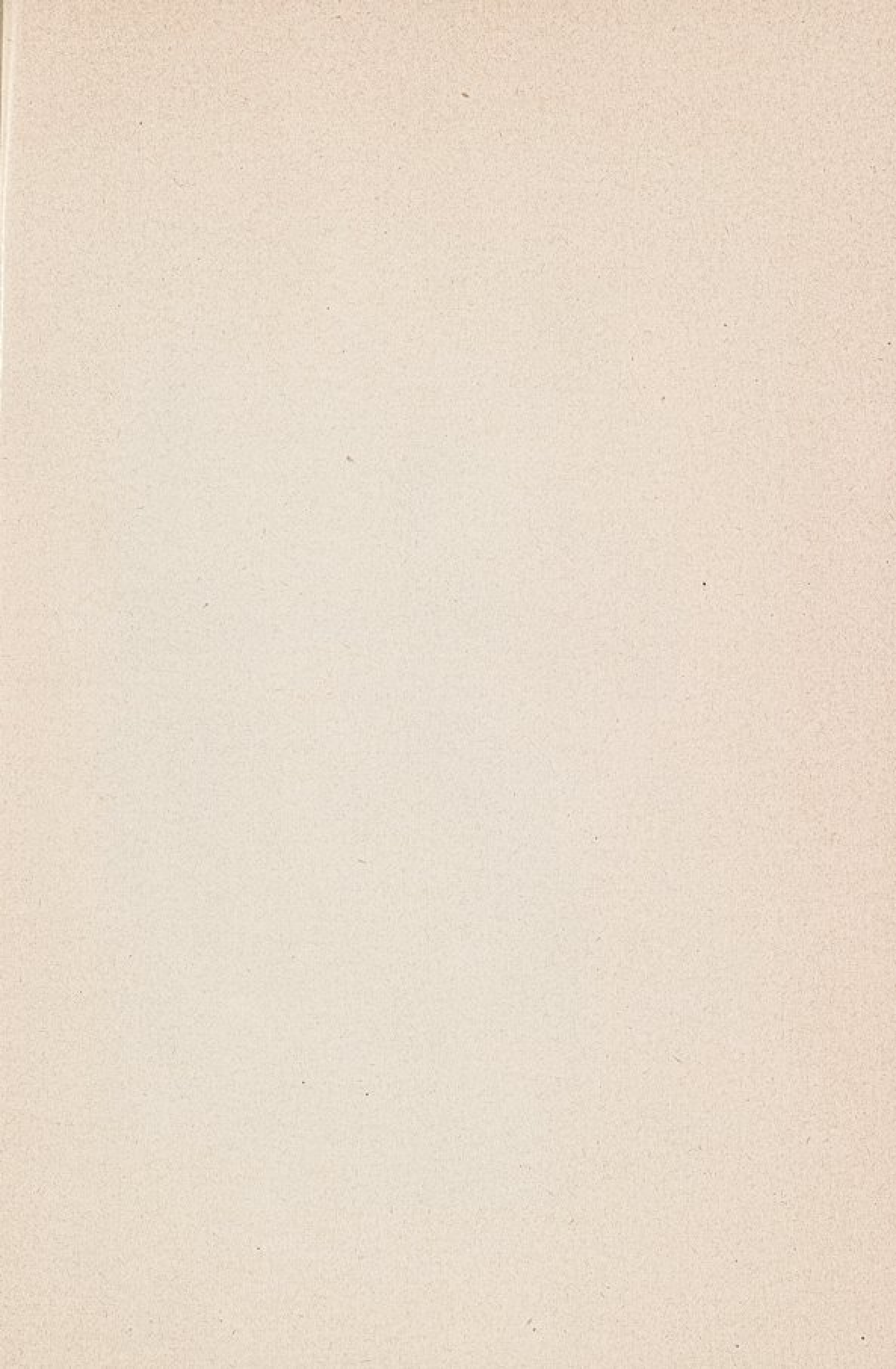
بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج ١١ ص ٢٠٤ — ٢٠٥

(*) الناس يلحون الطبيب وإنما غلط الطبيب إصابة الأقدار

ابن الرومى



منظر جانبي لضريح السلطان محمد الفاتح



المولى حكيم يعقوب

« العالم العامل يعقوب الحكيم كان طبيباً ماهراً فى الطب غاية المهارة وبذلك تقرب عند السلطان محمد خان وكان يهودياً وجعله السلطان محمد خان حافظاً للدفتر بالديوان العالى وهو اليهودى ثم اسلم واستوزره السلطان محمد خان ولما صار محمد باشا القرمانى وزيراً للسلطان محمد خان حسد واتفق فى ذلك الايام ان مرض السلطان محمد خان فعالجه يعقوب وذكر محمد باشا عند السلطان الحكيم اللارى ورغب فى الدخول عليه فلما دخل هو عليه عالج خلاف معالجات يعقوب وغيّرها وضعف السلطان محمد خان فاستدعى الحكيم يعقوب ولما رأى الحكيم يعقوب وعرف انه غير قابل العلاج بعد هذا لم يتكلم بشيء وصوب رأى الحكيم اللارى ولم يلبث السلطان إلا قليلا حتى مات اسكنه الله جناته وادخله محل رضوانه »

الحكيم اللارى

« العالم العامل والفاضل الكامل الحكيم العجمى اللارى ارتحل الى بلاد الروم واتصل بخدمة السلطان محمد خان كان ماهراً فى الطب الا انه اخطأ فى متابعة رأى الوزير محمد باشا ومطاوعته هواه فى معالجة السلطان كما حكيناه آنفاً (أى فى ترجمة الطبيب يعقوب) سمعت هذه القصة عند السيد ابراهيم الآماسى المتوطن بجوار مزار ابى ايوب الانصارى »

وهذه النصوص التاريخية تدل على ان محمداً الفاتح مات فى ظروف غامضة ولست ادرى هل يوفق التاريخ لجلاء هذا الغموض وتبيين موقف الوزير محمد باشا القرمانى من هذا الحادث او يظل سرا مكتوماً فى ضمير الغيب؟ والله اعلم .

الباب الأول

الفصل الأول

التشكيلات الحكومية والعدلية

وضع فى عهد السلطان محمد الفاتح كل ما يتطلبه كيان دولة وبقاؤها من التشكيلات العسكرية والمالية والعلمية والاقتصادية والزراعية وغيرها من المنظمات والمؤسسات ولم يهمل أى تدبير أو مشروع يضمن للدولة سلامتها وامنها داخلاً وخارجاً .

وكانت تشكيلات الدولة العثمانية فى ذاك العهد من الكثرة والاتقان بحيث تفوق جميع الدول المعاصرة لها كما يحدثنا بذلك التاريخ ويشهد به ما احرزته الدولة من النجاح الباهر المنقطع النظير فى كل الميادين خلال زمن يسير لا يزيد على ثلاثين عاماً . والناحية الجديرة بالتنبه لها من هذه التشكيلات أنها على كثرتها وضخامتها امكنت ادارتها بعدد قليل من الموظفين ونفقات يسيرة من المال وبأحسن ما يكون من النظام والانتظام .

وانى لااخوض فى تفاصيل هذه التشكيلات اذ ليس لها كبير صلة بموضوعنا ولذلك اتركها وانتقل الى التشكيلات العدلية والقضائية التى هى موضوع دراستنا .

لاشك أن المؤسسات العدلية والقضائية(١) من الامور التى تعار لها اهمية كبرى فى ادارة الدولة ولذلك كان فى كل ولاية وسنجق ومركز قاض

---

(١) القضاء هو الفصل فى الخصومات الناشبة بين الأفراد بعضهم البعض او بينهم وبين الحكومات . والشخص المنوط به هذا العمل يسمى قاضياً . وقد عرفه بعض الفقهاء بانه قول ملزم يصدر من ولاية عامة . وهو تعريف جيد . والمعنى واحد .

او اكثر حسب ماتدعو اليه الحاجة وكان كلما فتحت بلدة انشئت فيها محكمة فور الفتح وعين لها قاض مع من يعين من سائر الموظفين العسكريين والمدنيين .

واول مؤسسة عدلية فى الدولة العثمانية انشئت فى عهد بانيها الأول السلطان عثمان وظلت تسير فى طريق التقدم والتكامل حتى بلغ مبلغها من الكمال . ومع ان المرجع الاصلى الوحيد للعدالة هو القضاء فكان الى جانبه بعض مراجع اخرى تقوم باحقاق الحق وفى امكاننا ان نلخص المراجع العدلية كما يأتى :

١ — الديوان(١)

---

(١) المقصود هنا من الديوان المكان الذى كان يجتمع فيه السلطان ورجال الدولة كما سنطلع عليه فيما يأتى والرأى مختلف فى اصل هذه الكلمة فعند البعض انها فارسية وعند الآخر فارسية وعربية من قبيل توافق اللغات . قال عاصم مترجم القاموس نقلا عن المؤلف : الديوان مجتمع الصحف والكتاب يكتب فيه اهل الجيش واهل العطية » وعقب عليه قائلا : المفهوم من هذا ان الديوان اسم للمكان ولكن المذكور فى المعاجم الأخرى انه وضع اولا للاوراق المجتمعة لا للمكان واول من سماها ديواناً أنو شيروان الملك الايرانى المعروف بعدله فانه زار يوماً مقر عمل الكتاب فرأى مايبدونه من النشاط والسرعة فى الاعمال الكتابية والحسابية فقال متعجباً : « إين كارديوانست » اى هذا عمل الجن يفوق طاقة البشر فشاع بعد ذلك استعمال الديوان فى الدفاتر والسجلات ثم اطلق على المكان الذى تحفظ فيه الدفاتر ويسمى الآن دار المحفوظات [دفترخانه] ثم توسع فيه فاطلق على المكان الذى يجتمع فيه السلطان ووزراؤه للاستماع للشكاوى واجراء الاحكام كما اطلق على دواوين الشعراء بجامع الجمع واول من احدث نظام الديوان فى الاسلام هو سيدنا عمر رضى الله عنه . فعلى هذه الرواية تكون الكلمة مأخوذة من مادة « ديو » الفارسية بمعنى الجن و« الديوان » جمعها على القاعدة الفارسية فى جمع المفرد ذى الروح بالالف والنون=

٢ — المحاكم الشرعية

٣ — مؤسسات الاحتساب والشرطة [= البوليس]

وكانت الى جانب هذه المراجع مراجع أخرى وهى :

١ — دار الافتاء

٢ — نقابات ارباب الحرف والهيئات العمالية

وسنبين فيما يأتى اختصاص كل من هذه المراجع والسلطة المخولة له ثم نستعرض من بأيديهم هذه الاختصاصات من حيث التنشئة والخلق .

الديوان :

هو فى الدولة العثمانية - كما كان فى معظم الدول الاسلامية - المجلس الذى يعقد برياسة الملك او وزيره الاكبر . وكان يسمى هذا المجلس ديواناً ، والديوان الهمايون(١) وتسمع فيه شكاوى الجمهور ويتصرف فيها .

والديوان مؤسسة تمس الحاجة الى وجودها لادارة شئون الدولة وتمكين السلطة التنفيذية من تحقيق العدالة . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجتمع فى المسجد النبوى بخواص أصحابه وينظر فى شئون الدولة والامة ويفصل فيما يرفع اليه من الدعاوى .

لم يكن الديوان موجوداً فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام الى عهد سيدنا على كرم الله وجهه بشكله المعروف فيما بعد وان كان أساسه قد وضع

= ولكن يرد عليها ان كلمة ديوان استعملت فى الاشعار الجاهلية قبل عهد انوشيروان. لذلك يرى عاصم انها فارسية وعربية من قبيل توافق اللغات . والكلمة مستعملة حتى الآن : الديوان العالى ، ديوان الحرب ، ديوان المحاسبة ، ديوان الموظفين .. الخ ومن ضمن معانى الديو الشيطان ، والضال المضل ، وفاسد الفكر .

(١) همايون نسبة الى كلمة «هما» الفارسية وهى اسم طائر خرافى تزعم الاساطير أن من وقع عليه ظله ناله الخير ويسميه قدماء اليونان : Phénix فنيكس .

فى عهد الفاروق لان المسلمين فى صدر الاسلام ما كان يعتدى احد منهم على الآخر بفضل تمسكهم بتعاليم الاسلام العالية ومبادئه السامية .

ولكن فى خلافة سيدنا على رضى الله عنه مست الحاجة الى النظر فى شكاوى الجمهور ومع ذلك لم يكن نظام النظر فى هذه الفترة أيضاً كالذى كان فيما بعد . ما كان رضى الله عنه قد حدد ميعاداً للنظر فى الشكاوى وأما الخلفاء الذين أتوا بعده فانهم خصصوا يوماً للنظر فى الشكاوى .

وقد استمرت مؤسسة الديوان فى الدولتين الاموية والعباسية وغيرهما من الدول الاسلامية باسمى ديوان المظالم ودار العدل .

كان الخلفاء او مندوبوهم يسمعون شكاوى الجمهور ويتصرفون فيها وقد تكون هذه الشكاوى تتضمن الشكوى من الولاة والعاملين على جباية الزكاة والضرائب ، ومن حاشية الخلفاء والأمراء حتى من القضاة بادعاء انهم أصدروا أحكاماً مخالفة للشريعة وكانت القرارات الصادرة من هذه المؤسسة قطعية لا تنقض .

وقد اقتفى سلاطين آل عثمان اثر من سبقهم من الخلفاء والملوك فرأوا الحاجة ماسة الى انشاء ديوان ليكون مركزاً للادارة .

وفى عهد السلطان محمد الفاتح كان الديوان يجتمع فى القصر السلطانى قبل الظهر كل يوم ماعدا ايام العطلة الرسمية . وكان اعضاؤه الطبيعيون هم الوزير الاعظم ووزراء القبة[1] وقضاة العسكر وقاضى

---

(١) كان عدد الوزراء لا يزيد على أربعة : الوزير الأعظم (= رئيس الوزراء) والوزير الثانى والوزير الثالث والوزير الرابع ، ولم يكن لهم – ماعدا الوزير الأعظم – عمل وقت السلم سوى حضور جلسات الديون . وسموا وزراء القبة لأنهم كانوا يجتمعون ويتداولون فى مبنى تعلوه القبة . ولا يزال هذا المبنى موجوداً فى سراى « طوپقپو » باستانبول . =

استانبول (١) وآغا الإنكشارية (٢) والنشـــانجى (٣) والدفتردار (٤)

= الوزير معناه المعاون فانه يعاون السلطان فى تحمل أعباء الملك وثقل الحكم على أن اشتقاقه من الوزر بكسر فسكون بمعنى الحمل الثقيل كما فى قوله تعالى : «ورفعنا عنك وزرك » أو معناه الملجأ على أن اشتقاقه من الوزر بفتحتين كما فى قوله تعالى : « كلا لا وزر» واصله الجبل يتحصن به ثم استعمل بمعنى الملجأ مطلقاً وسمى الوزير بذلك لان السلطان يعتصم برأيه ويلتجىء اليه فى أمره فهو فعيل بمعنى مفعول على الحذف والايصال بمعنى الملجوء اليه . وقيل أصل الوزير أزير من الأزر بمعنى القوة كما فى قوله تعالى « اشدد به أزرى » فعيل بمعنى مفاعل كجليس وعشير قلبت همزته واواً حملا على موازر التى بمعناها .

(١) وسنقدم معلومات عن قضاة العسكر وسائر القضاة فى الفصول الآتية .

(٢) آغا الانكشارية هو القائد العام لجنود الانكشارية المشاة بجميع صنوفهم ويعادل القائد العام لسلاح المشاة فى عصرنا . وكان من ضمن أعماله الاشراف على شئون الامن فى العاصمة فكان يطوف مع نفر من الجنود فى شوارع استانبول ليلا او نهاراً نحو ثلاث مرات فى الأسبوع ويعاقب فى حدود اختصاصه المخالفين للقانون من ارباب الحرف والسكان . وكان حتما عليه أن يحضر مكان الحريق مع الوزير الأعظم عند حدوث الحريق فى مكان ما بالعاصمة . ومن أراد الاضطلاع على اختصاصاته العسكرية فليرجع الى مفصلات الكتب التاريخية .

(٣) النشانجى هو رئيس قلم التوقيع وكان عمله الاشراف على المراسيم والاوامر الصادرة من الديوان السلطانى ومراقبة شئون منح الاقطاعات حتى تجرى فى حدود القانون . وشئون الاحصاء والتعداد فى البلاد التى تفتح حديثاً وكان رئيس الكتاب والدفتردار تابعين له ثم عظم شأن رؤساء الكتاب والدفترداريين فانتقلت اختصاصات النشانجى إليهما وفى المدة الأخيرة انحصر عمله على الاشراف على شؤن التوقيع فحسب والسبب فى تسميته « نشانجى » أنه كان يقوم بعمل شارة السلطان ورمز الدولة كالطغراء (= الطرة) فان النشان معناه العلامة والرمز .

(٤) الدفتردار هو وزير المالية .

وآغوات البلوك(١)

كانت الشكاوى المرفوعة الى الديوان ترتب حسب تاريخ التقديم ، الاول فالاول وتستوفى التحقيقات التمهيدية ثم يجتمع الاعضاء فى المواعيد المحددة ويجلس كل منهم فى مكانه حسب قواعد التشريفات وينظرون فيما يعرض من الشكاوى والقضايا .

كان السلاطين الى عهد السلطان محمد الفاتح يرأسون الديوان بأنفسهم ففى عهده حدث حادث (٢) أدى الى استيائه فرؤى بعده ان يحضر السلطان الديوان ويستمع للشكاوى والمداولات من وراء حجاب يشبه « القفص » وكان ذلك باقتراح من احمد (باشا) كديك [= الاثرم] الوزير الأعظم فى ذاك الوقت .

---

(١) آغوات البلوك هم قواد الفصائل فى تشكيلات جنود الانكشارية وكان الاقدم منهم فى الخدمة يسمى « بلوكباشى » أى رئيس قواد الفصائل . وسنقدم بيانا أوفى من هذا عندما نتكلم على القانون المنسوب إلى محمد الفاتح فى آخر الكتاب .

وكلمة « انكشارية » محرفة من كلمة « يكيچرى » وهى اسم مركب من لفظين : « يكى » بفتح الياء التحتية وكسر الكاف التى تنطق كالنون ومعناه جديد و « چرى » بفتح الجيم الفارسية المعطشة التى تنطق كما تنطق حرفا التاء والشين معاً وكسر الراء ومعناه جند فمعنى « يكيچرى » الجند الجديد وهم القوة العسكرية الدائمة للدولة العثمانية وأنشئت فى عهد السلطان اورخان ثانى سلاطين آل عثمان . والغيت فى عهد السلطان محمود الثانى .

(٢) سنذكر هذا الحادث فى موضعه .

اذا انعقد الديوان تلا رئيس الكتاب (١) الاوراق المعروضة فيؤشر كاتب الضبط فى الجلسة على كل ورقة بالجهة المختصة فيرسل اليها تلك الاوراق ثم يُدخِل «چاويش باشى» (٢) اوغيره من الچاويشين الموجودين هناك أصحابَ القضايا الكبيرة التى يجب أن تنظر فى الديوان . وبعد اجراء المحاكمة فى القضايا المعروضة وفقاً للاصول اصدر الحكم فيها إما قاضى العسكر وإما قاضى استانبول على حسب نوع القضية التى يرجع الفصل فيها الى اختصاص احد منهما .

واذا فرغ الديوان من عمله يتشرف الوزير الاعظم وحده بالمثول بين يدى السلطان ثم الوزراء مجتمعين . وكذلك قضاة العسكر وقائد جنود الانكشارية يتشرفون بمقابلته فى أيام محددة ويعرضون على مسامعه الشئون المتصلة بأعمالهم ثم يعودون الى مقارّ أعمالهم ليشتغلوا بأعباء مناصبهم .

---

(١) رئيس الكتاب هو الكاتب الاول للديوان ثم عهد الى من يتولون هذا العمل مهمة محادثة السفراء . وفى الفترة الأخيرة من عهد السلطان محمود الثانى حولت وظيفتهم الى وزارة الخارجية وسمى رئيس الكتاب وزير الخارجية .

(٢) «چاويش باشى» احد كبار الموظفين الثلاثة الذين كانوا يعملون تحت أمر الوزير الاعظم وكان يعاونه فى اجتماعات الديوان وينفذ قراراته والقرارات الصادرة من المحاكم وكان فى معيته من الموظفين من يزيد عددهم على ثمانمائة موظف يندب منهم من يعملون فى المحاكم . ووظيفة الچاويش قديمة فى الدولة واول من تولاها «صمصمه» چاويش من زملاء الغازى عثمان الاول واحد الابطال الذين قامت الدولة العثمانية على اكتافهم . ولچاويش باشى اختصاصات اخرى لا تتصل بالعدالة فلاحاجة بنا الى ذكرها فى هذا المقام . وتعادل وظيفة چاويش باشى وظيفة مشير الديوان السلطانى [المابين الهمايونى] .

كان الديوان لا ينظر الا فى القضايا الهامة فكان رئيس الكتاب يفرزها ويعرضها ، واما القضايا غير الهامة فكان يحولها الى المحاكم المختصة .

الدولة التى تدار شئونها على أساس المركزية لابد فيها من مجلس مركزى يعالج مهام الامور ومن الطبيعى ان يضم هذا المجلس اعضاء من ذوى الكفاءة والخبرة ممن يشغلون مناصب كبيرة فى الدولة لان الادارة فى الاسلام قائمة على أساس الشورى. بيد أن هنا نقطتين تلفتان إليهما النظر من الوجهة العدلية .

اولا — اهتمام الديوان بشؤن الشعب لهذه الدرجة
ثانياً — صدور الحكم من قبل قضاة العسكر او قاضى استانبول .

فهاتان النقطتان تدلان على مبلغ العناية التى تعار لتحقيق العدالة واحقاق الحق وما يتمتع به القضاة من الاستقلال والحرية . ومن المحقق ان القضاة كانوا يستشيرون اعضاء الديوان قبل اصدارهم الاحكام فان الشريعة الاسلامية تجيز للقضاة أن يستشيروا أو يستفتوا اهل العلم وذوى الكفاءة فى القضايا المعروضة عليهم عند ما يرون الحاجة الى ذلك فاذا وافق رأى المستشار او فتوى المفتى رأى القاضى حكم به والا اصدر حكمه برأيه .

كان مبدأ استقلال القضاء مرعياً فى الدول الاسلامية كلها وفقاً للتعاليم الاسلاميه . وعلى هذا كانت آراء أعضاء الديوان الآخرين استشارية محضة فاذا وافقت رأى القاضى فبها ونعمت والا حكم برأيه .

ولا يرد هنا احتمال ان يكون قضاة العسكر او قضاة استانبول فى ذاك الوقت تحت تأثير رئيس الديوان او بقية الاعضاء .

وكذلك كانت الحالة فى الدعاوى التى تنظر امام المجالس المسماة « محاكمات ومرافعات الحضور » (١) اى المحاكمات التى كانت تجرى فى حضرة الوزير

---

(١) المراد من كلمة « الحضور » معنى الحضرة فى الفصحى لا معنى الشهود ضد الغيبة .

الاعظم . أو فى حضرة شيخ الاسلام أخيراً . اعنى ان القضية المنظورة أمام المجالس المذكورة يصدر الحكم فيها القاضى المختص بالقضية وإنما يحضر الاعضاء الآخرون بوصفهم مستشارين . (١)

يؤخذ من بعض المراسيم السلطانية [الفرمانات] والوثائق الاخرى انه اذا حدثت منازعات فى بعض القضايا مثل قضايا المرعى والماء والحدود وطلب المتنازعون تدخل الحكومة فيها للفصل ، فمنعاً لحدوث اى حادث يؤدى الى عواقب مؤسفة ... يوفد من قبل السلطان مباشرة او باشارة الديوان رجال موثوق بكفاءتهم وخلقهم يجرون التحقيق فى مكان النزاع لاظهار المحق من المبطل ، وعلى ضوء نتيجة تحقيقهم يصدر الفرمان وينفذ مقتضاه .

هذا ، والارادة السلطانية الصادرة فى المسائل التى يرجع الفصل فيها الى اختصاص المحاكم كانت تعد من قبيل اجراءات ادارية ولم تكن تمنع المتقاضين من الرجوع الى المحكمة اذا شاءوا .

وكذلك يفهم من الوثائق المشار اليها ان هذه الاجراءات كانت تتم خلال مدة قليلة نحو ثمانية اشهر او عشرة ، فنرى من هذا كله ان رجال الدولة فى تلك العهود وعلى رأسهم السلطان عنوا بشئون العدالة عناية مباشرة وصرفوا قصاراهم منعاً لحدوث اى ظلم فى البلد وتمكنه فيه .

ومع ذلك لا ننس ان المرجع الاصلى للعدالة هو القضاء والمحكمة فلنجتزء بهذا القدر من الكلام على نصيب الديوان فى تحقيق العدالة ولننتقل الى القضاء .

---

(١) بعد ان تحول الديوان الى مجلس الوزراء كان بعض دعاوى هامة ينظر فى حضرة الوزير الاعظم اعنى بمحضر منه باشتراك بعض رجالات الدولة وكان يسمى هذا « مرافعة الحضور العالى » واستمر هذا النظام إلى عصر التنظيمات الخيرية أى إلى أوائل عهد السلطان عبد المجيد وبعده نظرت امثال هذه القضايا فى حضرة شيخ الاسلام وسمى « مرافعة الحضور » وفى المدة الأخيرة الغى الغاء تاماً .

الفصل الثانى

القضاء وتوابعه فى الاسلام

قبل الخوض فى شرح ماهية المحاكم سواء فى عهد الفاتح او فى عهود من سبقه من السلاطين وبيان الاسس التى قامت عليها نرى من المفيد ان نقدم عن القضاء البيان الآتى حتى نفهم حالة المحاكم المشار اليها فهماً تاماً واضحاً .

القضاء قديم قدم الانسان فقد اضطر الانسان من اول عهده بالحياة ان يعيش فى حالة الاجتماع وان يحدث شتى المناسبات مع بنى نوعه ومن ثم احتاج الى الرجوع الى شخص محايد ليفصل فى المنازعات التى تنشب بينه وبين اخيه الانسان .

«والقضاء بالحق من أقوى الواجبات والفرائض بعد الايمان بالله تعالى وهو من أشرف العبادات لاجله أثبت الله تعالى لآدم عليه السلام اسم الخلافة فقال جل جلاله فى محكم كتابه : انى جاعل فى الارض خليفة . واثبت ذلك لداود عليه السلام ، فقال عز وجل : يا داود انا جعلناك خليفة فى الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى » وبه أمر كل نبى مرسل حتى خاتم الانبياء عليهم الصلاة والسلام ، قال الله تعالى : إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون . وقال الله تعالى : خطاباً لنبينا عليه أفضل الصلاة والسلام : وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم »

«وهذا لان فى القضاء بالحق اظهار العدل وبالعدل قامت السموات والارض

ورفع الظلم وهو ما يدعو اليه عقل كل عاقل . وانصاف المظلوم من الظالم واتصال الحق الى المستحق وأمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر ولاجله بعث الانبياء والرسل صلوات الله عليهم . وبه اشتغل الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم » المبسوط ج ١٦ ص ٥٩

القبائل التى تعيش فى حالة البداوة كان رؤساؤها او المتقدمون منها هم يقومون بالقضاء وفى صدر الاسلام كان الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام يباشر القضاء بنفسه ولما اتسعت رقعة البلاد الاسلامية بعث قضاة الى الجهات حسبما تدعو اليه الحاجة . فكان معاذ بن جبل وعلى بن ابى طالب وعتاب بن أسيد رضى الله عنهم من قضاته عليه الصلاة والسلام . وكان رسول الله يفصل فى الدعاوى التى تحدث بالمدينة وما جاورها من البلاد .

ولما كان القضاء يعتمد على الكفاءة العلمية ودقة الفهم كان رسول الله يختبر كفاءة من يقلده القضاء من اصحابه كما فعل ذلك مع معاذ لما بعثه الى اليمن .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مخاطباً معاذ بن جبل رضى الله عنه : « كيف تصنع ان عرض لك قضاء ؟ » قال معاذ : « اقضى بما فى كتاب الله » قال : « فان لم يكن فى كتاب الله » قال : « فبسنة رسول الله » قال : « فان لم يكن فى سنة رسول الله » قال : « أجتهد رأيى لا آلو » قال : « فضرب رسول الله صدرى ثم قال الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله »(١)

---

(١) أخرج أبو داود والترمذى عن الحارث بن عمر وعن اناس من أهل حمص من أصحاب معاذ عن معاذ ان رسول الله لما بعثه الى اليمن قال : كيف تصنع .. الخ عند أبى داود فى القضاء باب اجتهاد الرأى فى القضاء ج ٢ ص ١٤٩ وعند الترمذى فى الأحكام باب ما جاء فى القاضى كيف يقضى ج ١ ص ١٧١

وفى عهد الرسول عليه السلام وخليفته سيدنا ابى بكر رضى الله عنه كانت شئون القضاء والادارة تعهد الى شخص واحد يكون اميراً وقاضياً معاً واستمر هذا النظام الى اول عهد سيدنا عمر رضى الله عنه ثم فصل القضاء عن الادارة وأرسل الى الجهات قضاة أكفاء مستقلون .

كان المعول عليه فى اسناد القضاء الى شخص هو الكفاءة العلمية والخلق القويم ولا يقام بعدهما وزن للسن والمركز الاجتماعى كان عتّاب بن أسيد حوالى العشرين من عمره حين استعمله رسول الله قاضياً وأميراً على مكة . وولى سيدنا عمر قضاء الشام شاباً فى سن الثالثة عشرة .

وكان القضاة لايعزلون فى صدر الإسلام . تولى القاضى شريح(١) القضاء ستين عاما فى خلافة كل من عمر وعثمان وعلى وجزء من عهد الأمويين قام بأعباء منصبه الخطير فى أوقات مليئة بالفتن والاحداث ومع ذلك لم يعزل وإنما استقال من عمله قبل وفاته بسنة فى أثناء نكبة الحجاج

القضاء ولاية عامة لذلك كان القضاة ينصبون من قبل الخلفاء ومع ذلك أذن لبعض الولاة نصب القضاة من قبلهم نذكر على سبيل المثال ولاة مصر فكان تولية القضاء من ضمن السلطات المخولة لهم .

عرض سيدنا عمر رضى الله عنه قضاء مصر على كعب بن يسار فاعتذر عن عدم قبوله قائلا : «اشتغلت بالقضاء فى الجاهلية فلاأعود إليه مرة أخرى» فنصب عمرو بن العاص والى مصر عثمان بن قيس قاضياً(٢) .

---

(١) هو شريح بن الحارث الكندى معمر مخضرم ولى قضاء الكوفة فى عهد عمر واستمر على القضاء نحو ستين سنة إلى أيام الحجاج حتى توفى سنة ٨٠ هـ عن مائة وعشرين عاماً . وقال فيه على بن ابى طالب كرم الله وجهه قم يا شريح فأنت أقضى العرب .

(٢) وفى عهد العباسيين كان الخلفاء هم الذين ينصبون قضاة مصر لتقوية سلطانهم وبسط نفوذهم .

وقد استمر نظام نصب القضاة من قبل الخليفة او الوالى الى ان أنشىء منصب قاضى القضاة وبعد انشائه أصبح نصب وعزل القضاة من اختصاصه. واول من تولى هذا المنصب السامى الامام ابو يوسف من كبار مجتهدى عصره(١) وكان فى سنة ١٧٠ ﻫ فى عهد هارون الرشيد من العباسيين.

كان هذا المنصب موجوداً فى الدول الاسلامية الاخرى ايضاً كالدولة الفاطمية والدولة الايوبية وغيرهما ونصب ملوك هذه الدول قاضى القضاة، فوضو اليه نصب القضاة فى المدن والبلاد.

ومركز قاضى القضاة كان اسمى مركز فى الدولة بعد الخلفاء والملوك

---

(١) هو الامام ابو يوسف القاضى يعقوب بن ابراهيم بن حبيب الأنصارى نسباً والكوفى منشأ وتعلماً ولد بالكوفة سنة ١١٣ ﻫ على المشهور «ونشأ فقيراً تضطره الحاجة لان يعمل ليأكل وتدفعه الرغبة فى العلم لان يستمع إلى العلماء حتى إذا لمح ابوحنيفة فيه ذلك أمده بالمال فانصرف لطلب العلم ذكرانه كان يحضر المحدث فيحفظ خمسين أو ستين حديثاً ثم يقوم فيمليها على الناس» من كتاب «أبوحنيفة» للاستاذ الجليل محمد ابو زهرة.

كتب العلم عن طائفة من التابعين فسمع الحديث من هشام بن عروة ويحى بن سعيد والاعمش وغيرهم من طبقتهم وتفقه بأبى حنيفة وهو اجل اصحابه والمقدم منهم واول من وضع الكتب على مذهب ابى حنيفة وأملى المسائل ونشرها وبث علم أبى حنيفة فى اقطار الارض وله الامالى والنوادر وكتاب الخراج والآثار وادب القاضى. وتفقه عليه عدد كثير من العلماء وروى عنه بشر بن الوليد وابن سماعة ويحى بن معين واحمد بن حنبل وغيرهم من ائمة الحديث. وأجل أصحابه محمد بن الحسن. ولى قضاء بغداد فى بعض أيام المهدى ثم الهادى ثم هارون الرشيد. وكان الرشيد يكرمه ويجله وكان عنده حظياً مكيناً وهو أول من دعى قاضى القضاة واول من اتخذ زياخاصا بالعلماء وكان الناس اولا لايتميز احد من احد فى الزى وقد توفى ببغداد ظهر يوم الخميس لخمس خلون من ربيع الاول سنة ١٨٢ ﻫ وحضر الرشيد جنازته.

وكان يختار لهذا المنصب من يتمتع باحترام الناس وتقديرهم من كبار العلماء والفقهاء .

وكان لقاضى القضاة المنصوب من قبل الخليفة ان ينصب نواباً عنه حسب ماتدعو اليه الحاجة اذافوض اليه ذلك ، فكانت سلطة هؤلاء النواب محدودة ومقصورة على منطقة عملهم لا تعدوها الى غيرها واما سلطة قاضى القضاة فكانت عامة شاملة جميع الجهات .

هذا ، وكان فى الدولة الاموية بالاندلس قاض يسمى «قاضى الجماعة» وقد انشىء منصب قاضى الجماعة سنة ١٣٧ ه فى عهد عبد الرحمن الاول .

القضاة يحكمون باسم المجتمع وبالنيابة عنه كائناً من كان من يوليهم القضاء ولذلك لاينعزلون اذا مات المولى او خلع . ويشرح هذه المسألة ابو بكر الكاسانى فى بدائع الصنائع كالآتى :

« فصل ، وأمابيان مايخرج به القاضى عن القضاء فنقول وبالله التوفيق : كل مايخرج به الوكيل عن الوكالة يخرج به القاضى عن القضاء . . لايختلفان الافى شيء واحد وهو ان الموكِّل اذامات اوخلع ينعزل الوكيل ، والخليفة اذا مات او خلع لا تنعزل قضاته وولاته ووجه الفرق ان الوكيل يعمل بولاية الموكِّل وفى خالص حقه ايضاً وقدبطلت اهلية الولاية فيعزل الوكيل والقاضى لا يعمل بولاية الخليفة وفى حقه بل بولاية المسلمين [= المجتمع] وفى حقوقهم وانما الخليفة بمنزلة الرسول عنهم . . . واذا كان رسولا كان فعله بمنزلة فعل عامة المسلمين وولايتهم بعد موت الخليفة باقية فيبقى القاضى على ولايته . وهذا بخلاف العزل فان الخليفة اذا عزل القاضى او الوالى ينعزل بعزله ولا ينعزل بموته لانه لاينعزل بعزل الخليفة ايضاً حقيقة بل بعزل العامة لما ذكرنا ان توليته بتولية العامة [= المجتمع] والعامة

ولوه الاستبدال دلالة(١) لتعلق مصلحتهم بذلك فكانت ولاية منهم معنى فى العزل ايضاً فهو الفرق بين العزل والموت .

ولو استخلف القاضى باذن الامام ثم مات القاضى لا ينعزل نائبه لانه نائب الامام فى الحقيقة لا نائب القاضى فلا ينعزل بموت الامام ايضا كما لاينعزل القاضى لما قلنا فلايملك القاضى عزل نائبه لانه نائب الامام فلاينعزل بعزله . . . الا اذا اذن له الامام ان يستبدل من شاء فيملك عزله ويكون ذلك ايضاً عزلا من الامام لا من القاضى . . . وعلم المعزول بالعزل شرط صحة العزل » بدائع الصنائع ج ٧ ص ١٦

يرى بعض المؤرخين ان فكرة انشاء منصب قاضى القضاة فى الدولة العباسية مستوحاة من نظام «موبَدِ موبَدان»(٢) الايرانى ولكن هذا الرأى لايعدو ان يكون مجرد تخمين . واذا كان لابد من ارجاع هذه الفكرة الى اصل سابق مستمد منه فالاكثر احتمالا ان يكون نظام « قاضى الجماعة » الذى كان فى الاندلس هو اصل الفكرة .

والواقع فى رأينا ان رقعة البلاد الاسلامية اتسعت جدا فى عهد العباسيين فاستدعت الحالة ان يوجد قاض فى كل بلدة وان يراقب هؤلاء القضاة مراقبة ادارية فنتجت من هذه الضرورة فكرة منصب قاضى القضاة. بل نقول : انشىء هذا المنصب على أساس فصل القضاء من السياسة واستقلاله

---

(١) الدال بالدلالة عند الحنفية : دلالة اللفظ على لازم معناه بواسطة علة الحكم المفهومة لغة . وهو المسمى عند الشافعية مفهوم الموافقة وفحوى الخطاب . كدلالة قوله تعالى « ولا تقل لهما أف » على تحريم الضرب .

(٢) موبد بضم الميم وسكون الواو وفتح الباء الموحدة ومعناه فى مذهب زردشت الايرانى الرئيس الروحانى وجمعه موبدان على القاعدة الفارسية فى جمع المفرد ذى الروح بالألف والنون . اى الرؤساء الروحانيون « وموبد موبدان » باضافه المفرد إلى الجمع معناه رئيسهم الاعلى . وكانت السلطة القضائية بيدهم .

عنها استقلالاً تاماً ليس لها اى سلطان عليه . وهذه نقطة جديرة بالوقوف عندها فى الوقت الحاضر أيضاً .

يشترط فيمن يقلد(١) القضاء شروط يجب توافرها فيه منها البلوغ(٢) والعقل والحرية فلايجوز تقليد الصبي والمجنون والمعتوه والعبد . لان القضاء يبتنى على الولاية وهؤلاء ليس لهم ادنى الولاية وهو الولاية على النفس فكيف يكون لهم أعلاها وهو الولاية على الغير .

واما كبر السن او حداثتها فلا مقام له فى باب القضاء كما اشير اليه فيما سبق يكفى ان يكون القاضى عالما وكفوءا للقضاء ويستوى بعد ذلك ان يكون حديث السن او كبيرها وليس معنى هذا ان تقليد القضاء لمن هو حديث السن حتم ضرورى فان تقدير ذلك يرجع الى من بيده التقليد .

كان عتّاب بن أسيد(٣) الذى استعمله النبى عليه الصلاة والسلام على مكة قاضيا واميرا فى الثامنة عشرة او الاحدى والعشرين اوالثانية والعشرين

---

(١) تقليد القضاء فى اصطلاح الفقه : تولية القضاء . مأخوذ من القلادة وفيه إشارة إلى أن القاضى يطوق عنقه بهذا العمل الخطير كما يطوق عنق المرأة بالقلادة فيجب عليه ان يتعهدبه ويحسن القيام عليه كما تتعهد الحسناء بقلادتها .

(٢) البلوغ هو انتهاء سن الصبا ومبدأ اكتمال العقل

(٣) عتاب بن أسيد اسلم يوم الفتح واستعمله النبى صلى الله عليه وسلم على مكة وأقره أبو بكر الى ان مات يوم مات (أى أبو بكر رضى الله عنه) هذا فى رواية ولكن الطبرانى ذكره ضمن عمال عمر فى سنى خلافته كلها إلى سنة اثنتين وعشرين ثم ذكر ان عامل عمر على مكة سنة ثلاث وعشرين كان نافع بن عبد الحارث فهذا يشعر بان عتابا مات فى آخر خلافة عمر رضى الله عنهما . وكان شديداً على المريب ليناً على المؤمنين وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى (واجعل لى من لدنك سلطاناً نصيراً) قال هو عتاب بن أسيد .

على اختلاف فى سنه . وكذلك يحيى بن اكثم قاضى المأمون على البصرة كانت سنه حوالى العشرين(١) .

ومنها البصر والنطق والسمع والسلامة من الحد فى القذف(٢) فلا يجوز تقليد الاعمى والاخرس والاصم الذى لا يسمع الصوت العالى . والحكمة فى ذلك ظاهرة غنية عن البيان فان هذه العاهات الجسمية تنافى التمييز الذى يتطلبه القضاء .

وأما المحدود فى القذف فقد نهى عن قبول شهادته عقوبة له ، قال الله تعالى: « والذين يرمون المحصنات ثم لا يأتون بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً واولئك هم الفاسقون الا الذين تابوا . . الآية (٣)

---

(١) ولد فى مرو وكان عالماً فقيهاً بصيرا بالأحكام وروى عنه البخارى فى غير الجامع والترمذى . ولاه المأمون قضاء البصرة بعد اسماعيل بن حماد بن أبى حنيفة وسنه حوالى عشرين سنة فقال أهل البصرة : كم سن القاضى ؟ فعلم انه استصغر فقال أنا اكبر من عتاب بن أسيد الذى وجهه النبى صلى الله عليه وسلم إلى مكة قاضياً ومن معاذ بن جبل الذى وجهه عليه الصلاة والسلام قاضياً على اليمن . ثم عينه المأمون قاضى القضاة وبعد ذلك استوزره وعزل من منصبه فى عهد المعتصم واعيد اليه فى عهد المتوكل . وقد تقلب فى الاقبال والأدبار فله ترجمة واسعة فى تهذيب التهذيب وتقريب التهذيب والكاشف والمرآة وغيرها . وله حكايات تدل على قوة علمه وجودة فهمه مذكورة فى الكتب الآنفة الذكر مات سنة ٢٤٣هـ رحمه الله .

(٢) القذف اتهام رجل محصن عفيف او امرأة محصنة عفيفة بالزنى وعقوبة هذه الجريمة جلد القاذف ثمانين جلدة ويقال فى اصطلاح الفقه للشخص المعاقب بسبب هذه الجريمة : المحدود فى القذف .

(٣) وقع اختلاف فى حكم الاستثناء المذكور عقب الجمل المتعاطفة كما فى هذه الآية الكريمة فان الاستثناء وقع بعد ثلاث جمل متعاطفة ، الجملة الاولى آمرة بجلدهم [اى الذين يرمون المحصنات بالزنى] والثانية ناهية عن قبول شهادتهم والثالثة مخبرة بفسقهم . وفى حكم ذلك مذاهب : الاول مذهب الحنفية ان الاستثناء يعود الى الجملة الأخيرة خاصة الابدليل فيما قبلها . ومن ادلتهم على ذلك أن الاستثناء =

فبموجب هذه الآية الكريمة ليس المحدود فى القذف اهلا للشهادة واهلية القضاء تدور مع اهلية الشهادة وجوداً وعدماً فمن صلح شاهداً صلح قاضياً ومن لافلا ، لان كلا من الشهادة والقضاء من باب الولاية على الغير والزامه فالشاهد بشهادته يلزم الحاكم ان يحكم والحاكم بحكمه يلزم الخصم .

واما الذكورة فليست عند الحنفية من شروط جواز التقليد فى الجملة لأن

= خلاف الاصل لكونه انكاراً بعد الاقرار لكن خولف مقتضى الاصل فى الجملة الأخيرة للضرورة وذلك لانه لا يمكن الغاء الاستثناء وتعلقه بالجملة الواحدة كاف فى تصحيح الكلام والجملة الأخيرة لاشك أنها اقرب فخصص [اى الاستثناء] بها فبقى ما عداها على الاصل . والثانى مذهب الشافعية ان الاستثناء يعود إلى الجميع اذا لم يدل الدليل على إخراج البعض .

وفائدة هذا الاختلاف تظهر فى قبول شهادة القاذف بعد التوبة بأن أكذب نفسه فى قذفه عند من قذفه بالزنى وأصلح عمله فعند الحنفية لا تقبل لان الاستثناء لا يعود الى جملة « ولا تقبلوا لهم شهادة ابداً » وانما يعود إلى الجملة الأخيرة وهى « واولئك هم الفاسقون » فينتفى عنه الفسق لا غير وتبقى « ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً » على حكمها . وعند الشافعية تقبل لان الاستثناء يعود الى الجملة الثانية ايضاً فينتفى عنه الفسق وتقبل شهادته . واما الجملة الاولى الآمرة بالجلد فوافق الطرفان على أن الاستثناء لا يعود اليها لكونه حق آدمى فلا يسقط بالتوبة. وهناك مذاهب أخرى تفصيلها فى اصول الفقه . هذا ، وقال ابن القيم فى اعلام الموقعين : ان رد شهادة القاذف من تمام حده وتكملة له اى انه جعل عقوبة لهذا الذنب فلا يسقط بالتوبة كما لا يسقط الحد بالتوبة ولان القذف متضمن الجناية على حق الله وحق الآدمى وهو من أوفى الجرائم فناسب تغليظ الزجر . ورد الشهادة من اقوى اسباب الزجر لما فيه من إيلام القلب والنكاية فى النفس اذ هو عزل لولاية اللسان الذى استطال به على عرض أخيه وابطال لها ثم هو عقوبة فى محل الجناية فان الجناية حصلت بلسانه فكان أولى بالعقوبة فيه وقد رأينا الشارع قد اعتبر هذا حيث قطع يد السارق فانه حد مشروع فى محل الجناية . . . الخ

المرأة من أهل الشهادات فى الجملة اى تقبل شهادتها فى غير الحد والقود فيجوز قضاؤها فيه لان القضاء يستق من الشهادة فأهلها أهله كما سلف بيانه ولكن موليها يأثم لما رواه البخارى من ان النبى عليه الصلاة والسلام قال : «لن يفلح قوم ولوا امرهم امرأة»(١) وهذا الحديث حجة من منع قضاء المرأة على الاطلاق وهم جمهور الائمة : مالك والشافعى واحمد بن حنبل رحمهم الله تعالى لان توليتها تؤدى الى عدم الفلاح وكل ما يؤدى إلى عدم الفلاح يجب اجتنابه .

وروى عن محمد بن جرير الطبرى جواز قضائها على الاطلاق فى كل شىء(٢) ومن رأى حكمها نافذاً فى كل شىء قال ان الاصل هو ان كل من يتأتى منه الفصل بين الناس فحكمه جائز الا ما خصصه الاجماع من الامامة الكبرى كما قال ابن رشد فى بداية المجتهد ونهاية المقتصد .

---

(١) اخرجه البخارى فى كتاب الفتن : حدثنا عثمان بن الهيثم حدثنا عوف عن الحسن عن أبى بكرة قال : لقد نفعنى الله بكلمة أيام الجمل لما بلغ النبى صلى الله عليه وسلم ان فارسا ملكوا ابنة كسرى قال : لن يفلح قوم ولوا امرهم امرأة » وأخرجه ايضا فى كتاب المغازى : باب كتاب النبى إلى كسرى وقيصر . بالسند نفسه وبزيادة فى المتن : « . . . عن أبى بكرة قال لقد نفعنى الله بكلمة سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ايام الجمل (*) بعد ما كدت ان ألحق باصحاب الجمل فاقاتل معهم قال لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ان اهل فارس قد ملكوا عليهم بنت كسرى قال : «لن يفلح قوم ولوا امرهم امرأة »

وكسرى هذا هو شيرويه بن ابرويز بن هرمز . وقال الكرمانى هو ابن قباذ بضم القاف وتخفيف الباء الموحدة . واسم ابنته «بوران» بضم الباء الموحدة وبالراء والنون وكانت مدة ملكها سنة وستة أشهر .

(٢) والرواية عن محمد بن جرير الطبرى مختلفة نوردها فيما يأتى :

أولا — جواز قضائها على الاطلاق كما صرح بذلك فى بداية المجتهد ونيل

(*) متعلق بنفعنى لا بسمعت ،

وعندى أننا حينما نتناول هذه المسألة بالبحث ينبغى أن ننظر اليها من ناحيتين : ناحية الفقه وناحية مصلحة المجتمع ، فمن المحتمل جداً ان المنع الذى يتضمنه الحديث الشريف لوحظت فيه مصلحة المجتمع ، واما الرأى الفقهى فكما بينته آنفاً .

هذا ، والاهلية للشىء لا تحتم توليته وذلك لاعتبارات تمت بالصالح العام كما هو المرعى فى عصرنا الحاضر ايضاً فكم من وظائف كالقضاء والنيابة يكون الشخص اهلا لها بحسب حقوقه المدنية ولا يتولاها اذا لم تتوافر فيه الشروط المقررة لها من حيث السن وغيرها فالمصلحة العامة هى نصب عين

= الاوطار وسبل السلام وكما يؤخذ من ابن حجر العسقلانى فى شرح حديث المغازى حيث قال : «.... والمنع من ان تلى الامارة والقضاء قول الجمهور ، وأجازه الطبرى وهى رواية عن مالك . وعن ابى حنيفة تلى الحكم فيما تجوز فيه شهادة النساء »

فتح البارى الخيرية ج ٨ ص ٩٠

فانه ذكر قول الطبرى فى مقابل المنع المطلق والجواز المقيد فيكون قولا بالجواز المطلق .

ثانياً — جواز قضائها فيما تقبل شهادتها فيه والاطلاق مذهب بعض المالكية. كما صرح بذلك ابن حجر العسقلانى نقلا عن ابن التين فى شرح حديث كتاب الفتن : « ... قال ابن التين احتج بحديث ابى بكرة من قال لا يجوز ان تولى المرأة القضاء وهو قول الجمهور وخالف ابن جرير الطبرى فقال يجوز ان تقضى فيما تقبل شهادتها فيه واطلق بعض المالكية الجواز » فتح البارى الخيرية ج ١٣ ص٤٣ — ٤٤

وقال البدر العينى فى شرح حديث كتاب الفتن : واحتج به من منع قضاء المرأة وهوقول الجمهور وخالف الطبرى فقال يجوز ان تقضى فيما تقبل شهادتها فيه واطلق بعض المالكية الجواز . عمدة القارى الدمشقى ج ٢٤ ص ٢٠٤

وممن صرح بأجازة المالكية قضاء المرأة ابن حزم فى المحلى : كتاب القضاء

ثالثاً — لم يصح عن الطبرى القول بجواز قضائها على الاطلاق . واليك ما يدل =

الشارع دائماً . والا فقد اعترف الاسلام للمرأة بحقوقها المدنية والانسانية واذا كانت هناك بعض فروق بين الرجل والمرأة فى الاحكام فما ذاك الا مراعاة لمصلحة عامة او حرصاً على مصلحة المرأة نفسها من صحة وعفاف وما الى ذلك من الاعتبارات .

ثم إن اول الحديث وان كان المتبادر منه الى الذهن أنه وارد فى الإمارة

= على ذلك : قال القاضى ابو بكر بن العربى فى تفسير قوله تعالى : « انى وجدت امرأة تملكهم » الآية ٢٣ سورة النمل

« المسألة الثانية : روى فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم قال حين بلغه ان كسرى لما مات وولى قومه بنته : « لن يفلح قوم ولوا امرهم امرأة » وهذا نص فى ان المرأة لا تكون خليفة ولا خلاف فيه ونقل عن محمد بن جرير الطبرى انه يجوز ان تكون المرأة قاضية ولم يصح ذلك عنه ولعله نقل عنه كما نقل عن أبى حنيفة انها انما تقضى فيما تشهد فيه وليس بأن تكون قاضية على الاطلاق ولا بأن يكتب لها مسطور [= منشور] بان فلانة مقدمة على الحكم وإنما سبيل ذلك التحكيم والاستنابة فى القضية الواحدة . وهذا هو الظن بأبى حنيفة وابن جرير . وقد روى عن عمر انه قدم امرأة على حسبة السوق ولم يصح فلا تلتفتوا اليه فانما هو دسائس المبتدعة فى الاحاديث »

احكام القرآن للقاضى ابن العربى ج ٢ ص ١٢٦

ونقل القرطبى كلام القاضى ابى بكر بن العربى هذا بنصه فى الجامع لاحكام القرآن ج ١٣ ص ١٨٣

وقال الآلوسى فى تفسير الآية المذكورة « ... ونقل عن محمد بن جرير انه يجوز ان تكون المرأة قاضية ولم يصح عنه . وفى الاشباه : لاينبغى ان تولى [اى المرأة] القضاء وان صح منها بغير الحدود والقصاص . وذكر ابو حيان انه نقل عن ابى حنيفة عليه الرحمة انها تقضى فيما تشهد لا على الاطلاق ولا ان يكتب لها منشور بان فلانة مقدمة على الحكم وانما ذلك على سبيل التحكيم لها »

روح المعانى طبع منير الدمشقى ج ٩ ص ١٧١ .

[= الحكم] ، فان العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فيشمل المنع الولاية العامة كلها وأما ما كان من قبيل الولاية الخاصة فيجوز أن يتولاها بدون خلاف .

والظاهر أن اختلاف الفقهاء فى جواز تقليد المرأة القضاء وعدم جوازه كان له اثره فى ذلك اذ لا نجد فى تاريخ القضاء امرأة تولت القضاء . واما الفتيا فقامت بها كثيرات منهن عائشة ام المؤمنين وفاطمة بنت رسول الله واسماء بنت الصديق وام الدرداء الكبرى . واشهر من قمن بالفتيا بعد الصحابيات المشار اليهن هما فاطمة الفقيهة [1] وفاطمة البغدادية . وقد ترجم

= فالمفهوم من هذه النصوص ان مايعزى الى كل من ابى حنيفة والطبرى من جواز قضائها انما هو على سبيل التحكيم والاستنابة فى القضية الواحدة التى تقبل شهادتها فيها لا على الاطلاق ولا على سبيل تقليدها القضاء .

هذا ؛ وقد اصدرت لجنة الفتوى بالازهر فتوى هامة قيمة استعرضت فيها حقوق المرأة فى الاسلام وقد دوناها فى آخر الكتاب .

(١) هى كريمة علاء الدين محمد السمرقندى مؤلف كتاب « تحفة الفقهاء » وزوجة ابى بكر بن مسعود بن احمد علاء الدين الكاسانى مؤلف « بدايع الصنايع فى ترتيب الشرايع » وهو شرح التحفة الآنفة الذكر . ولذلك قيل : « شرح تحفته وزوج ابنته » . وكانت رحمها الله على جانب عظيم من الحسن والجمال طلبها الملوك والامراء ولكن أباها آثر الكاسانى لاعجابه بكتابه المذكور وجعله مهرها . وكان ثلاثتهم يقيمون بمنزل فى كاسان ويفتون الناس ثم انتقلوا الى حلب وكان الكاسانى يرجع الى زوجته فى المسائل التى تشكل عليه وهى تحلها له . وقد أرادوا ان يعودوا الى كاسان ولكن عدل الزوج والزوجة بناء على رجاء الملك العادل نور الدين الشهيد . وماتا فى حلب .

وضريحهما فى المقبرة المعروفة بقبور الصالحين ومشهور بين الجمهور بـ« قبر المرأة وزوجها» رحمة الله عليهم .

المرحوم الاستاذ محمد ذهنى (١) النساء اللائى اشتغلن بالفتيا والوعظ فى كتابه «مشاهير النساء».

واما الاجتهاد (٢) فى اشتراطه آراء مختلفة . فالرأى المنصور الصحيح أنه شرط الاولوية ولاشك انه اذا كان هناك من جمع الى الشروط الاخرى القدرة على الاجتهاد فهو اولى بتقلد القضاء من جميع الوجوه . واما اذا لم يوجد من يقدر على الاجتهاد فبالضرورة يختار من الموجودين اذ لا يصح أن يترك منصب القضاء شاغراً مادامت مناسبات الانسان مع اخيه الانسان

---

(١) هو الاستاذ محمد ذهنى بن القائمقام الملكى [= المدنى] محمد رشيد ولد فى استانبول ١٢٦٢هـ ، ١٨٤٦م وبعدان اتم دراسته العلمية توفر على اللغة العربية فحذقها واشتغل بتدريسها فى المدارس الحكومية وترجم كثيراً من الكتب العربية الى اللغة التركية فأدى الى اللغتين خدمة جليلة يشكر عليها . وله مؤلفات كثيرة فى النحو والصرف والفقه كلها باللغة التركية ونذكر منها على سبيل المثال : المنتخب فى تعليم لغة العرب ، والقول الجيد شرح فيه شواهد المطول والتلخيص للتفتازانى ، والقول السديد فى علم التجويد ، الغاز فقهيه ، نعمة الاسلام كتاب فى الفقه مشتمل على العبادات والنكاح والطلاق ، وترجمة المنار فى اصول الفقه ، وترجمة أطواق الذهب للزمخشرى وغيرها .

وكان رحمه الله جمع الى علمه الغزير وثقافته الواسعة الورع والزهد وحسن الخلق وتوفى فى ١٨ المحرم ١٣٣٢ هـ ، ١٩١٤ م ودفن بمقبرة مسجد « كوبليجه » فى حى « بكلربكى » باستانبول . رحمة الله عليه .

(٢) الاجتهاد هو بذل الفقيه ما يسعه من الجهد لاستنباط الاحكام الشرعية من أدلتها ويشترط لذلك ان يكون صاحب حديث له معرفة بالفقه ليعرف معاني الآثار او صاحب فقه له معرفة بالحديث لكيلا يشتغل بالقياس فى المنصوص عليه . ولا بد مع هذا من ان يكون صاحب قريحة يعرف بها عادات الناس لان كثيراً من الاحكام تبتنى عليها . وهناك اقوال اخرى فى تعريف الاجتهاد .

مستمرة استمراراً يؤدى الى حدوث خصومات تحتاج الى الفصل فيها .
وكذلك من شروط الأولوية أن يكون القاضى واقفاً على تقاليد المجتمع وعادات الناس وعالماً بمعاشرتهم ورعاً عفيفاً من التهمة وصائن النفس عن الطمع . وكان القضاة فى صدر الاسلام يختارون ممن تتوافر فيهم هذه الاوصاف الجميلة الا من ندر .

وكان من الجائز أن يكون القاضى واحداً واكثر حسب ما تدعو اليه الحاجة . والجهات التى يكون قضاتها متعددين كان يحدد لكل منهم دائرة عمله فى الغالب وقد لا تحدد . ونذكر على سبيل المثال مدينة بغداد كان اسماعيل بن حماد يقضى فى القسم الشرقى منها وابو يوسف فى غربيها . والقضاة الذين حددت دوائر أعمالهم انما ينظرون فى الدعاوى التى تحدث فيها . واما اذا لم تكن قد حددت فكان للمدعى ان يرفع قضيته الى من شاء منهم وليس للمدعى عليه فى هذه الحالة ان يقول : اريد ان تنظر هذه القضية فى دائرة قاض آخر غير الذى اختاره المدعى . واذا فوض الى القاضى سلطة الاستخلاف كان له ان يندب أحداً ليفصل فى القضية بالنيابة عنه اذا حدث له عذر يمنعه من النظر فيها بنفسه اواقتضت ظروف القضية النظر فيها فى مكانها كقضايا الاموال غير المنقولة ويسمى هذا المندوب نائب القاضى .

وكانت السلطات التى يباشرها القضاة هى فصل الخصومات الناشبة بين الافراد بعضهم البعض او بينهم والحكومات . والحجر على الشخص للسفه او لغيره من الاسباب الموجبة له ، ونصب الوصى على القصر وحفظ اموالهم .

هذا ، ولم تكن سلطاتهم فى مستوى واحد من الشمول فى كل عصر وزمان ففى بعض الدول الاسلامية عهدت اليهم أعمال اخرى غير ما تقدم ذكره .

القضاء يتقيد بالزمان والمكان ويتخصص وبيان ذلك ان القاضى المنصوب لمدة سنة مثلا يقضى فى تلك السنة فقط ولا يقضى قبل حلولها او بعد مضيها . وكذلك القاضى المنصوب ليقضى فى جهة معينة او فى محكمة بعينها انما يقضى فى تلك الجهة او المحكمة وليس له أن يحكم فى غيرهما . وايضاً اذا منع ولى الامر القاضى من سماع دعوى فى حادثة لاعتبارات تتصل بالمصلحة العامة فليس للقاضى ان يسمع الدعوى المذكورة وكذلك اذا حددت الحوادث التى يفصل فيها فله ان يفصل فيها وحدها دون غيرها من الحوادث . ومن أجل ذلك قد أنشىء فى بعض الدول الاسلامية منصب « قاضى المسجد » محدودة السلطات فكان قضاة المسجد يجلسون فى المسجد الجامع الذى تقام فيه صلوات الجمعة والعيدين وينظرون قضايا الديون من مائتى درهم الى عشرين ديناراً وقضايا النفقات وغيرها من القضايا الصغيرة وكانوا تحت إشراف القاضى إداريا .

وفى صدر الاسلام اى قبل ظهور المذاهب كان القضاة يحكمون باجتهادهم اعنى انهم كانوا يجتهدون فى الحوادث التى لم يرد فيها نص فى الكتاب والسنة ولا الاجماع ويحكمون بما أدى اليه اجتهادهم فإن ما أدى اليه اجتهاد المجتهد هو الحق عند الله ظاهراً فيجب عليه ان يعمل ويحكم به وان خالف رأى غيره من المجتهدين .

وكانت الأحكام التى يصدرونها حسب اجتهادهم محترمه لاتنقض حتى من طرف الخليفة الا أن يخالف الكتاب او السنة المشهورة أو الاجماع بأن يكون قولا لا دليل عليه (١) وله أمثلة كثيرة فى تاريخ القضاء .

---

(١) والاصل فى ذلك ان القاضى اذا كان ممن يجوز قضاؤه فقضى بقضية يسوغ فيها الاجتهاد لم يجز للخليفة ولا لاحد من القضاة نقضه لان الاجتهاد الثانى مثل الاجتهاد =

ثم ظهرت المذاهب كمذهب مالك وابى حنيفة والشافعى رحمهم الله وكان اكثرها انتشاراً فى الاول مذهب مالك والشافعى فكان مذهب الشافعى فى مصر والشام وحلب وايران وخراسان . وكان مذهب مالك فى شمال افريقية والاندلس (١) . ومذهب ابى حنيفة نشأ بالكوفة فأخذ ينتشر رويداً رويداً حتى شرق وغرب فكان فى مصر وسوريا والعراق والآناضول وما وراء النهر والهند والصين وصقليه . ويقال ان السبب فى عدم انتشار المذهب الحنفى بمصر (٢) فى الاول هو رأى الامام ابى حنيفة فى الوقف فانه رحمه الله كان

= الاول وقد ترجح الاول بالسبق لاتصال القضاء به فلا ينقض بما هو دونه . وروى أن شريحاً قضى بقضاء خالف فيه عمر وعلياً رضى الله عنهما فعلما ذلك ولم ينقضاه لوقوعه من قاض جائز الحكم فيما يسوغ فيه الاجتهاد .

وصح ان عمر رضى الله عنه لما كثرت اشغاله قلد القضاء أبا الدرداء واختصم اليه رجلان فقضى لاحدهما ثم لقى عمر المقضى عليه فسأله عن حاله فقال : قضى على . وقال : لو كنت مكانه قضيت لك . قال : وما يمنعك عن القضاء. قال : ليس هنا نص والرأى مشترك .

(١) وللمؤرخ الشهير ابن خلدون المالكى رأى فى انتشار مذهب الامام مالك رضى الله عنه فى شمال افريقيه والاندلس نذكره نقلا من مقدمته : « . . . . وايضاً فالبداوة كانت غالبة على اهل المغرب والاندلس ولم يكونوا يعاونون الحضارة التى لاهل العراق فكانوا الى اهل الحجاز أميل لمناسبة البداوة ولهذا لم يزل المذهب المالكى غضاً عندهم ولما يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها كما وقع فى غيره من المذاهب . . . »

ويقال ان اهل المغرب كانوا على مذهب داود الظاهرى والليث وبعد قدوم منذر بن سعيد انتقلوا الى مذهب مالك تبعاً له .

(٢) ولى المهدى قضاء مصر اسماعيل بن اليسع الكوفى ، وكان يرى ابطال الاحباس [= الاوقاف] كما يرى ابو حنيفة . ولم يكن ذلك سائغاً لدى فقهاء مصر ولذلك ذهب اليه الليث بن سعد فقيه مصر وقال له : جئت مخاصماً لك ، فقال فيماذا =

لايقول بلزوم الوقف وبعده غير لازم كالعارية يصح للواقف اولورثته الرجوع عنه (١) وهذا مخالف للآثار واعمال السلف فى صدر الاسلام .

وقد أمضى الامام الشافعى آخر عمره بمصر فكان له أثره فى انتشار مذهبه فيها وفى الشام انتشاراً واسعاً وكان اكثر علماء وفقهاء هذه الجهات شافعيين .

كان القضاة احراراً مستقلين يصدرون الاحكام بما أدى اليه اجتهادهم من غير ان يكون اى ضغط او تأثير من اولى الامر ليحكموا بمذهب دون مذهب . وقد اختلف الفقهاء هل يجوز ان يشترط على القاضى حين تقليده القضاء ان يقضى بمذهب معين اولا يشترط ؟ فذهب بعضهم الى الجواز وقال آخرون ان هذا الشرط لغو . وقد عرض سيدنا عمر رضى الله عنه لهذه المسألة فى كتابه المسمى « كتاب السياسة » (٢) الذى وجهه الى قاضيه فى

= قال فى إبطالك أحباس المسلمين وقد حبس رسول الله صلى الله عليه وسلم وابو بكر وعمر وعثمان وعلى والزبير فمن بعد ثم كتب للمهدى كتاباً كان من نتيجته أن عزله المهدى .

(١) الا انه اذا حكم به القاضى كما هو الواقع فى سائر عقود الاوقاف الآن يصير لازماً فليس للواقف ولا لورثته من بعده ابطاله . والحكم يرفع الخلاف . واما على مذهب ابى يوسف فان الوقف عنده كالعتق بجامع اسقاط الملك فى كل فيلزم قبل القبض والافراز . وعلى مذهب محمد فالوقف عنده كالزكاة لا يتم الا بالقبض والافراز .

(٢) من معانى السياسة الارشاد الى الحق . ولما كان هذا الكتاب يتضمن اصول القضاء التى ترشد القضاة الى الحق والصواب سمى كتاب السياسة والذى سماه بهذا الاسم هو الامام محمد بن الحسن . وقد ذكر هذا الكتاب فى كتب الحديث والفقه والادب بطرق اختلفت الفاظها ايجازاً واطناباً وتقديماً وتأخيراً واتحدت معانيها وقد اخترنا رواية الدارقطنى فى سننه فى الاقضية نقلا عن نصب الراية لاحاديث الهداية :=

البصرة ابى موسى الاشعرى . هذا ؛ وحكم القاضى بما يؤدى اليه اجتهاده انما يتصور فيمن يقدر على الاجتهاد وأما العاجز عنه فيعتبر فيه ان يتقيد فى احكامه بمذهب معين كما هو رأى بعض الفقهاء .

قلت آنفا إن الامام الشافعى أمضى آخر عمره بمصر وانتشر مذهبه اكثر ما انتشر فيها ولذلك كان قضاة مصر يختارون من علماء الشافعية وكان القاضى فيها واحداً من الفتح الاسلامى الى سنة ٥٢٥هـ وفى هذه السنة نصب

= « عن عبيدالله بن ابى حميدعن أبى المليح الهذلى ، قال : كتب عمربن الخطاب الى ابى موسى الاشعرى ، أما بعد : فان القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فافهم اذا أدلى اليك فانه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له وآس بين الناس فى وجهك ومجلسك وقضائك حتى لا ييأس الضعيف من عدلك ولا يطمع الشريف فى حيفك البينة على من ادعى واليمين على من انكر والصلح جائز بين المسلمين الا صلحاً أحل حراما او حرم حلالا لايمنعك قضاء قضيته راجعت فيه نفسك وهديت فيه لرشدك أن تراجع الحق فان الحق قديم ومراجعة الحق خيرمن التمادى فى الباطل ، الفهم فيما يختلج صدرك مما لم يبلغك فى الكتاب والسنة اعرف الاشباه والأمثال ثم قس الامور عند ذلك فاعمد الى احبها الى الله وأشبهها بالحق فيما ترى اجعل للمدعى امداً ينتهى اليه فان احضر بينته أخذ بحقه والا وجهت القضاء عليه فان ذلك اجلى للعمى وأبلغ فى العذر المسلمون عدول بعضهم على بعض الا محدوداً فى حد او مجرباً فى شهادة زور او ظنينا فى ولاء اوقرابة ان الله تعالى تولى منكم السرائر ودرأ عنكم بالبينات ثم أياك والقلق والضجر والتأذى بالناس والتنكر للخصوم فى مواطن الحق الذى يوجب الله بها الأجر ، ويحسن بها الذكر فانه من يصلح نيته فيما بينه وبين الله تعالى ولو على نفسه يكفه الله ما بينه وبين الناس ومن تزين للناس بما يعلم الله عنه غير ذلك يشنه الله فما ظنك بثواب غير الله فى عاجل رزقه وخزائن رحمته والسلام عليك ورحمة الله وبركاته »

نصب الراية طبعة المجلس العلمى ج٤ ص٨١

أحمد بن الافضل وزير الحافظ لدين الله الفاطمى اربعة قضاة : شافعى،مالكى اسماعيلى ، امامى وقد نصب كلا منهم بشرط أن يحكم بمذهبه .وبعد انقراض الدولة الفاطمية استمر نصب القضاة من الشافعية وفى عهد الملك الظاهر نصب إلى جانب القاضى الشافعى قضاة من الحنفية والمالكية والحنابلة ولكن كان القاضى الشافعى يتقدمهم وكذلك كانت الحالة فى سوريا وحلب ايضاً وظلت هكذا الى ان فتح العثمانيون مصر وفى عهدهم الغى النظام المار الذكر بمرسوم [فرمان] اصدره السلطان سليمان القانونى واستبدل به نظام ارسال قاضى عسكر من استانبول يعين من قبله نواباً اربعة من المذاهب الاربعة واستمر هذا النظام الى ان ولى امرها محمد على باشا وفى عهده الغى بارادة سلطانية فوحد القضاء واصبحت الاحكام تصدر وفقاً للمذهب الحنفى .

الاحتساب :

وفى الاسلام مؤسسة إسمها الاحتساب واختصاص هذه المؤسسة بحسب الاصل الامر بالمعروف والنهى عن المنكر شرعا ومعاقبة المخالفين .

يعد الاحتساب من الأعمال القضائية الا أن القضاء أعم وأشمل والاحتساب محدود الاختصاص ومقصور على أمور لا يتجاوزها إلى غيرها .

وكان العمل المنوط بالمحتسبين أن يطوفوا بالأسواق والطرق ويمنعوا ما يشاهدونه من الاعمال المخالفة لاحكام الشريعة ويمنعوا الناس ان يحملوا الدواب والسفن والحمالين مالا طاقة لها به من الأحمال والأثقال . ويأمروا أصحاب البيوت والحيطان الآيلة للسقوط أن يصلحوها أو يهدموها تفادياً لوقوع الحوادث والأخطار إذا اهمل إصلاحها وأن يحولوا دون الغش فى أقوات الناس من المأكولات والمشروبات ، ويمنعوا إستعمال موازين

ومكاييل ناقصة وما أشبه ذلك من الأعمال التى تقوم بها الآن المؤسسة التى أصطلحنا على تسميتها « البلدية ».

كان الاحتساب موجوداً فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام وعهود خلفائه الراشدين رضى الله عنهم كوظيفة مستقلة ، وقد عين الرسول سيدنا عمر محتسباً بالمدنية وسعيد بن سعد العاص محتسباً بمكة . وقد اهتمت بعدهم الحكومات الاسلامية بشئون الاحتساب وعينت عمالا وموظفين ليقوموا بأعبائه .

والاحتساب فى أصله من أعمال القضاء كما أسلفت الاشارة إليه ولكن رؤى إسناد هذا العمل الى موظف آخر وذلك احتراماً لمركز القاضى الذى يقوم بأعمال هامة كالفصل فى الخصومات وغيرها ، وصيانة لكرامته أن تبتذل بالطواف بالأسواق والطرق . ومع ذلك يحدثنا التاريخ أن أعمال الاحتساب عهدت الى القضاة فى بعض الدول الاسلامية كالدولة الفاطمية بمصر والاموية بالاندلس .

هذا ، وإن اسناد اعمال الاحتساب الى موظف مستقل او الى القضاة ليس مما يتعلق بالاساس والجوهر فانه من الامور التى ترك اسنادها ـ فى تشكيلات الدولة ـ الى من بيده الامر يعين من يشاء وفقا لمقتضيات الحال.

كاتب العدل :

وهناك عمل آخر يتبع القضاء وهو التسجيل والأشخاص المنوط بهم هذا العمل يسجلون فى سجلاتهم ما يحدث بين الناس من المعاملات والمقاولات وكتّاب العدل يسجلون المعاملات والاتفاقات التى تحدث بين الناس فى سجلاتهم وفقا للوجه الشرعى وكما حدث من غير زيادة على مايجب

أن يكتب ولا نقصان عنه . ويشهدون أمام القاضى أو يقدمون بيانا عن الحادثة التى سجلوها اذا مست الحاجة الى شهاداتهم أو بيانهم .

والاصل فيه قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه . . . فليكتب بينكم كاتب بالعدل . . . » الآيه . ولما كان هذا العمل يتصل بالمصالح العامة رأت الحكومات الاسلامية كالاموية والعباسية أن من واجبها تعيين كتاب العدل فى كل مكان حسب ما تدعو اليه الحاجة فعينتهم بالفعل . ويشترط فيمن يعهد اليه هـذا العمل أن يكون فقيهاً ورعاً صالحاً عدلا واقفاً على قواعد الصك والتسجيل . ومن لم تتوافر فيه هذه الاوصاف والشروط لا يعين كاتب العدل فان من لم يتصف بالعدل والامانة لا يؤمن أن يحرف الحوادث ومن لم يكن فقيها واقفاً على قواعد الصك والتسجيل لا يقدر على تسجيل الحوادث والمعاملات وفقاً لشروطها فلا تتحقق الغاية المنشودة من كتابة العدل فيلحق الضرر بذوى الشأن .

وقبل الفراغ من هذا البحث يحسن بنا أن نعرض للشرطة أو الحاكم العرفى إذ يوجد فى عهد الفاتح الذى ندرس حياته العدلية وفى العهود التى سبقته حكام يشبهون الحاكم العرفى . ويفيدنا البيان الذى نقدمه فى هـذا الصدد عند ما نبحث فيما اذا كان لهؤلاء الحكام صلة بالماضى اولا ؟

وظيفة الشرطة (= الحاكم العرفى)

هى تنفيذ الاحكام الصادرة من قبل القضاة واتخاذ تدابير من شأنها أن تحول دون حدوث الجرائم ، وتعزير المتهمين والمشبوهين .

والشرطة بحسب الاصل من المؤسسات التابعة للقضاء ولكنها عهدت الى حكام وموظفين مستقلين فى بعض الدول الأسلامية الماضية كما أسندت إليهم رؤية قضايا الحدود والقصاص مع تنفيذ الأحكام الصادرة فيها ثم ردت هذه السلطة إلى القضاة مرة أخرى .

الفرق بين القضاء والشرطة :

وغير خاف أنه لا يعاقب أى شخص بناء على مجرد الظن والشبهة مالم تثبت عليه التهمة ثبوتاً شرعياً وفقاً لأحكام الشريعة ومن هنا نشأ الفرق بين القاضى والشرطة . فللشرطة أن يعاقب المتهم بناء على الظن والقرائن وليس للقاضى أن يصدر حكمه لمجرد الظن . ومع ذلك فالمسألة مختلف فيها : هل يجوز للقاضى أن يحكم بناء على علمه الخاص واستناداً الى القرائن والأمارات او لايجوز ؟ فذهب بعض الفقهاء الى جوازه ولكن الرأى الصحيح المعول عليه عدم الجواز .

الفصل الثالث

المحاكم والقضاة

ومنشئوهم فى الدولة العثمانية وعهد الفاتح

كان لا بد من أن نلم بالقضاء ونبين أهميته فى الاسلام والمراحل التى مرت به لـكى نفهم محاكم الدولة العثمانية وتشكيلاتها فانها كانت دولة اسلامية سارت فى شئونها كلها على المنهج الاسلامى وتأسست محاكمها على الاسس الاسلامية سواء من ناحيـة التشريع او التشكيلات كما هو الشأن فى سائر الدول الاسلامية مثـل الامويين والعباسيين وأحسبنى قدمت فكرة ، ولو اجمالية ، فى هذا الصدد بما أسلفته من البيان .

كانت نظرة المسلمين الى شريعتهم نظرة إجلال وتقديس وفكرتهم عن أحكامها المدونة فى الفقه فكرة امتزجت بالعقيدة الدينية ورسخت فى قلوبهم واستولت على ضمائرهم ومشاعرهم . وأما شريعتهم التى نظروا اليها هذه النظرة واعتقدوا فيها هذه العقيدة فكانت من سعة الدائرة وشمول أحكامها المستندة الى الحق والعدل بحيث تجيب جميع مطالب الحياة الاجتماعية وتحل كل المشاكل التى تحدث فى المجتمع وتصلح لـكل زمان ومكان ولا تدع حاجة الى البحث خارج دائرتها الواسعة عن شيء آخر يحقق العدل والحق .

وبهذا الشعور والايمان كان الجميع حتى الخلفاء والملوك يقابلون أحكام المحاكم بالسمع والطاعة والترحيب وعن طيب الخاطر . وكان الـكل : الغنى والفقير ، القوى والضعيف يجدون أمامها المساواة التامة .

ويتمثل شعورهم هذا فى مثلهم القائل : « لا تتألم الاصبع التى تقطعها الشريعة » .

وبمثل هذه الروح ، وفى جو من هذه الثقة إبتدأ السلطان عثمان الغازى بانى الدولة العثمانية عمله بتعيين قاض قبل كل شيء وجعل سلطة الدولة القضائية تعمل وتنشط وكان اول قاض ولاه هو الفقيه طورسون[١] .

وكان لابد من أن تكون هذه السلطة فى أيد نزيهة ذات كفاءة حتى يمكن اجراء القضاء فى الحدود التى رسمتها الشريعة الاسلامية وتتحقق العدالة اذ ليس من الممكن الوصول الى الغاية المنشودة باناس لا يدركون أهمية القضاء فى المجتمع ولا يفقهون روحه ، ومن أجل ذلك كانت هـــذه النقطة قد استأثرت بأكبر قسط من العناية والاهتمام .

وفى بداية قيام الدولة كان القضاة العثمانيون يختارون من العلماء القادرين على الاضطلاع بأعباء القضاء ممن نشأوا فى البلاد الاسلامية مثل الاناضول ومصر وسوريا وايران . هذا من جهة ومن جهة اخرى كان يفتح المدارس فى المدن الكبيرة مثل إزنيق (١) وبروسه لتخريج العلماء والقضاة . وبعدفتح

---

(١) هو من بلدة «قرمان» بالأناضول وصهر العالم الكبير والصوفى الشهير الشيخ إدبالى حمى السلطان عثمان . تلقى مبادىء العلوم فى المكاتب ثم قرأ على الشيخ إدبالى الحديث والتفسير والاصول والفروع فاستخدمه السلطان عثمان بعد وفاة حميهما فى وظيفة التدريس والافتاء وعينه مستشاراً له يستشيره فى الشئون الدينية وسائر شئون الدولة الهامة . ونصبه قاضياً لقر حصار وأمره أن يخطبه باسمه .

تاريخ الخلفاء ج ١١ وتاريخ عاشق باشا زاده

(١) اول مدرسة انشئت فى بداية الدولة العثمانية هى مدرسة « إزنيق » أنشأها السلطان اورخان الغازى لتخريج كبار العلماء والقضاة . وبالفعل قد تخرج فيها كثير من النوابغ منهم العالم الكبير خليل الاسود الجندرى .

استانبول اتسعت البلاد من جميع النواحى فتأسست امبراطورية عظيمة فاقتضى هذا الوضع الجديد الدولةَ مضاعفةَ العناية بشئون التعليم والقضاء فأنشأ السلطان محمد الفاتح مؤسسة علمية كبيرة فى عاصمة الدولة الجديدة (١) وكان ذلك سنة ٨٧٥ ﻫ وكان الغرض الذى يرمى اليه السلطان من إنشاء هذه المؤسسة تخريج علماء متبحرين فى العلوم كلها خصوصاً فى العلوم الدينية التى من أهمها الفقه .

وما كان يختار للتدريس فى هذه المدرسة الا علماء أجلاء واول من تولى التدريس فيها هو داود القيصرى ثم تاج الدين الكردرى وبعده علاء الدين الاسود . وكان السلطان اورخان يستفتيهم هم ورستم الاسود كلما دعته الحاجة الى الاستفتاء .

(١) يحدثنا التاريخ ان السلطان محمد الفاتح كان يطوف بالمدارس فى وقت متأخر من الليل ويتفقد الطلاب ليعلم المجتهد منهم وغير المجتهد فيكافئ المجتهدين . لم يعهد أن حاكما من الحكام بلغ به حب العلم هذا المبلغ .

ويروى أنه أراد أن يحصل على حجرة فى إحدى المدارس الثمان التى أنشأها فقال له ناظر المدرسة : عليك بالامتحان لتحصل عليها كما يقضى به شرط الواقف . فأداه بنجاح وحصل على الحجرة ويؤثر عنه انه قال حينئذ : « لتكن لى حجرة على الاقل أسكنها إذا خلعونى يوماً ما من الحكم » وكانت هذه الحجرة — على ما يروى بين الأساتذة والطلاب رواية تكاد تكون متواترة هى الحجرة الاولى الكائنة على يسار الداخل من باب المدرسة المعروفة بـ« باش قورشونلى » (= سرويلى) وهى إحدى المدارس الاربع الكائنة فى جهة البحر الاسود . وسنتكلم على هذه المدارس فيما سيأتى .

وكان رحمه الله يستقبل زواره فى هذه الحجرة كلما زار المدارس . وكان له فيها مقطة و « چكمجه » (*) مطعمة بالصدف وقد فقد هذا التراث الثمين فى المدة الأخيرة

(*) هو صندوق صغير ذو أدراج من غير قوائم يستعمل كمكتب .

وقد أدرك محمد الفاتح أن لا سبيل إلى تحقيق هـذا الغرض إلا بكبار العلماء والاساتذة فاستقدم من البلاد الاسلامية الاخرى نوابغ العلماء مستعملا معهم جميع أساليب الاغراء والتشجيع وباذلا لهم ضروب العطف والتكريم حتى أنشأ فى عاصمة ملكه جامعة علمية كبيرة نموذجية .

وما هى الا فترة قصيرة من الزمن حتى تحقق الغرض فنشأ عدد لايحصى من العلماء والفقهاء والشعراء ورجال الفن والأدب كما نرى أسماءهم فى كتب التاريخ والتراجم . والواقع أنه كانت هناك مكاتب ومدارس قبل الفاتح انشئت فى أنحاء البلاد من قبل الافراد والجماعات ولا سيما بطريق الوقف كما كان عدد لا يحصى من المكاتب والمدارس المتخلفة من الدولة السلجوقية والإمارات التى قامت على أطلالها . ولكن هذه المعاهد العلمية على كثرة عددها لم تكن كمدارس محمد الفاتح لا فى نظمها ولا فى أساتذتها الذين تولوا التدريس فيها .

فإن هذه المدارس بكبار أساتذتها وبرامجها الواسعة النطاق كانت تمثل جامعة علمية لم يكن لها مثيل فى أى مكان آخر (١)

هذا ، وقد انشئت عقب فتح القسطنطينية ـ وقبل إنشاء مدارس الفاتح ـ مدرستا «آيا صوفيه» و«زيرك» واول من تولى التدريس بمدرسة «آيا صوفيه» هو

---

(١) نعم إن المدرستين اللتين أنشأهما الوزير الشهير نظام الملك فى بغداد ونيشابور كانتا أكبر جامعتين فى العالم فى ذاك العهد وقد تولى التدريس فيهما أساتذة ذوو شهرة عالمية من أمثال أبى اسحاق الشيرازى وأبى النصر الصباح وأبى قاسم الدبوسى وأبى حامد الغزالى وفخر الاسلام الشاشى والامام السهروردى وكمال الأنبارى وامام الحرمين . وتخرج على أيديهم كبار العلماء والشعراء والمفكرين أمثال الشيخ سعدى =

المولى خسرو وكانت هذه المدرسة ينبوع علم فياض تفوق المدارس الموجودة فى ذاك العهد بفضل مدرسها ذلك العالم الكبير ومساعديه الأفاضل وقد احتفظت بمركزها العلمى الممتاز سنين عديدة الى أن تمت تشكيلات مدارس الفاتح .

يروى لنا التاريخ ان الفاتح كان يلاحظ من قصره القريب من مدرسة «آياصوفيه» أن احدى حجرها تظل مضاءة طوال الليل فسأل يوما عن الطالب الذى يسكن هذه الحجرة فعرف أنه محى الدين بن مضنيسا فكافأه على اجتهاده بأن اختاره فيما بعد مدرساً لمدرسة وزيره محمود (باشا) . وقد تخرج

= الشيرازى وقد تولى هو ايضا وظيفة الاستاذ المساعد . وكان يدرس فى هاتين المدرستين جميع فروع العلم والمعارف ويرحل اليهما عشاق العلم والمعرفة من كل جانب . ولكن مدارس الفاتح تفوقهما وأمثالهما بمالها من البرامج الواسعة النطاق والنظم الدقيقة فى امتحان الطلاب والتلاميذ .

ومدارس الفاتح وان كانت تذكرنا ماضيها المجيد بمبانيها الآيلة للخراب (*) ولكن النظامية قد أتت عليها يد الزمان المخربة ولم تبق منها أثراً يستدل به عليها وانما بقيت ذكراها فى القلوب وسجل اسمها فى التاريخ .

وما دمنا بصدد ذكر المعاهد العالمية فجدير بنا أن نذكر الازهر الشريف بالحمد والشكر فانه حفظ التراث الاسلامى عدة قرون ولا يزال يؤدى رسالته العلمية وينشر العلوم الدينية والعربية ويحتضن من يرحل اليه من طلاب العلم من أنحاء البلاد الاسلامية ويثقفهم ثقافة علمية دينية فهو المعهد العلمى الدينى الوحيد الذى بقى فى العالم الاسلامى حفظه الله وأدامه إلى يوم الدين .

(*) واعتمدت الحكومة التركية فى المدة الأخيرة مبلغا كبيرا لترميم هذه المدارس .

فى مدرسة « آيا صوفيه » كثير من أفاضل العلماء ذكرت تراجمهم فى الشقائق .

وكانت مدرسة « زَيْرك » كمدرسة «آياصوفيه» ذات شهرة كبيرة بكبار أساتذتها وطلابها وكان أول مدرس فيها هو المولى زيرك من كبار علماء عصره أخذ العلوم من العالم الكبير والصوفى الشهير الحاج بيرام دفين آنقره وهو الذى لقبه بزيرك ومعناه الفطن الألمعى لما شاهد فيه من أمارات النبوغ وشدة الذكاء . وكان يدرس بمدرسة السلطان مراد خان بمدينة بروسه قبل أن يعين بالمدرسة المارة الذكر .

وقد جرت بينه والمولى خواجه زاده مناظرة علمية استمرت سبعة أيام وانتهت باعتبار أنه فقد القضية فعزله السلطان من وظيفة التدريس وعين مكانه خواجه زاده وقد تأثر المولى زيرك من ذلك فبارح القسطنطينية الى بروسه وأمضى بقية عمره فيها . والظاهر أن السلطان ندم أخيراً على سلوكه معه هذا المسلك فدعاه الى استانبول باذلا له الوعود ولكنه اعتذر عن عدم قبول الدعوة . وفى رواية أنه أسند اليه منصب الافتاء فى بروسه فى أواخر أيامه بمرتب يومى قدره مائة آقچة وتوفى وهو يشغل هذا المنصب ودفن فى مكان يسمى « پيگارباشى » [= رأس الينبوع] بمدينة بروسه .

ومن أراد الحصول على تفصيلات أكثر فى هذه المدارس فليراجع كتاب « استانبول او نيورسته‌سى تاريخنه باشلانغج » [= التمهيد لتاريخ جامعة استانبول] لمؤلفه الباحث الجليل الأستاذ سهيل أنور .

وبينما كانت هذه المدارس تعمل لأداء رسالتها العلمية فانا نرى مؤسسات اخرى علمية انشئت بداخل القصر السلطانى وعرفت بمدارس « أندرونِ همايون » (١) تعمل هى ايضاً لتخريج رجال الجند والادارة والصناعة .

---

(١) «أندرون» كلمة فارسية معناها الداخل . وقد عرفت معنى «همايون» =

كانت مدينة بروسه هى المركز العلمى قبل فتح القسطنطينية وقد انتقل هذا العنوان العلمى اليها بعد الفتح .

والواقع أنه كان هناك علماء أعلام قبل إنشاء مدارس الفاتح تخرجوا فى دور العلم الكائنة فى قرمان وقونيه وإزنيق والشام ومصر وسائر المدن الاسلامية من أمثال الشيخ إدَبالى وخليل الاسود وجمال الدين الآقسرائى والمولى الفنارى والمولى الكورانى والمولى خسرو والمولى خضر بك تدين لهم الامة الاسلامية بالاحترام البالغ لما تركوا من آثار علمية خالدة إلا أنهم كانوا قلة . وبعد انشاء مدارس الفاتح أصبحوا كثرة تستعصى على العد .

مراحل التعليم :

وفيما يلى نذكر مراحل التعليم والنظم الدراسية المتبعة بمدارس الفاتح :

مرحلة اولى	وتسمى	الخارج
« ثانية	«	الداخل
« ثالثة	«	موصلة الصحن
« رابعة	«	الصحن

نظام الالتحاق بهذه المدارس والانتقال منه مرحلة الى اخرى :

كان على الطالب الذى يريد الانخراط فى السلك العلمى أن يواظب أولا

= فيما تقدم ص ٤٨ يسجل لنا التاريخ أسماء ستين صدر أعظم وثلاثة شيوخ الاسلام وثلاثة وعشرين قائداً بحرياً تخرجوا فى مدارس « أندرون » ويقاس عليهم غيرهم من الرجال الذين تخرجوا فيها . وكان الاساتذة الذين تولوا التدريس فيها من أمثال المولى سراج الدين والمولى حميد الدين واحمد باشا والمولى مصلح الدين وغيرهم ممن كانوا فى مستوى مدرسى الصحن فى العلم والفضل .

على حلقة تدريس عالم فى احدى المدارس المعروفة بمدارس الخارج ويدرس عليه مبادىء العلوم ثم يلتحق ـ بتوجيه أستاذه ـ باحدى مدارس الداخل ويدرس فيها على عالم آخر العلوم العالية المقررة فيها(١) حتى اذا أتم دراسته فيها خول له ذلك حق الالتحاق بمدارس الصحن ولكن لا مباشرة بل بعد أن درس العلوم المقررة فى احدى المدارس المعروفة بموصلة الصحن التى كانت بمثابة قسم اعدادى بالنسبة لمدارس الصحن(٢) .

---

(١) لم نعثر على البرامج التفصيلية وفروع العلم التى كانت تدرس فى هاتين المرحلتين وإنما يستنتج من كتب التاريخ أن المرحلة الاولى كان تدرس فيها مبادىء العلوم الدينية والرياضية والطبيعية وتسمى دروس الخارج . والمرحلة الثانية كان تدرس فيها مقاصد هذه العلوم ولا سيما الفقه وتسمى دروس الخارج .

ومما لا شك فيه أنه كان يشترط فيمن يريد الالتحاق بالمرحلة الاولى أن يكون متعلماً فى المدارس الابتدائية ويكون على قسط من المعلومات العامة فى اللغة العربية وسائر العلوم التى تدرس فيها . ويؤخذ أيضاً من المعلومات الناقصة الواردة فى كتب التاريخ أن المدارس التى أنشأها السلاطين كمدرسة أبى أيوب الانصارى وغيرها كان تدرس فيها العلوم المقررة فى المرحلة الثانية والمدارس التى أنشأها الوزراء مثل مدرسة محمود (باشا) تدرس فيها العلوم المقررة فى المرحلة الاولى . ومع كل هذا لم نجد تفاصيل نطمئن إليها فى هذا الصدد .

(٢) كلمة الصحن لها عدة معان فى اللغة منها وسط الدار . والدار كما تطلق على المنزل والبيت تطلق أيضاً على البلدة والمدينة . فسميت هـذه المدارس صحناً لانها انشئت فى وسط المدينة . وهناك رأى آخر يذهب الى ان المدارس المشار اليها سميت بهذا الاسم لانها فى ميدان محيط بالمسجد ولكن اذا نظرنا الى الاماكن التى توجد فيها المدارس يترجح الرأى الاول .

واما تسمية مدارس موصلة الصحن «تتمة» فلانها طريق الى مدارس الصحن=

ومدارس الصحن هـذه هى المدارس الثمان المبنية حول جامع الفاتح وتسمى الصحن الثمان وستتكلم عليها قريباً ، واما مدارس موصلة الصحن فهى ثمانى مدارس صغيرة اخرى تسمى « تتمة » بنيت خلف المدارس الثمان المشار اليها اى اربع منها خلف المدارس الكائنة بجهة البحر الابيض وأربع خلف المدارس الكائنة بجهة البحر الاسود ويبلغ عدد مدارس الصحن وموصلة الصحن كلها ست عشرة مدرسة .

وفى وقفية الفاتح سميت مدارس الصحن الثمان بالمدارس العالية وسميت مدارس التتمة بالمدارس الصغرى .

وكان على الطالب لكى يجتاز من مرحلة الخارج الى مرحلة الداخل

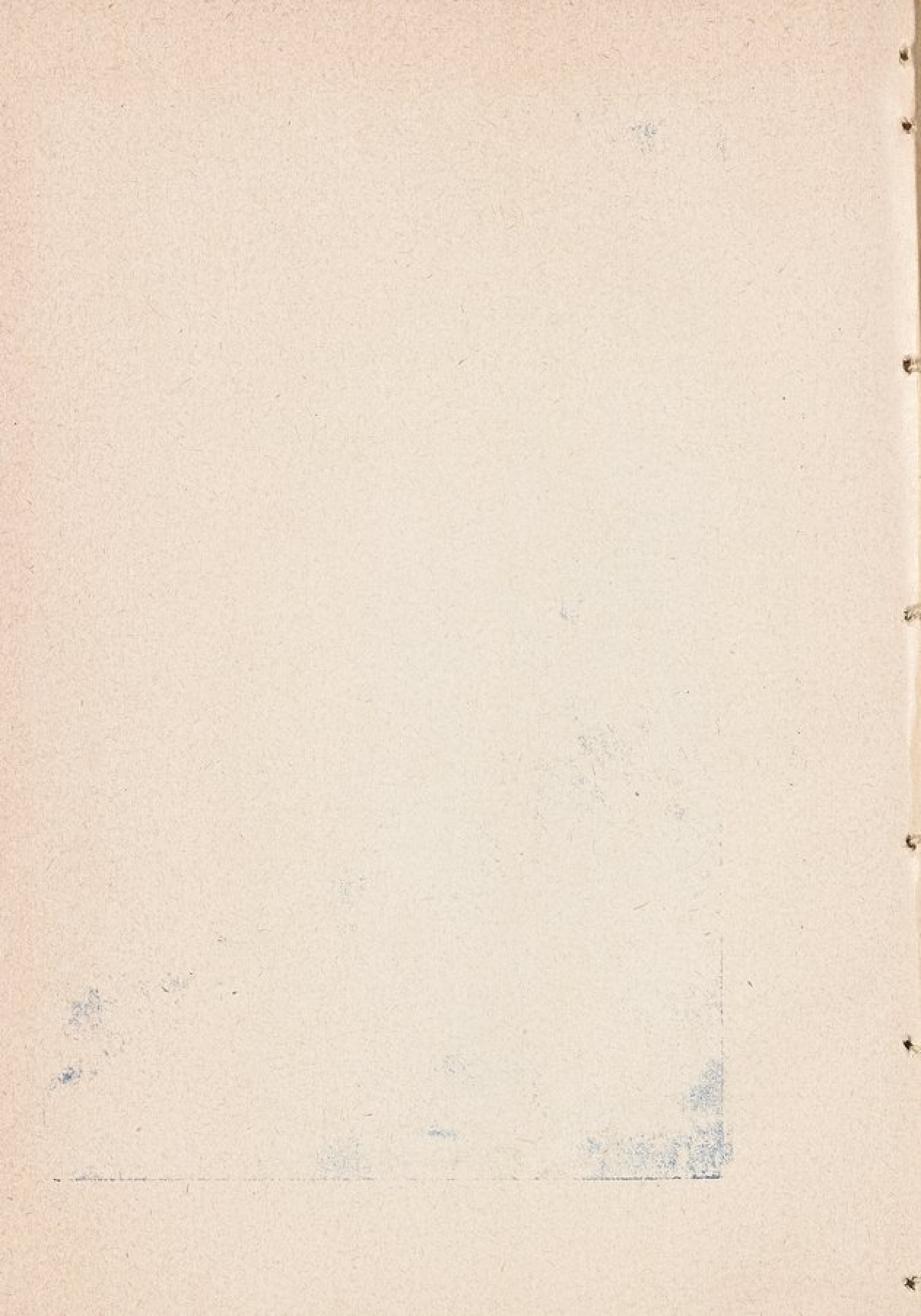
= فان الطالب لا يسمح له بالالتحاق بالصحن الا اذا درس العلوم المقررة فى التتمة ونجح فى الامتحان .

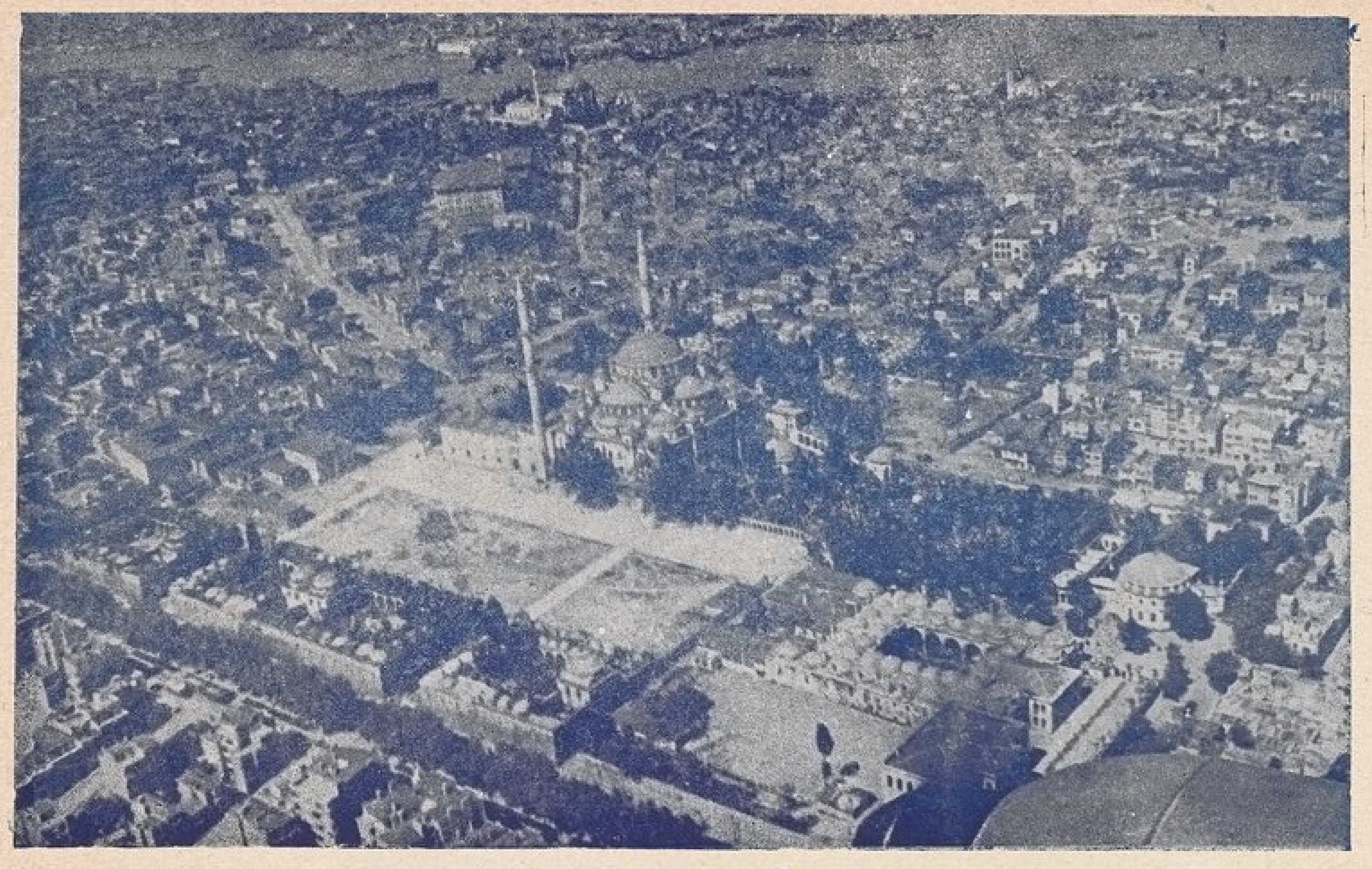
قلنا فيما تقدم إن مدارس الصحن ثمان ، أربع منها فى جهة البحر الابيض وأربع أخرى فى جهة البحر الاسود ، وإن خلف كل واحدة من هذه المدارس الثمان ثمانى مدارس أخرى تسمى موصلة الصحن او المدارس الصغرى او « التتمة »

وقبل الشروع فى ذكر أسماء هذه المدارس الثمان وبيان معانيها وسبب التسمية نبغى أن نعلم أولا معانى المفردات التى تتألف منها الاسماء ، وهاهى ذى تلك المفردات :

الكلمة	المعنى
قره دكز	البحر الاسود
آق «	« الأبيض
باش	الرأس
آياق	القدم = ارجل
قورشونلى	مغطاة بالرصاص
چيفته	الزوج

وفيما يلى نبين اسماء المدارس ومعانى الاسماء وسبب التسمية وأوضاع بعضها من بعض =





جامع الفاتح ومدارس الصحن والتتمة

لاشك فى أنه لم ينزل من السماء ولكنه سماوى : حوى تجليات إلهية فياضة لا أرض لها .

(محمد عاكف)

المجموعة الكائنة فى جهة البحر الابيض

مدارس التتمة		مدارس الصحن
	(١)	آق دكز باش قورشونلى
		ممر
	(٢)	آق دكز جيفته باش قورشونلى
	(٣)	آق دكز جيفته آياق قورشونلى
		ممر
	(٤)	آق دكز آياق قورشونلى

جامع الفاتح

المجموعة الكائنة فى جهة البحر الاسود

مدارس الصحن		مدارس التتمة
قره دكز باش قورشونلى	(١)	
ممر		
قره دكز جيفته باش قورشونلى	(٢)	
قره دكز جيفته آياق قورشونلى	(٣)	
ممر		
قره دكز آياق قورشونلى	(٤)	

ومنها الى موصلة الصحن ومنها الى الصحن ، أن يؤدى امتحاناً يثبت به لياقته للمرحلة التى يريد الالتحاق بها وكان لا يسمح له بالانتقال من مرحلة الى اخرى مالم تثبت لياقته . وإذا أتم الطالب دراسته فى مرحلتى الداخل والخارج والتحق بموصلة الصحن ودرس العلوم المقررة فيها ونجح فى الامتحان أعطى براءة سلطانية موشحة بالطغراء [= الطرة] وسجل اسمه بالديوان السلطانى العالى وتسمى هذه البراءة السلطانية «ملازمت رؤسى» [= رؤس الملازمة] .

وإذا أراد بعد ذلك ان يتخصص فى مادة ، التحق بمدارس الصحن وتلقى فيها الدروس فى تلك المادة . وأما إذالم يرغب فى الالتحاق بالصحن

اسم المدرسة الاولى من مدارس الصحن سواء أكانت فى جهة البحر الابيض او الأسود «باش قورشونلى» وهذا الاسم مركب من لفظين : «باش» بمعنى الرأس و «قورشونلى» بمعنى المغطاة بالرصاص وسميت به لانها فى مقدمة مجموعتها وضعاً كما أن الرأس فى مقدمة أعضاء الانسان . وحجرها، هى وأخواتها تعلوها قباب مغطاة بالرصاص كقبة مسجد محمد على بقلعة مصر ، وهذا هو السبب فى تسمية كل واحدة منها «قورشونلى»

اسم المدرسة الرابعة فى الجهتين المذكورتين «آياق قورشونلى» وهذا الاسم ايضاً مؤلف من لفظين : «آياق» بمعنى القدم و «قورشونلى» عرفت معناها وسبب التسمية بها . وسميت هذه المدرسة بهذا الاسم لأنها فى نهاية مجموعتها وضعاً كما أن القدم فى نهاية أعضاء الانسان . وقبابها مغطاة بالرصاص كالأولى

اسم المدرسة الثانية فى الجهتين أيضاً «چيفته باش قورشونلى» وهذا الاسم مركب من ثلاثة ألفاظ : الاول «چيفته» بمعنى الزوج ، وقد عرفت معنى الثانى =

مكتفياً بدراسة المراحل السابقة فكان يعين قاضياً فى المدن ماعدا المدن الكبيرة كاستانبول وأدرنه وبروسه .

والطلاب الذين أتموا مرحلتى الخارج والداخل باستانبول او ما يعادلهما فى مدارس المدن الأخرى يصح أن يعينوا نواباً عن القضاة فى المدن الصغيرة وذلك بشرط أن يؤدوا إمتحاناً فى مواد الصك والمحاضر والسجلات .

واما التخصص فى مدارس الصحن فلم يكن شرطا لتولى القضاء وإنما كان شرطا لتولى التدريس . والطالب الذى يتم مرحلة التخصص فى الصحن ونال شهادتها [وكانت هذه الشهادة تسمى « رؤس »] يعين أول ما يعين

— والثالث . وسميت هذه المدرسة بهذا الاسم لانها هى والثالثة زوجان متصلتان بعضهما ببعض مفصولتان عن الاولى والرابعة بممرين كما يبدو فى الصورة المرسومة ص ٨٧ وأما سبب تسميتها « باش » إما لقربها من المدرسة الاولى المسماة بها فكأنهما زوجان من الرأس وإما لأنها فى مقدمة وحدتها فانها هى والثالثة تؤلفان وحدة مستقلة فى وسط المجموعة .

واسم المدرسة الثالثة فى الجهتين كذلك « چيفته آياق قورشونلى » وهذا الاسم مركب من ثلاثة ألفاظ قد عرفت معنى كل منها وسبب تسميتها « چيفته » عند ما تكلمنا آنفا على اسم المدرسة الثانية . وأما تسميتها « آياق » مع أنها ليست فى النهاية أما لقربها من المدرسة الرابعة المسماة بها وأما لانها فى نهاية وحدتها .

هذا ؛ ويضاف الى اسم كل مدرسة من مدارس المجموعتين اسم البحر التى تقع فى جهته فيقال مثلا : «قره‌دكز باش قورشونلى . . . . . الخ وآق د كز باش قورشونلى . . . . الخ تمييزاً لها عن مشاركتها فى الاسم .

ويظهر من الصورة المرسومة ص ٨٧ ان خلف كل واحدة من مدارس الصحن =

مدرسا بمدرسة من الدرجة الابتدائية ثم يترقى بالتدريج الى أن يتولى التدريس فى أكبر مدرسة .

وكان أقدم طالب من أصحاب الحجرة المقيمين بمدارس الصحن يسمى « معيداً » ويساعد الطلبة المستجدين فى مذاكرة دروسهم كما كان يؤدى دروسا لطلبة مدارس التتمة السابق ذكرها .

وكان قضاء المدن الكبيرة مثل استانبول وبروسه وأدرنه يسند الى من كان فى مستوى كبار الاساتذة البارزين الذين امتازوا بكفاءتهم العلمية ومؤلفاتهم القيمة .

= فى الجهتين المذكورتين مدرسة صغيرة من مدارس التتمة وبها يبلغ عدد المدارس كلها ست عشرة مدرسة . ويشتمل كل واحدة من مدارس الصحن الثمان على تسع عشرة حجرة وقاعة كبيرة لالقاء الدروس والمحاضرات على الطلبة . واما مدارس التتمة فيشتمل كل واحدة منها على ثمانى حجرات . ويؤخذ من كتب التاريخ انه كان يقيم فى كل حجرة من حجرات الصحن الثمان طالب [دانشمند] وفى حجرات « التتمة » ثلاثة طلاب [= دانشمند] .

ويقدم لنا المؤرخ « صولاق زاده » المعلومات الآتية عن المدارس المذكورة :

أنشئت أربع مدارس عليا فى كل جانب من جانبي المسجد المبارك وفى كل مدرسة منها تسع عشرة حجرة . حجرتان منها معدتان للاستاذ والمساعد [المعيد] وحجرتان للفراش والبواب ، والخمس عشرة الباقية لسكنى الطلبة . وسميت هذه المدارس صحناً لانها انشئت فى وسط المدينة . ولما كان عددها ثمانية أصبحت مغبوطة الجنات الثمان ومحسودة السموات السبع . وتوجد خلف كل مدرسة من هذه المدارس الثمان مدرسة ملحقة بها تسمى (تتمه) تشتمل على ثمانى حجرات يسكن فى كل منها ثلاثة طلاب ويصرف لكل منهم مرتب شهرى قدره (١٢ آقچه) كبدل الشمع

وبنى بجوار هذه المدارس مطعم خيرى ومستشفى كامل المعدات وسائر المرافق .

وقد أنشأ محمد الفاتح بجوار هذه المدارس مطعماً خيرياً ومستشفى كامل المعدات وكان الطلاب الذين يدرسون الطب يتمرنون فى هذا المستشفى .

والخلاصة : كانت فروع العلم كلها تدرس فى هذه المدارس ويتخرج فيها القضاة والأطباء والمهندسون .

وفى عهد السلطان سليمان القانونى اتسعت رقعة البلاد اكثر من ذى قبل فمست حاجة الجيش الى عدد كبير من الاطباء والجراحين كما اكتسبت الهندسة أهمية كبرى فأنشئت بجوار مسجده المعروف باسمه ـ ذلك المسجد العظيم الذى يمثل العصر الذهبى العثمانى (١) ـ مدرسة طب ومستشفى كما انشئت حول المسجد أربع مدارس لتدرس فيها العلوم الرياضية والطبيعية . وانشئت ايضاً دار الحديث والحقت بهذه المدارس عدة مدارس اخرى كقسم إعدادى لها وسميت « موصلة السليمانية » واذا أتم الطالب مرحلتى الداخل والخارج وأراد ان يدرس الطبيعة والرياضة والطب التحق بموصلة السليمانية [= تتمات السليمانية] واذا رغب فى دراسة الادب العربى والفقه والتفسير والكلام وسائر العلوم الاسلامية التحق بموصلة الصحن [= تتمات الفاتح] ويرجع للحصول على تفصيلات اكثر مما ذكرناه الى كتب التاريخ

---

(١) وقد وصف هذا المسجد العظيم شاعر الاسلام المرحوم محمد عاكف (*) (بك) وصفاً رائعا بديعاً فى قصيدة عصماء تعد آية فى الشعر التركى كما أن الموصوف معجزة فن الهندسة .

(*) وهو شخصية معروفة بمصر أقام بها مدة طويلة وتولى تدريس الادب التركى بجامعة القاهرة ثم مرض وسافر الى استانبول وتوفى بها الى رحمة الله سنة ١٣٥٥ هـ و١٩٣٦ م ودفن بمقبرة « أدرنه قپو » أغدق الله عليه سجال رحمته وأسكنه بحبوحة جناته :

وله ديوان مؤلف من سبعة أجزاء باسم « صفحات » يضم روائع الشعر وعيون القريض .

وخصوصاً الى تاريخ جودت (باشا) (١) .

كان الموظفون المنوط بهم تحقيق العدالة من أصغر موظف الى قاضى العسكر علماء وقورين ممتازين فى الفقه والحقوق كل على حسب المركز الذى يشغله كما كانوا من حسن الخلق والسلوك بحيث لا سبيل الى الاعتراض عليهم . وانهم فى اثناء دراستهم الدينية والأدبية تلقوا تربية دينية وتأصلت فى قلوبهم عقائد دينية دفعت الجمهور الى احترام شخصياتهم واوحت الى النفوس ثقة عظيمة بصحة الاحكام التى يصدرونها . كما أن ولى الأمر لم يكن يضن عليهم بعطفه ورعايته فكانت معروضاتهم تقع منه موقع القبول والاجابة .

وظائف القضاة :

أشرنا فى كلمتنا التى صدّرنا بها الكتاب الى أن كتب التاريخ زاخرة بمعلومات مسهبة عن الأحداث السياسية والمعارك الحربية وعن الحركات

---

(١) نذكر فيما يلى بعض شخصيات علمية تولوا التدريس بمدارس محمد الفاتح لنأخذ فكرة عن جلال هذه المدارس وعظمتها : علاء الدين على الطوسى ، المولى خسرو ، المولى زيرك ، خواجه زاده ، الكستلى ، خطيب زاده ، عبد الكريم ، حسن بن عبد الصمد السمسونى ، الحاج حسن زاده ، افضل زاده حميد الدين ، يعقوب باشا ، حسن چلبى ، قاضى زاده ، ابن مغنيسا ، حسن بن حامد التبريزى ، بهاء الدين ، سراج الدين ، مصلح الدين اليار حصارى ، علاء الدين على الفنارى ، يوسف بن حسين الكرماسق . هؤلاء العلماء الاعلام حذقوا العلوم العقلية والنقلية كل الحذق وتخصصوا فيها وعرفوا فى البيئات العلمية بعلمهم وفضلهم وبما ألفوا من الكتب العلمية القيمة . جرت مناظرة علمية بين المولى زيرك وخواجه زاده بحضرة السلطان محمدالفاتح استمرت سبعة أيام . تصوروا غزارة العلم وسعة التفكير اللتين مكنتا هذين العالمين من إستدامة المناظرة مدة اسبوع كامل .

العلمية وتراجم الأمراء والعلماء والشعراء ومشايخ الطرق . ولكنها شحيحة فيما يختص بالقضاء والتشكيلات القضائية ووظائف القضاة والنظم المتبعة والقواعد وإنما اكتفت كتب التاريخ فى هذا الصدد بتقديم معلومات عن الأوصاف التى يجب توافرها فيمن يتولى القضاء وعن الاعمال البلدية التى يقوم بها القضاة اجمالا .

هذا ، ولا نجد فى كتب التاريخ ايضاً إحصاءات عن الاعمال الواردة الى المحاكم والنظم المتبعة فى نظر القضايا وإجراء الاحكام . ويخيل الىّ ان السبب فى خلو كتب التاريخ من هذه المعلومات أن القضاة كانوا مكلفين بتطبيق الاحكام الشرعية على ما يعرض عليهم من الحوادث والقضايا وكانت هذه الاحكام معلومة لهم سواء كانت خاصة باصول النظر او بإجراء الاحكام وتنفيذها .

والواقع ان هذه الاحكام مدونة فى كتب موثوق بها مؤلفة من قديم الزمان وكل عالم أو قاض يطلع على هذه الكتب ويدرس الاحكام المدونة فيها ويعرفها معرفة تامة .

وان قضاة تلك العهود بلغوا من متانة الخلق وقوة العقيدة مستوى لا يسمح لهم باصدار الحكم من غير بحث شامل ودرس دقيق . على أنه لم يكن ذلك فى امكانهم حتى ولو أرادوه فان العلماء والمفتيين كانوا واقفين لهم بالمرصاد يراقبونهم مراقبة علمية ويحاسبونهم حساباً عسيراً على أقل هفوة تقع منهم .

وليست بنا حاجة إلى العود الى الماضى البعيد للاستدلال على صحة ما قلناه فاننا نعلم أنه كان هناك الى عهد قريب قضاة من رجال الدين تخرجوا فى المعاهد الدينية إذا عرضت على أحدهم قضية هامة لا يصدر حكمه فيها ما لم يقتلها بحثاً ودرساً ويستشر العلماء ويراجع المفتيين حتى يحصل له اقتناع

تام . وقد أدركنا نحن كثيراً من أمثال هؤلاء القضاة الأماثل . وقددرجت دار الافتاء باستانبول على هذا المنهج القويم من الصلابة التى لا تعرف اللين وظلت حريصة عليها الى أن ألغيت .

وإنا وإن كنا لا نجد فى كتب التاريخ احصاءات دقيقة عن عدد القضايا التى كانت تعرض على المحاكم غير أنه يمكننا أن نستنتج من السجلات الخاصة بعهد السلطان سليمان القانونى وعهود من وليه من السلاطين ، المحفوظة فى مخزن الاوراق ، أنها ما كانت بواقع الواحد فى المائة بالنسبة لما يعرض الآن من الحوادث حتى إن القضايا التى كانت تعرض على المحاكم قبل نحو سبعين سنة لم تكن بأكثر من الواحد فى المائة بالنسبة لعدد القضايا التى تعرض اليوم . وكانت هذه الظاهرة الاجتماعية السعيدة نتيجة لمتانة خلق الشعب وعدالة المحاكم التى كانت تتجلى بسرعة عقب مرافعة بسيطة خالية من الاجراءات الشكلية المعقدة على اختلاف أنواعها . ولا ننسى هنا فضل المفتيين وثقة الشعب بهم فى فصل ما شجر بينهم من الخصومات وسنعرض فى مبحث الافتاء لخدمات المفتيين للعدالة .

وبعد أن أدت بنا المناسبة الى ذكر هذه الحقائق استطراداً أعود الى أصل الموضوع فأقول :

كان القضاة بما لهم من الولاية العامة يفصلون فيما يعرض عليهم من القضايا المدنية والجنائية وفقاً للأحكام الشرعية ويشرفون على أموال الوقف والقصر وينظرون على الأوقاف التى لا ناظر لها ويعينون أوصياء على القصر الذين ليس لهم أوصياء وعلى السفهاء المحجور عليهم ، ويراقبون إدارة أموالهم .

لم يكن الرجوع الى القضاء خاضعاً لاى اجراء وانما يتوجه صاحب القضية الى المحكمة مباشرة إما بعريضة أو بدونها وتسجل فيها قضيته فتدعو المحكمة اليها الطرف الثانى فى القضية المتنازع فيها وبعد المرافعة والمحاكمة يصدر الحكم .

وكانت الرسوم المستوفاة قليلة جداً . وكان للقاضى أن يستفتى مفتى الانام [= شيخ الاسلام] او أى مفت آخر او عالم فى القضايا المشكلة على انه اذا جاء الرد غير موافق لرأيه لم يأخذ به . وكانت الاحكام الصادرة تنفذ بمعرفة الموظفين المختصين دون أن تكون خاضعة لمراسم . وكانت النظم الخاصة بتتبع سير القضايا من البساطة بحيث لا تؤدى الى التسويف والتأخير .

قلنا فيما مضى إن المقاولات والمعاملات التى تحدث بين الجمهور تسجل من قبل كتاب العدل وانه لابد من وجود كتاب العدل تحت إشراف القضاة . ففى الدولة العثمانية قامت المحاكم بهذا العمل إلى المدة الأخيرة وذلك اذا وكل أحد شخصاً آخر او أقر ديناً او باع او وهب او أجر او عقد شركة وما الى ذلك من المعاملات وأراد توثيقها ، توجه اصحاب الشأن الى المحكمة يقررون امامها ما قاموا به من المعاملة ويسجلونه ويتسلمون وثيقة خاصة بذلك مختومة بخاتم القاضى ويحتفظون بها . واستمر هذا النظام الى المدة الأخيرة على النحو المذكور .

وكانت الدعاوى والحوادث التى ترفع الى المحاكم الشرعية تضبط ضبطاً متقناً يوثق به ويطمئن اليه النفس فانه ، كما يفهم من المضابط والسجلات الموجودة بين أيدينا التى يرجع عهدها الى نحو أربعمائة سنة ، اذا وردت الدعوى الى المحكمة قيدت اولا فى جريدة الضبط واذا فصل فيها وصدر الحكم سجلت الاعلامات والحجج التى تنظم وفقاً للمضابط فى سجلات خاصة تحفظ بعناية تامة .

وفى العصر الثانى الهجرى بعد الاسلام أحدث علم الصك اى علم تحرير المضابط والاعلامات والمقاولات ويسمى علم المحاضر والسجلات وعلم الشروط ايضاً . وقد بنى هذا العلم على أسس متينة وقواعد عامة تطبق فى جميع

المحاكم الكائنة فى البلاد الاسلامية كلها فانك اذا اطلعت على إعلام صدر من محكمة الكوفة وإعلام آخر صدر من محكمة القاهرة وجدتهما متحدين فى اللفظ والتعبير والاصطلاح سوى ما يخص كلا منهما من الزمان والمكان ونوع القضية وما الى ذلك من الخصوصيات . (١)

وكان لا يكتب فى الإعلامات والمستندات ما لا حاجة اليه من حشو الكلام ، ولا يترك أى قيد اولفظ هام لاغنى عنه وكأن الانسان يحس عندما يقرأ هذه الاعلامات أنه يقرأ بحثاً فقهياً .

ومحصل الكلام : كان يعنى عناية بالغة الغاية بتنظيم الوثائق وتسجيلها والمحافظة عليها . ولكى نفهم مبلغ هذه العناية والدقة المتناهية يكفينا أن نلقى نظرة فاحصة الى هذه السجلات والمجلدات التى يبلغ عددها نحو ألف سجل وتسمى « قيود خاقانى » (٢)

---

(١) كانت قواعد هذا العلم الاساسية وضعت من قبل الفقهاء الاولين ولكنها لم تطبق عملياً الا فى سنة ١٢٠ هجرية ، فعبدالله ابن شبرمة من كبار الفقهاء هوالذى بدأ فى تسجيل الاعلامات فى سجل خاص . وكانت الدعاوى والاحكام لا تسجلان فى العهد النبوى ولا فى عهود الخلفاء الراشدين والاصحاب ولا فى عهد التابعين وانما يكتفى بالحكم الشفوى يصدره القاضى وينفذه المتقاضون فور صدوره وكانت متانة أخلاق الجمهور وقلة الحوادث لا تدعوان الى ضبط الحوادث وتسجيل الاحكام ، واستمرت الحالة على هذا الى أن ولى ابن شبرمة قضاء الكوفة فكثرت الحوادث وتطورت الاخلاق فمست الحاجة الى الضبط والتسجيل والتوثيق .

(٢) « قيود خاقانى » هى إحصاءات رسمية عن القرى والمزارع والمراعى والمصايف والمشاتى وسائر الاراضى الكائنة فى البلاد العثمانية والجهات التى تكون مربوطة بها وتابعة لها . وقد أجريت هذه الاحصاءات فى العهد العثمانى ، وبصفة خاصة فى عهد السلطان سليمان القانونى وعهد السلطان مراد الثالث قامت بها لجان اختير =

وكانت للقضاة وظيفة أخرى غير الوظائف السالفة الذكر تتصل بأعمال بلدية لاقضائية وظلوا يباشرون هذه الاعمال البلدية فى الولايات والسناجق والمراكز الى عهد « التنظيمات »

— أعضاؤها من ذوى الكفاءة والاستقامة ودونت فى سجلات خاصة تدويناً دقيقاً متقناً منظماً صحيحاً خالياً من شائبة الشك والتزوير . ويبلغ عدد هذه السجلات ٩٧٠ سجلا كانت تحفظ فى دار المحفوظات السلطانية [دفترخانه خاقانى] بداخل مخزن محكم مختوم يصل اليه الانسان من أربعة أبواب حديدية متداخلة . وأخيراً نقلت هذه الكنوز الثمينة من استانبول الى آنقرة وتحفظ الان بداخل دواليب زجاج فى مبنى محكمة النقض فى عهدة موظف .

وكان فى العهد العثمانى اذا لزم تغيير مربوطية قطعة من الاراضى المسجلة فى تلك السجلات وذلك بناء على الاذن الشرعى ، يستصدر المرسوم السلطانى من قلم الديوان الهمايونى ويدون رئيس قلم التوقيع خلاصة المرسوم فى صدر البيان الخاص بتلك القطعة ويضع إمضاءه تحت الخلاصة ، ويجرى كل هذه الاجراءات بحضرة ناظر « دفترخاقانى » ثم يعاد السجل الى المخزن كما يحفظ المرسوم لدى الموظف المختص .

هذه الوثائق قيمة جداً ورائعة جداً وقد بلغت قيمتها وروعتها حداً يصح معه أن يعد مفخرة يفخر بها الذكاء التركى ، ودليلا يستدل به على مقدرته على الابداع والاختراع لجمال الخط فى الكتابة ، والدقة المتناهية فى الترتيب ، والامانة الكاملة فى تدوين المعلومات ، والاتقان البالغ الغاية فى البيانات ، ونفاسة التجليد كل ذلك فوق التصور والتقدير .

وقد أبدعت هذه الآثار القيمة التى لم يكن يرى مثلها ، الى ذاك الوقت ، تحت إشراف جماعة من علماء الترك ويستدل منها ومن غيرها من الآثار الخالدة التى ورثناها من أجدادنا على أن الاتراك أبدعوا لا فى فن الحرب والقتال فحسب بل فى ميادين العلم والادارة والحضارة . ولا يكتم المستشرقون ورجال بعض البلاد المنسلخة من الامبراطورية العثمانية إعجابهم بالذكاء التركى الذى أبدع هذه النفائس . وانى أنصح شباننا أن يزوروا هذه السجلات ويستجلوا محاسنها ويتأملوها بعين العبرة والدقة.

وكانوا مرجعاً لأرباب الحرف والصناعات فى شئونهم الخاصة بهم فتعيين «كتخدا» (١) و «يكيت باشى» (٢) وعزلهما، وزيادة الاسعار أو خفضها ومراقبتها والمحافظة على النظام المتبع بين أرباب الحرف وفصل ما يحدث بينهم من المنازعات كل ذلك كان من جملة وظائف القضاة.

كان القضاة يندبون من قبلهم نواباً ومفتشين يفتشون السوق ويمنعون أهلها من المخالفة للأوامر والنظمَ ويعاقبون من يجرأون على ارتكابها ويسمى هؤلاء النواب «نائب القدم» لانهم يؤدون أعمالهم وهم واقفون على أقدامهم ويجد القارىء تفصيلات اكثر مما قدمناه فى هذا الموضوع فى الجزء الاول من كتاب «مجلة الامور البلدية» لمؤلفه الباحث القدير عثمان نورى أرگين.

الاحتساب:

ذكرنا فى المقدمة معنى الاحتساب والاصل الذى يتفرع عليه من الاصول الشرعية مع بيان وظيفة المحتسبين. اقتفى العثمانيون اثر الرسول عليه الصلاة والسلام وخلفاءه الراشدين رضوان الله عليهم فى الاحتساب ايضاً كما اتبعوهم فى القضاء فعينوا موظفين مستقلين ليقوموا بشؤون الاحتساب ويسمى هؤلاء الموظفون «المحتسب» [احتساب آغاسى].

---

(١) اسم مركب من لفظين فارسيين أحدهما «كت» بفتح الكاف العربية واصله «كد» بمعنى البيت والآخر «خدا» بضم الخاء المعجمة بمعنى صاحب ومعنى الاسم ـ صاحب البيت وكلمة «كخيا» محرفة منه. ويطلق على الوكيل والمعتمد وعزيز القوم وغير ذلك من المعانى والمقصود منه هنا رئيس أرباب الحرف والصناعات ومدير شئونهم ومدبر امورهم.

(٢) «يكيت» بمعنى فتى فى ريعان الشباب مكتمل القوة شجيع. والمقصود منها هنا الموظفون الذين يكونون تحت يد الكتخدا وينفذون أوامره ونواهيه. و «يكيت باشى» رئيس هؤلاء الموظفين.

كان فى كل مركز [قضاء] محتسب كما كان فى استانبول والبلاد المصطلح على تسميتها البلاد الثلاثة ولا يمكن تحديد عملهم بالضبط فى عهد الفاتح ولكن الامر المحقق أن القاضى هو المرجع الاصلى فى الشؤون البلدية فهو الذى يحدد الأسعار(١) ويفصل فيما يحدث بين أرباب الحرف من المنازعات ، وأما ماعدا ذلك من الأعمال المتصلة بالبلدية فيؤديها نائب القاضى [نائب القدم] والمحتسب والمعمار الأول . وقد حدثت تغيرات كثيرة فى اختصاص هؤلاء فى عهود مختلفة .

والمفهوم من كتب الفقه والتاريخ أن عمل المحتسب لم يكن مقصوراً على شؤون البلدية بل كان يمتد الى شؤون اخرى تتصل بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر .

---

(١) ذكر فى كتب الفقه فى باب الحظر والاباحة فى فصل البيع مانصه : لا يسعر على الناس فانه نوع حجر إلا أن يتعدى التجار تعدياً فاحشاً فى القيمة — وقدر التعدى الفاحش بزيادة مثل القيمة بأن يبيعوا أردب القمح بمائة مثلا وهو يشترى بخمسين — فلا بأس حينئذ بالتسعير بمشورة أهل الخبرة . وأجاز الامام مالك رحمه الله التسعير فى عام القحط .

والاصل فى ذلك ماروى ان السعر غلا بالمدينة فقالوا يارسول الله : «لو سعرت؟» فقال لا تسعروا فان الله هو المسعر القابض الباسط الرازق »

أخرج هذا الحديث ابوداود والترمذى فى «البيوع» وابن ماجه فى «التجارات» عن حماد بن سلمة عن قتادة وثابت وحميد . ثلاثتهم عن أنس قال الناس : يارسول الله غلا السعر فسعر لنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله هو المسعر القابض الرازق وإنى لارجو أن القى الله وليس أحد منكم يطالبنى بمظلمة من دم ولا مال » قال الترمذى حديث حسن صحيح .

وجواز التسعير بنى على القاعدة الفقهية : « الضرر يدفع بقدر الامكان » و « يتحمل الضرر الخاص لدفع ضرر عام » واما المنع الوارد فى الحديث الشريف فمحمول على ما إذا كان الغلاء طبيعياً ولم يكن مصطنعاً ولانتيجة لجشع التجار .

وقد مر بنا فيما تقدم أن من ضمن اختصاصهم أن يمنعوا معلمى الاطفال من القسوة عليهم اذا جاوزوا الحد المقرر فى تأديبهم . والا يسمحوا للملاحين بشحن السفن بأكثر مما تسعه من الاحمال والأثقال .

القضاة ومستواهم العلمى والخلقى :

قلنا فيما تقدم انه عندما نستعرض الحياة العدلية لعهد من العهود يجب أن نضع امام أعيننا ميول ولى الامر ومقدرته على تنفيذ ارادته ، ومبلغ قضاته من العلم والخلق وقلنا ايضاً إننا عندما ندرس الحياة العدلية لعهد الفاتح نبتدىء دراستنا من هذه النقطة . وفى كلامنا السابق حاولنا جهد استطاعتنا أن نبين ميول السلطان ومقدرته وحظ القضاة من العلم والان نريد ان نعرض فى الهامش تراجم بعض العلماء الذين تولوا القضاء فى استانبول وفى سائر الولايات والمدن الاخرى نقلا عن أوثق المصادر وذلك لكى يكوّن القارىء الكريم فكرة عن قضاة ذلك العهد .

وبالطبع لا يمكننا أن ندرج هنا تراجم قضاة العهد المذكور كلهم ولكن بالقياس على ما نذكر منهم لاتصعب معرفة احوال الباقين فان المذكورين يمثلون عصرهم فى ثقافته وخلقه أصدق تمثيل . كما أن قضاة بلادنا اليوم يمثلون العصر الحاضر من الناحيتين العلمية والخلقية .

المكتبة العربية زاخرة بكتب تراجم القضاة الذين تولوا القضاء فى مختلف البلدان الاسلامية : قرطبة ومصر والشام وبغداد والبصرة [١]

---

(١) نذكر من الكتب المذكورة على سبيل المثال : اخبار القضاة لوكيع القاضى ، وقضاة مصر للكندى ، رفع الاصر عن قضاة مصر لابن حجر العسقلانى وذيله للحافظ السخاوى . والنجوم الزاهرة فى قضاة مصر والقاهرة لسبط ابن حجر ، قضاة قرطبة لمحمد بن الحارث الخشنى ، قضاة الاندلس لابن الحسن على بن عبد الله الباهى ، الثغر البسام فى ذكر من ولى قضاء الشام للحافظ الشمس بن طولون الدمشقى ، روضة القضاة لابى القاسم على بن محمد السمنانى .

ولكن المكتبة التركية قفر - مع الاسف - من أمثال هذه الكتب حتى اننا كنا لا نعرف - الى عهد قريب - ترجمة اول قاض فى استانبول ، وقد سد هذا النقص باحثنا الجليل الدكتور سهيل بك - شكر الله سعيه - برسالته المسماة « خضر بك » فعرّفنا بهذا القاضى الكبير والعالم الجليل . نعم كان خضر بك(١) اول قاض تولى القضاء فى القسطنطينية بعد فتحها . وأما قبل

---

(١) خضر بيك بن جلال الدين ولد فى « سفرى حصار » من بلاد الاناضول وقرأ مبادىء العلوم على والده وكان قاضياً بها ثم وصل الى المولى محمد بن أدمغان الشهير بالمولى يگان فتلقى عنه العلوم العقلية والنقلية وبلغ رتبة الكمال وتزوج بنته وكان متقد الذكاء ذا فهم صحيح وعلم غزير وباع ممتد فى النظم والنثر وحصل العلوم الغريبة والفنون العجيبة ولذلك سمى بين العلماء « جراب العلم » . حكى انه جاء رجل متبحر فى العلوم من بلاد العجم فى اوائل جلوس السلطان محمد الفاتح فحضر مجلس السلطان واجتمع مع علماء البلاد ورؤسائهم وسأل عن المباحث الغريبة فانقطع الكل وعجزوا عن الجواب فاضطرب السلطان اضطراباً شديداً فطلب رجلا له الاطلاع على العلوم الغريبة فذكروا المولى خضر وكان شاباً — وكان زيه على زى العسكر فأحضروه فضحك العجمى مستصغراً له فقال المولى خضر هات أسئلتك فأورد الاسئلة من علوم شتى فأجاب عنها ثم سأله المولى من ستة عشر فناً لم يطلع عليها الرجل فانقطع وأفحم فطرب لذلك السلطان طرباً شديداً وأثنى على المولى ثناء جميلا وأعطاه مدرسة جده السلطان محمد چلبي فى بروسه فدرس فيها وتتلمذ عليه مصلح الدين الشهير بخواجه زاده وشمس الدين الشهير بخطيب زاده وخير الدين معلم السلطان وغيرهم ولما فتح السلطان محمد الفاتح القسطنطينية ولاه قضاءها ومات هناك سنة ٨٦٣ ثلاث وستين وثمانمائة هـ ، وله نظم العقائد يعرف بالقصيدة النونية ونظم آخر معروف بالتائية أدرج فيهما ما فى الكتب الضخام من علم الكلام وقد تلقى العلماء النونية بالقبول فدرسوها وعنوا بها وأظنها لم يكتب مثلها فيما بعد وقد شرحها أعز تلامذته شمس الدين احمد الخيالى ويقال انه ترجم كتاب المطالع الى اللغة الفارسية والترجمة =

الفتح فقد أقام فيها السلطان بايزيد الاول الملقب بيلديرم [= الصاعقة] قاضياً للفصل فى الخصومات التى تنشب بين المسلمين المقيمين بها ولكن هزيمته فى معركة أنقره وما أعقبها من اضطراب الامر فى الدولة وتنازع الامراء السلطنة أتاحت (للبيزنطيين) فرصة التخلص من القاضى المذكور .

وبعد خضر بك تولى قضاءها فى عهد الفاتح المولى خسرو(١) ثم خواجه

= موجودة فى مكتبة آياصوفيا . وهو الذى ابتكر التأريخ نظماً بحساب الجمل فقال : « جامع زيد عمر من عمره » تأريخاً لمسجد بناه الفاتح سنة ٨٥٠ هـ . وأما قبله فكانوا يؤرخون نثراً مثل كلمة «خراب» تأريخ لتخريب تيمورلنك مدينة سيواس بالاناضول سنة ٨٠٣ هـ ثلاث وثمانمائة و « بنيان محمد خان » تأريخ لحصن الروملى الذى بناه الفاتح على البسفور سنة ٨٥٦ هـ . ويقال انه حفيد من جهة البنت للفيلسوف نصر الدين خواجه [= جحا الرومى] المعروف بطرائفه ونكاته اللاذعة .

هذا : وأرخ السخاوى فى الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع وفاة صاحب الترجمة سنة ٨٦٠ هـ حيث قال : خضر بيك بن القاضى جلال الدين بن صدر الدين بن حاجى ابرهيم خير الدين الرومى الحنفى احد علماء الروم ومدرسيهم وأعيانهم ولد فى مستهل سنة ٨١٠ عشر وثمانمائة ونشأ فى مدينة بروسه وتفقه بالبرهان حيدر والفنارى وبرع فى النحو والمعانى والبيان وصنف وأفاد ومن تصانيفه حواش على حاشية الكشاف للتفتازانى وارجوزة فى العروض وأخرى فى العقائد وقدم مكة سنة ٨٥٩ تسع وخمسين وثمانمائة ومات سنة ستين وثمانمائة انتهى» الفوائد البهيه

(١) هو محمد بن فرامرز [فراموز] الشهير بالمولى خسرو — وفى رواية كان ابوه رجلا رومى الاصل او فرنسياً اعتنق الاسلام ولكنه كتب بخط يده فى ختام كتابه الدرر والغرر وكتابه المرقاة مانصه : « أنا الفقير محمد بن فرامرز بن على » وظن بعض المؤرخين أن « فرامرز » كلمة افرنجية وبنى على هذا الظن ان والده كان فرنسياً او رومياً . والواقع ان الكلمة فارسية (*) واسم لابن رستم بن زال بن سام احد =

(*) اسم مركب من لفظين احدهما « فرا » بفتح الفاء وله معانى كثيرة منها الأخذ والآخر « مرز » بفتح الميم وسكون الراء من معانيه الارض والتخوم . ولعل معنى الاسم التركيبى قبل العلمية آخذ البلاد وفاتحها .

زاده(١) ، وابن مغنيسا(٢) . . . .

= الابطال الايرانيين القدماء ، ولركن الدين فرامرز والد كيقباد الثانى آخر ملوك سلاجقة قونية ـ مات والده وهو صغير فنشأ فى حجر زوج اخته المسمى «خسروبك» احد الأمراء العثمانيين فعرف بأخى زوجة الامير خسرو ثم اختصر الاسم بكثرة الاستعمال فقيل خسرو . تلقى العلوم كلها من المولى برهان الدين حيدر الهروى من تلاميذ سعد الدين التفتازانى فعين مدرساً لمدرسة « شاه ملك » بأدرنه ثم قاضياً للعسكر، ولما توفى المولى خضر بك سنة ٨٦٣ ولاه السلطان محمد الفاتح قضاء استانبول مضافاً اليه قضاء غلطه واسكدار من ضواحى استانبول مع التدريس بمدرسة آياصوفيا. وكان يباشر قضاء استانبول بنفسه وقضاء غلطه واسكدار بواسطة نواب عنه . وبعد ذلك اسند اليه منصب الافتاء الرفيع . وكان بحراً زاخراً عالماً بالمعقول والمنقول جامعاً للفروع والاصول من تصانيفه الغرر وشرحه الدرر فى الفقه ومرقاة الاصول وشرحه وحواشى المطول كتبها حين كان مدرساً بمدرسة شاه ملك وحواشى تفسير البيضاوى الى قوله تعالى سيقول السفهاء ورسالة فى الولاء أبدع فيها الفوائد العجيبة .

وكان السلطان محمد الفاتح يجله ويفخر به قائلا « هو ابو حنيفة عهدى » وكان رحمه الله متخلقاً بخلق حسن متواضعا يقضى حوائجه بنفسه ، توفى سنة ٨٨٥ هـ ونقل جثمانه الطاهر الى مدينة بروسه ودفن بجوار مدرسته فيها

(١) ذكرت ترجمته فى ص ٤٠

(٢) هو محى الدين محمد الشهير بابن مغنيسا قرأ على العلماء المعاصرين له ثم وصل الى استاذه المولى خسرو فنال بالغ تقديره كما ظفر بلفتة الفاتح بتزكية من استاذه فعينه مدرسا لمدرسة وزيره محمود باشا وكان قد تم انشاؤها وقد حضر اول درس ألقاه فيها — ويظهر انه كان عادة فى ذاك الوقت — استاذه المولى خسرو وخطيب زاده وغيرهما من كبار العلماء فسمعوه الى آخر الدرس . ولما فرغ من إلقائه أظهر المولى خسرو اعجابه وتقديره قائلا : شهدت فى ديار الروم درسين احدهما هذا الدرس =

والكستلانى(١) . . . .

=والآخر هو الدرس الأول الذى ألقاه محمدشاه الفنارى بمدرسة السلطانية . وقد تولى صاحب الترجمة التدريس فى عدة مدارس وقضاء العسكر وكان موفقا فى كل عمل تولاه وتخرج على يده مئات من الطلاب والتلاميذ .

(١) هو مصطفى مصلح الدين من قرية « كستل » التابعة لمركز (قضاء) « نازللى » فى ولاية « آيدين » بالاناضول. قرأ مبادىء العلوم فى آيدين ثم وصل الى خضر (بك) فأتم دراسته لديه فتزوج بنته وبذلك اتيحت له فرصة الاجتماع بمساعدى استاذه : الخيالى وخواجه زاده وكان محبا للمناظرة والنقاش وماهراً فى العلوم كلها . حكى المولى لطف الله التوقانى قال : كنت من طلبة المولى سنان باشا وكان وزيراً وكان من عادته دعوة العلماء ليالى العطلة واحضار الأطعمة النفيسة اللطيفة فاجتمعوا عنده ليلة وفيهم مصلح الدين الكستلانى وخواجه زاده وخطيب زاده وكان عندى زميل اتحادث معه فقلت فى أثناء الكلام : مرضت أنا فى وقت من الاوقات فعرقت الدم وانصبغت قميصى فضحك زميلى فتنبه العلماء لذلك وقالوا لم ضحكت فقال : لطف الله يقول كذا وكذا فضحك العلماء ايضا فقال الكستلانى مم تضحكون ؟ هذا مرض فلانى ذكره الشيخ الرئيس يعنى ابن سيناء فى الفصل الفلانى من القانون ، فقال خواجه زاده له طالعت القانون بتمامه ؟ فقال : نعم وجميع مصنفات ابن سيناء . ثم قال الكستلانى لخواجه زاده : أنت طالعت الشفاء بتمامه قال لا وانما طالعت مواضع الحاجة فقال الكستلانى : إنى طالعته بتمامه سبع مرات ، فتعجب الحاضرون من احاطته بالعلوم. وله حواش على شرح العقائد للتفتازانى وحواش على المقدمات الاربع التى فى التوضيح وتعليقات على المواقف وعلى حاشية العضد ورسالة فى القبلة . تولى التدريس بمدرسة « مدرنى » و « ديمتوقه » ثم فى احدى المدارس الثمان باستانبول ثم رقى الى منصب قضاء العسكر الرفيع . توفى سنة ٩٠١ ﻫ ودفن فى الموضع المسمى « ميت قويوسى » [بئر الميت] بجوار ضريح خالد بن ابى ايوب الانصارى .

والحاج حسن زاده افندى(١)

قضاة العسكر :

عندما نتكلم على المحاكم والقضاة يجب أن نضع قضاة العسكر فى الصف الأول فانهم أهم الأركان فى الأسرة القضائية وتشكيلات المحاكم .

وقد ذكرنا فيما تقدم إنشاء منصب قاضى القضاة فى عهد هارون الرشيد واسناده الى الامام ابى يوسف القاضى وبينا وظيفته واختصاصاته وكيف أن السلطة القضائية فصلت ، بانشاء هـذا المنصب ، من السلطات السياسية والادارية وأصبحت مؤسسة مستقلة وانه كان فى الدولة الاموية قاض باسم « قاضى الجماعة » .

ونذكر هنا أنه لم ينشأ فى الدولة العثمانية منصب قاضى القضاة كما لم يكن فيها قاضى العسكر الى عهد السلطان مراد الاول فكان قاضى العاصمة يصحب

---

(١) هو من باليكسر بالاناضول قرأ مبادىء العلوم على علماء عصره ثم وصل الى المولى يكان الآيدينى فأتم لديه وتولى التدريس بمدرسة « ديمتوقه » و« ملقره » . ثم عين قاضيا على « گليبولى » فأدى عمله بكفاءة ونزاهة وقد زكاه محمود باشا لدى محمد الفاتح فعينه مدرسا للمرادية فى بروسه ثم قاضيا لها وبعد ذلك انفصل من القضاء وأمر بالتدريس فى المدارس الثمان باستانبول وولى قضاءها وفى سنة ٨٨٦ هـ اى قبل وفاة الفاتح ترقى الى منصب قاضى عسكر الأناضول . ومن جملة مؤلفاته ميزان التصريف فى علم الصرف ، حاشية التوضيح ، غرائب اللغات شرع فى تأليفه بأمر السلطان ومات قبل اتمامه . حاشية على المقدمات الاربع ، وحاشية على تفسير البيضاوى على سورة الانعام. وكان يقول الشعر واسمه الشعرى «وحيد» و «جامى» توفى سنة ٩١١ هـ باستانبول ودفن بجوار ضريح ابى ايوب الانصارى . ولتلميذه الممتاز احمد بن سيدى مؤلف قيم اسمه اسرار الفاقه .

الجيش فى غزواته قائما مقام قاضى القضاة ومؤديا وظيفة قاضى العسكر .

وفى عهد اورخان ثانى السلاطين العثمانية كان المولى خليل الاسود الجندرى قاضى «إزنيق» مرجعاً للقضاة والخطباء الذين يعينون فى المدن التابعة للدولة . وفى عهد السلطان مراد الاول سنة ٧٦٣ ﻫ كثرت صنوف الجند فكثرت شئونهم تبعا لكثرتهم فعين خليل الاسود الجندرى المذكور آنفا — وكان قاضى بروسه — قاضيا للعسكر .

ويؤخذ من بعض المصادر العربية أن مؤسسة قاضى العسكر قديمة فى الاسلام وكانت موجودة فى بعض الدول الاسلامية(١) .

والى اواخر عهد السلطان محمد الفاتح كان فى الدولة قاضى عسكر واحد ولكن فى آخر عهده أنشىء لقضاء العسكر منصبان احدهما باسم قضاء عسكر الروملى والآخر باسم قضاء عسكر الاناضول(٢) فاسند قضاء عسكر الروملى

---

(١) ومن جملة من ولى قضاء العسكر محمد بن عبدالرحمن بن ابى بكر البغدادى المتوفى سنة ٣٦٢ ﻫ ولى قضاء العسكر وعاش ستين سنة وكان رأسا فى علم الكلام خبيراً بالتفسير وله كتاب فى الرد على اليهود وكتاب عمدة الادلة وكتاب التفسير . وقد استمر بعده هذا المنصب حتى وليه الجليل نجم الدين بن على بن الحسين بن على الملقب نجم الدين الحموى المتوفى سنة ٦٤١ ﻫ فولى قضاء العسكر للملك العادل ابى بكر ابن ايوب بعد الستمائة

(٢) وكان ذلك عقب فشل مسيح باشا فى فتح جزيرة رودس سنة ٨٨٥ ﻫ فعزله الفاتح من منصبه وعين مكانه المولى مغنيسا چلبى الذى كان يجمع فى يده قضاء عسكر الروملى وقضاء عسكر الاناضول . وابتداء من ذاك الوقت فصل القضاءان بعضهما من بعض وأصبح كل منهما منصباً مستقلا واستمر الامر كذلك الى أن فتح السلطان سليم الاول مقاطعة ديار بكر ومدينة حلب وما جاورها من المدن سنة ٩٢٠ ﻫ فأنشىء منصب ثالث باسم منصب قاضى عسكر بلاد العرب والعجم على أن يكون مركزه ديار بكر [= آمد] واسند هذا المنصب أول ما اسند الى المولى ادريس حكيم الدين البتليسى الذى له سعى مشكور وفضل كبير فى الحاق البلاد المذكورة بالمملكة العثمانية . وقد ألغى هذا المنصب أخيراً واكتفى بقضاء عسكر الاناضول .

الى المولى مصلح الدين الكستلانى وقضـــاء عسكر الاناضول الى الحاج حسن زاده .

وكانا [اى قاضى عسكر الروملى وقاضى عسكر الاناضول] اكبر الاركان فى التشكيلات القضائية فى الدولة ويصحبان الجيش اذا تولى السلطان قيادته أحدهما اذا كانت الحملة فى أوربا والآخر اذا كانت فى آسيا أو افريقيا وأهم شىء فى وظيفة قاضى العسكر أنه كان مستشاراً قانونياً للسلطان مع الاشراف على توزيع الغنائم والفصل فى الخصومات الناشبة بين أفراد الجيش والدعاوى الجنائية والمدنية التى ترفع من الاهالى ضد أحد ممن ينتمون الى الجيش[١] .

وأما توقيع العقوبات الخاصة بالمخالفات العسكرية فيذهب بنا الظن الى أنه لم يكن من اختصاص قاضى العسكر وانما كان ذلك من اختصـاص السلطات العسكرية .

كانت رؤية الدعاوى التى تحدث بين الجمهور والدعاوى الخاصة بالاموال غير المنقولة من اختصاص القاضى المدنى المحلى دون قاضى العسكر[٢]. هذا، وكان قضاة العسكر عندما يكونون فى العاصمة يقومون بعمل القاضى المدنى

---

(١) اذا كانت لزيد من الاهالى المدنيين دعوى شرعية ضد بعض افراد الجيش وأراد أن يرفع دعواه الى القاضى المحلى الموجود بالبلدة التى هم مرابطون فيها فهل للجندى الذى هو المدعى عليه أن يرفض التقاضى أمام القاضى المذكور ويطلب التقاضى أمام قاضى العسكر الموجود بالبلدة المذكورة ؟ نعم له ذلك .

فتاوى عبد الرحيم

(٢) قضاء قاضى العسكر لاينفذ فى العقار لانه فوض اليه القضاء فى أمور العسكر ولذلك يقضى فى المنقولات دون العقارات الا إذا نص على ذلك عند تقليده القضاء .

فتاوى الانقروى نقلا عن جواهر الفتاوى

ويعينون القضاة الذين يرسلون الى البلاد الاخرى — ما عدا استانبول والمدن المصطلح على تسميتها « مولويت »(١) وكان هؤلاء القضاة المعينون من قبلهم يسمون نواباً وكان تفتيش أعمالهم وعزلهم من اختصاص قضاة العسكر .

واما النواب المعينون من قبل غيرهم — وكان يحدث ذلك فى حالات خاصة تستوجبه — فتفتيشهم وفصلهم من اختصاص القاضى الذى عينهم .

والى عهد « التنظيمات » اى أوائل عهد السلطان عبد المجيد الاول كان القضاة تابعين لقضاة العسكر ، وقضاة العسكر كانوا تابعين للصدر الاعظم [= الوزير الاكبر] وبعد « التنظيمات » أصبحوا تابعين للمشيخة الاسلامية .

الافتاء :

قلنا فيما تقدم إن الافتاء مؤسسة تساعد المحكمة على تحقيق العدل(٢) .

---

(١) « مولويت » كلمة مولدة معناها منصب ورتبة القاضى الكبير المسمى « ملاّ » مثل ملاّ مصر اى قاضى مصر وملاّ مكه اى قاضى مكه المكرمة وغيرهما من الأقطار الكبيرة التى كانت تابعة للدولة العثمانية وتطلق كلمة « مولويت » على القطر نفسه كما تطلق على المنصب ؛ فيقال مثلا : « مكة مولويتدر » اى ان مكة قطر يتولى قضاءها قاض كبير من رتبة « ملا »

(٢) الافتاء فى الاصل حل مشكل وبيانه . وفى العرف الرد على سؤال عن حكم شرعى يقال أفتى المفتى بكذا اى أجاب على السؤال عن حكم شرعى بكذا ويسمى السائل المستفتى والمجيب المفتى والجواب الفتوى تجمع على فتاوى .

القضاء والافتاء مؤسستان مختلفتان لكل واحدة منهما إختصاص ليس للاخرى فالقضاء يستند الى ولاية عامة والافتاء مبنى على كفاءة علمية . يدرس القاضى القضية =

ونقول هنا : بدأ الفتيا مع الاسلام فقد أذن الرسول الاكرم فى حياته لبعض اصحابه الكرام بالفتيا ولكن العبء الاكبر والأهم من هذا العمل كان على عاتقه عليه الصلاة والسلام . ذكر البخارى فتاواه صلى الله عليه وسلم فى أبواب متفرقة من كتاب العلم . وقد تقدم الفتيا تقدماً ملحوظاً فى عهد كل من ابى بكر وعمر رضى الله عنهما .

ولما كانت الفتيا مؤسسة علمية فلتحقيق الغاية المنشودة منها كان لا بد أن تسند الى شخص يستطيع القيام بهذه المهمة العلمية والا تسند الى اى شخص يتفق وجوده كيفما كان . فقد عنى بهذه النقطة عناية خاصة فى عهد الرسول وخلفائه الراشدين فلم يؤذن بالفتيا الا لمن كانت فيه الكفاءة .

واول من أذن له الرسول عليه الصلاة والسلام بالفتيا هو سيدنا ابو بكر رضى الله عنه ولم يكن يفتى أحد بحضره غير ابى بكر وفى خلافة سيدنا عمر

= التى تعرض عليه ويصدر حكمه فيها بحسب ما يظهر له من الأدلة وحجاج الطرفين ولذلك قال عليه السلام : « إنكم تختصمون الى ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فمن قضيت له بشىء من حق أخيه فلا يأخذه انما أقتطع له قطعة من النار » دل ذلك على أن القضاء يتبع الحجاج وقوة اللحن [= البيان] . وأما المفتى فيذكر حكم الشرع فى الحادثة حسبما يصفها المستفتى دون أن يدرسها ويحققها . ففتوى المفتى بيان علمى محض ليس له طابع الالزام وللمستفتى كامل الحرية فى القضية المتنازع فيها إن شاء أخذ بالفتوى وإن شاء لجأ الى القضاء .

وصفوة القول فى بيان الفرق بين القضاء والفتيا ان حكم القاضى ملزم لان عمله مبنى على ولاية عامة وفتوى المفتى غير ملزمة لان عمله مستند الى كفاءة علمية . وبعبارة اخرى : « حكم القاضى إنشاء وإلزام وفتوى المفتى بيان وتبليغ فالقاضى منشىء والمفتى مترجم »

الاحكام لشهاب الدين القرافى ص ٣٦

رضى الله عنه قام بالفتيا أمثال على وعثمان ومعاذ بن جبل وعبد الرحمن بن عوف وابى بن كعب وزيد بن ثابت وأبى هريرة وأبى الدرداء رضى الله عنهم ممن أذن لهم الخليفة بالفتيا . ومنع عمر من تصدون للفتيا بدون اذن منه .

وفى الدول الاسلامية التى قامت بعد الخلفاء الراشدين عين المفتون ليقوموا بحل المشاكل التى تحدث بين الجمهور وقد عملت الدولة العثمانية ايضاً منذ قيامها بهذه السنة الحسنة حيث عهد السلطان عثمان بانى الدولة العثمانية أمر الفتيا الى حميه العالم الكبير والصوفى الجليل الشيخ « إدبالى » وبعد وفاته قام مقامه صهره الفقيه طورسون فى الفتيا والتدريس . ولم يكن يقوم بهذا العمل العلمى الخطير فى الدولة العثمانية اى عالم كائنا من كان فكان لا بد أن يؤذن له من الجهة المختصة . ومن أجل هذا كان المفتى سواء أكان فى العاصمة او البلاد التابعة لها يعين من مركز الحكومة ويعنى كل العناية بأن يختار للفتيا الاعلم والافقه والاروع من بين العلماء . وانا لندرك مبلغ هذه العناية بمجرد الاطلاع على تراجم العلماء الذين تولوا الفتيا فى مركز الحكومة او البلاد التابعة لها .

وكان مفتى العاصمة يسمى «مفتى الانام» واما البلاد والاقاليم فكان مفتوها يسمون « المفتى » فقط ثم لقب « مفتى الانام » بعنوان « شيخ الاسلام » واول من تولى منصب الافتاء بهذا العنوان الجليل هو المولى محمد شمس الدين الفنارى(١) فى عهد السلطان مراد الثانى .

---

(١) ولد سنة ٧٥١ هـ فى قرية « فنار » وقرأ على المولى علاء الدين الاسود والمولى جمال الدين الآقسرائى ولما سافر الى الحجاز لاداء فريضة الحج مر بمصر فاكرمه السلطان مؤيد واستفاد من علمائها بحضر دروس اكمل الدين البابرتى صاحب العناية شرح الهداية وكان من زملائه السيد الشريف الجرجانى ومحمود بدر الدين السيماوى والحاج باشا الحكيم . ولما عاد الى بلاده ولى قضاء بروسه =

العلماء الذين تولوا منصب الافتاء ومشيخة الاسلام فى عهد السلطان محمد الفاتح :

فخر الدين العجمى(١) والمولى خسرو(٢) والمولى الكورانى(٣) .

ألفتيا مؤسسة اسلامية ونافعة جداً ليس لها مثيل فى أى دولة اخرى

=ودرس بمدرسة مناستر سنة ٨٢٨ هـ وكان رحمه الله عالماً كبيراً وزاهداً ورعا وقدر فيه هـذه المزايا السلطان مراد الثانى فعطف عليه واختاره مستشاراً له . توفى سنة ٨٣٤ هـ ودفن فى بروسه وله مؤلفات قيمة منها «فصول البدايع فى اصول الشرايع» فى اصول الفقه ، وتفسير سورة الفاتحة ، انموذج العلوم . شرح السراجية فى الفرائض.

(١) فخر الدين العجمى من أشهر علماء عهد الفاتح اخذ العلم من السيد الشريف الجرجانى بايران ولما قدم البلاد العثمانية عين مساعداً (معيدا) بمدرسة بروسه واشتغل بالتدريس فى بعض المدارس ثم تولى الافتاء فى عهد السلطان مراد الثانى سنة ٨٣٤ هـ وكان رحمه الله زاهداً متقشفا فقد اراد السلطان مراد ان يزيد مرتبه فرفضه قائلا : « بيت المال حلال ولكن الزائد على الحاجة والكفاية ليس بحلال» وكان له باع طويل فى علم الحديث وقد كسب احترام الفاتح لما اتصف به من الاستقامة والكمالات العلمية والخلقية والصلابة الدينية . وله فضل مشكور فى القضاء على النزعة الحروفية التى ابتدعها المدعو فضل التبريزى وأخذ ينتشر فى البلاد العثمانية وكاد يميل اليها بعض الشخصيات البارزة فى الدولة . توفى سنة ٨٦٥ هـ ودفن فى مقبرة مسجد دار الحديث بأدرنه وقام بالفتيا زمنا طويلا يزيد على ثلاثين سنة .

(٢) سبقت ترجمته فى ص ١٠٢ — ١٠٣

(٣) هو شمس الدين احمد بن اسماعيل الكورانى ولد فى « كوران » أخذ العلم عن علماء مصر فأجازه ابن حجر العسقلانى ولما مر المولى يكان بمصر فى عودته=

ومجتمع آخر غير الدول الاسلامية والمجتمع الاسلامى والحاجة اليها ظاهرة ملحة فان الانسان الذى يعيش فى حالة الاجتماع يحدث مع اخيه الانسان شتى المناسبات وليس لكل شخص أن يعلم ـ ولو كان المفروض فيه العلم ـ أحكام هذه المناسبات حتى الذين يزعمون لأنفسهم معرفتها ولم يعد تعليمهم مرحلة الابتدائى ، لا يستطيعون أن يحددوا حكم كل معاملة كما أن الاحاطة بأحكام العبادات ليست سهلا ولا يشذ عما ذكرناه المسلمون الذين عنى دينهم بالعلم أكثر من أى دين آخر وخصه باسمى مكانة فى المجتمع الاسلامى حتى قرر فيما قرر من مبادئه مبدأ «ليس الجهل عذراً فى دار الاسلام» ، وحرص على تطبيقه كل

= من الحجاز لقى صاحب الترجمة فاعجب بعلمه فأخذه معه الى عاصمة الدولة العثمانية. ولما قابل السلطان مراد الثانى قال له : هل أتيت الينا بهدية من الحجاز ؟ قال نعم ، معى رجل فاضل عالم كامل فقيه مفسر محدث بارع فى العلوم . قال : أين هو ، قال بالباب ، فأرسل اليه السلطان فدخل عليه وسلم وتحدث معه ساعة فرأى فضله واعطاه مدرسة جده السلطان مراد الاول فى بروسه ثم جعله معلما لولده الامير محمد [السلطان محمد الفاتح] ولما أصبح الامير سلطانا اكرم استاذه غاية الاكرام حتى عرض عليه الوزارة فاعتذر عن عدم قبولها وانما قبل قضاء العسكر سنة ٨٥٥ هـ وقام بأعباء منصبه بنزاهة وكفاءة وصلابة لا تعرف اللين وقد فترت الصلة بينه وبين السلطان محمد الفاتح بعض مدة فرحل المترجم له الى مصر ورحب به سلطانها السلطان قايتباى وبالغ فى اكرامه ثم لم يلبث أن رضى عنه الفاتح فدعاه الى استانبول مرة اخرى فأجاب الدعوة وقلده قضاء بروسه سنة ٨٦٢ هـ ثم الفتيا سنة ٨٨٥ هـ وتوفى الى رحمة الله سنة ٨٩٣ هـ فحضر السلطان جنازته تنفيذاً لوصيته . ومن مؤلفاته : « غاية الامانى فى تفسير السبع المثانى » و « الكوثر الجارى على رياض البخارى » وكان رحمه الله يصدر فتاواه بقوله : الله الهادى عليه اعتمادى » ويضع جملة « العلم عنده » بدل « الله اعلم » قبل الجواب . كما يؤخذ ذلك من النماذج الموجودة فى « علميه سالنامه سى » [= دليل المعاهد الدينية لسنة ١٣٣٤ هـ]

الحرص كدستور لايتغير ، فانهم ، مثل غيرهم ، حاجتهم ظاهرة وماسة الى معرفة الاحكام المشار اليها ممن يعرفونها وليس فى الاستطاعة سد هذه الحاجة بوساطة القضاء . فان القضاة مع عدم اشتغالهم بالمسائل الخاصة بالعبادات فليس من صالح الحكومات ولا الافراد أن يقال لهم فى قضايا المعاملات : « دونكم المحكمة » فإن هذه الطريقة تؤدى بالمجتمع الى حالة خطرة ضارة جداً يعسر علاجها لا سيما فى بيئة إدارية تنشر العدالة بالمال . وفى العهود التى كان للفتيا مكانها ومكانتها فى الدولة والمجتمع كان المتنازعون فى قضية يرجعون الى المفتى ومنه يعلمون حكمها وبموجبه يحلون مشكلهم فيما بينهم . وكان من النادر أن يرجع شخص الى المحكمة ويتحمل المصاريف التى هو احوج اليها اذا اقتنع بخطئه واكثر الذين كانوا يلجأون الى المحكمة هم الذين كانوا يظنون أنهم على حق . ولهذه الاسباب كان الرجوع الى المحاكم لايقع إلا فى القليل النادر . ولا شك أن ما كان عليه الافراد من حسن الخلق وأخذهم بمبدأ الاعتراف بالحق لهما أثر كبير فى ذلك .

وصفوة القول : أن المفتيين كانوا يعملون على احقاق الحق وتحقيق العدالة فى الظروف والملابسات التى ذكرناها والحاجة ماسة الى إحياء هذه المؤسسة فى وقتنا الحاضر . فلنفرض أن شخصاً وقع أمام حادث من حوادث المجتمع لا يعرف حكمه أو أن هناك قضية ميراث او وقف لا يدرى حكمها ايضاً فالى من يرجع هذا الشخص لمعرفة الحكم ؟ وممن يعرفه ؟ نعم فى الامكان أن يعرفه من استاذ فى الفقه والقانون أو محام ولكن فى مقابل جعل كبير وليس فى استطاعة الجمهور الذى معظمه فقراء أن يدفع الجعل المطلوب مع العلم بأن المفتيين كانوا يجيبون هذه الاسئلة بدون مقابل وكان المهم تنشئة مفتيين فى مستوى من العلم والخلق يبعث الى النفوس الثقة والاطمئنان . وفى عهد الفاتح وماوليه من العهود تحقق هذا المهم حيث نشأ مفتون يوثق بهم من جميع الوجوه .

الفصل الرابع

القوانين والنظم فى عهد العثمانيين والفاتح

الى هنا حاولت أن ابين أنواع السلطات القضائية والهيآت التى اسندت اليها هذه السلطات ولعل القراء الكرام قدكونوا فكرة عنها . اما الآن فسأحاول أن ابين اجمالا ماكان موجوداً فى عهد العثمانيين والفاتح من النظم والقوانين التى تتناول المناسبات الحقوقية بالبحث والتنظيم فاذا أخضعنا تلك القوانين لنظام الترتيب ، رتبناها كالآتى :

١ — القوانين الخصوصية
٢ — قانون الوقف
٣ — « الاراضى
٤ — « العقوبات
٥ — « الادارة
٦ — القوانين العامة
٧ — قانون الحرب

واما القوانين المقول إنها «قانون الفاتح» فسنتكلم عليها فى آخر الكتاب كما أشرنا اليه فى المقدمة .

لما كانت الدولة العثمانية دولة إسلامية إتخذت الشريعة الاسلامية دستوراً عملت به فى كل شىء وكانت الشريعة الاسلامية كفيلة بتنظيم الواجبات والحقوق سواء أكانتا بالنسبة للافراد أم الجماعات . فان الشريعة التى تشتمل ـ عدا الاحكام الأساسية المنصوص عليها فى الكتاب والسنة ـ على قواعد عامة اخرى مثل : «المشقة تجلب التيسير» و «يختار

أهون الشرين » و « الضرورات تبيح المحظورات » و « الحاجة تنزل منزلة الضرورة عامة أو خاصة » و « يتحمل الضرر الخاص لدفع ضرر عام » و « ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب » و « طاعة اولى الامر واجبة فى أوامره المشروعة » و « التصرف على الرعية منوط بالمصلحة » إلى غيرها من المبادىء العامة ؛ لجديرة بألا يعترض سبيلها أى صعوبة فى حل المشاكل الاجتماعية أو الفردية . وإنما يكفى أن يكون من يتصدى لحلها نافذاً الى روح هذه النصوص والقواعد . وما أحسن الامام الشاطبى فهماً لروح الاسلام وأبلغه بياناً حين قرر قائلا : « الشريعة مصلحة » (١)

---

(١) لاشك ان المراد من المصلحة ماوافق قصد الشارع وروح الاسلام لاما لاءمت أهواء النفوس وشهواتها ولا سيما أهواء من نصبوا العداء للاسلام ونادوا بتقليد الغرب فى كل شىء . كما لا حاجة الى التنبيه على ان كون المصلحة مصلحة من قبل الشارع لامجال للعقل فيه كما هو رأى الأشاعرة . وقد صرح بذلك كله الامام الشاطبى فى كتابه « الموافقات » ونحن ننقل منه بعض نصوص فى هذا الموضوع لكى نفهم أقواله بعضها مع بعض .

قال رحمه الله فى سياق تقرير القاعدة القائلة : إن كل أصل شرعى لم يشهد له نص معين وكان ملائماً لتصرفات الشرع ومأخوذاً معناه من أدلته فهو صحيح يبنى عليه ويرجع اليه اذا كان ذلك الاصل قد صار بمجموع أدلته مقطوعاً به . . . . . : « لا يقال : يلزم على هذا إعتبار كل مصلحة موافقة لمقصد الشارع أو مخالفة وهو باطل . لأنا نقول لابد من اعتبار الموافقة لقصد الشارع لان المصالح انما اعتبرت مصالح من حيث وضعها الشارع كذلك حسبما هو مذكور فى موضعه من هذا الكتاب

الموافقات ج ١ ص ١٧ طبع منير الدمشقى

وقال : والرابع أن المصالح التى تقوم بها أحوال العبد لايعرفها حق معرفتها إلا خالقها وواضعها وليس للعبد بها علم إلا من بعض الوجوه والذى يخفى عليه منها أكثر من الذى يبدو له فقد يكون ساعياً فى مصلحة نفسه من وجه لا يوصله اليها =

وإذا تركنا الأحكام المتعلقة بالشئون العامة والادارية جانباً ووقفنا على الاحكام الاخرى لانجد صعوبة فى تفهم الاسباب التى من أجلها احتلت تلك الاحكام فى قلوب الامة الاسلامية مكانة لا تزول ، ولا فى ادراك الوسائل التى كفلت القدرة والحيوية فى بنيان المجتمع .

=أو يوصله اليها عاجلا لا آجلا أو يوصله اليها ناقصة لا كاملة أو يكون فيها مفسدة تربى فى الموازنة على المصلحة فلا يقوم خيرها بشرها وكم من مدبر أمراً لايتم له على كماله أصلا ولايجنى منه ثمرة أصلا وهو معلوم مشاهد بين العقلاء فلهذا بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين فاذا كان كذلك فالرجوع الى الوجه الذى وضعه الشارع رجوع الى وجه حصول المصلحة ... بخلاف الرجوع الى ما خالفه ... الخ

الموافقات ج ١ ص ٢٤٣ — طبع منير الدمشقى

وقال : وكل قصد يخالف قصد الشارع باطل .

الموافقات ج ٢ ص ٨٦ — طبع منير الدمشقى

وقال : المقصد الشرعى من وضع الشريعة إخراج العبد المكلف عن داعية هواه حتى يكون عبد الله اختياراً كما هو عبد الله اضطراراً . . . وذكر فى سياق الاستدلال على ذلك : والثالث ما علم بالتجارب والعادات من أن المصالح الدينية والدنيوية لا تحصل مع الاسترسال فى إتباع الهوى والمشى مع الاغراض لما يلزم فى ذلك من التهارج والتقاتل والهلاك الذى هو مضاد لتلك المصالح وهذا معروف عندهم بالتجارب والعادات المستمرة . ولذلك اتفقوا على ذم من اتبع شهواته وسار حيث سارت به .... فهذا أمر قد توارد النقل والعقل على صحته فى الجملة وهو أظهر أن يستدل عليه واذا كان كذلك لم يصح لاحد أن يدعى على الشريعة أنها وضعت على مقتضى تشهى العباد وأغراضهم .

الموافقات ج ٢ ص ١١٤—١١٦ طبع منير الدمشقى

وقال : ان وضع الشريعة اذا سلم أنها لمصالح العباد فهى عائدة عليهم بحسب أمر الشارع وعلى الحد الذى حده لا على مقتضى أهوائهم وشهواتهم ولذا كانت التكاليف الشرعية ثقيلة على النفوس والحس والعادة والتجربة شاهدة بذلك فالأوامر=

إن مجموعة نظم ومبادىء تهدف الى أمن المجتمع وسلامته وحرية الافراد وصيانة أموالهم وأرواحهم وأعراضهم ، وتأمر بحماية الضعيف والاستقامة فى كل شىء والتعاون على البر والتقوى ؛ هل يشك فى أن هـذه النظم تؤدى الى أحسن النتائج وتضمن أكفل الوسائل بسعادة الانسان اذا احسن تطبيقها ؟

لقد بلغ المجتمع الاسلامى الذروة من العلى والقمة من المجد والعزة وتمتع المسلمون أفراداً وجماعات بالرفاهية والسعادة اذ كانوا يعملون بهذه النظم والمبادىء . وهووا مهاوى الذل والشقاء حين تركوا العمل بها .

وقد تطورت القوانين الخصوصية وقانون الوقف وقانون العقوبات تطورا كبيرا حتى بلغت درجة الكمال بفضل الجهود التى بذلت سنين عديدة . وكانت تشتمل على الاحوال الشخصية وحقوق الاسرة والميراث والتملك بجميع فروعها وتفاصيلها وعلى أنواع العقود والمعاملات والواجبات مستندة

= والنواهى مخرجة له عن دواعى طبعه واسترسال اغراضه حتى يأخذها من تحت الحد المشروع وهذا هو المراد وهو عين مخالفة الأهواء والأغراض .

الموافقات ج ٢ ص ١١٧ طبع منير الدمشقى

وقال . والخامس ان كون المصلحة مصلحة تقصد بالحكم والمفسدة مفسدة كذلك ممـا يختص بالشارع لامجال للعقل فيه بناء على قاعدة نفى التحسين والتقبيح فاذا كان الشارع قد شرع الحكم لمصلحة ما فهو الواضع له مصلحة والا فـكان يمكن عقلا أن لا يكون كذلك اذ الاشياء كلها بالنسبة الى وضعها الاول متساوية لا قضاء للعقل فيها بحسن ولا قبح فاذاً كون المصلحة مصلحة هو من قبل الشارع بحيث يصدقه العقل وتطمئن اليه النفس فالمصالح من حيث هى مصالح قد آل النظر فيها الى انها تعبديات وما إنبنى على التعبدى لا يكون الا تعبدياً .

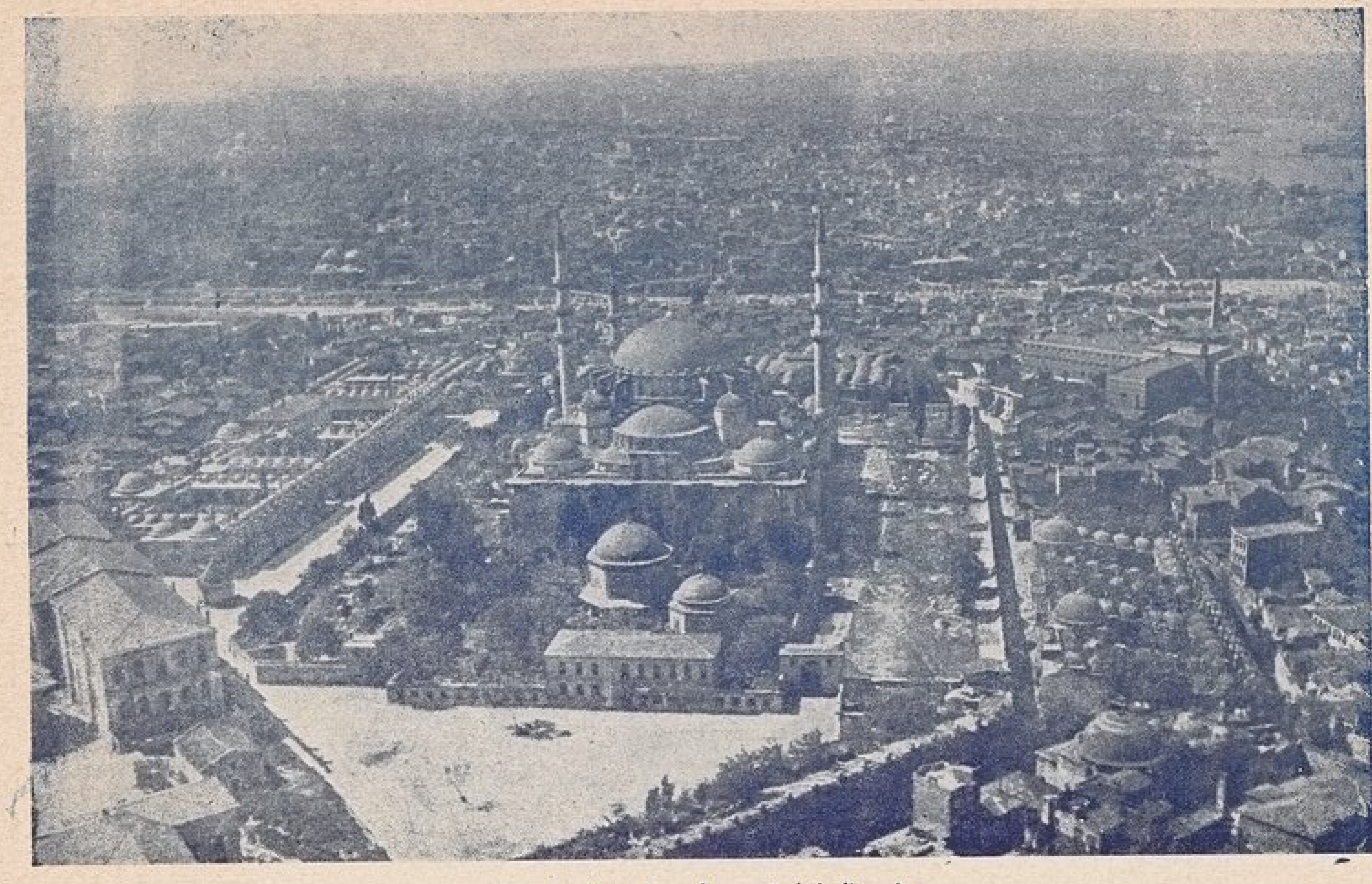
الموافقات ج ٢ ص ٢١٩ـ طبع منير الدمشقى

فى كل هذه الى أرقى ما وصل اليه العقل من النظم والاحكام . كما كانت حقوق وواجبات الافراد والجماعات بعضها نحو بعض واحكام القضاء والتنفيذ وقوانين الحرب والقوانين الدولية التى تستند أكثر ما تستند الى العهود والمواثيق . كان كل هذه القوانين فى متناول الفقه الاسلامى بحثا بحثا وافيا وقرر أحكامها تقريرا شاملا فى حين أن الغرب على الرغم من كثرة ما بذل من الجهود طوال العصور لم يصل بعد الى قانون علمى معقول اكثر نفعا من الفقه الاسلامى بل انه لم يملك نفسه من التقيد باحكام مخالفة للحقوق الطبيعية تحت تأثير القوانين البدائية والعادات غير المعقولة مثل قوانين اليونان والجرمن وروما . كقبوله مثلا مبدأ توحيد المال وتفريقه بشكل يناقض وما يقتضيه الاستقلال الشخصى من الحرية فى التصرف ، وتقييد بعض تصرفات المرأة ، وأيلولة ايراد أموال الاطفال الى الآباء والامهات ، والاتفاق على تنازل الوارث عن حقه فى حياة المورث ، واسقاط حق الوارث فى الميراث كحيلة لانقاذه من الدائنين ، وتقسيم الورثة الى صحيح النسب وغير صحيحه فى الميراث ، ووضع الوالدين فى الدرجة الثانية فى الميراث ، واحداث حق الانتفاع فيه ، والتمسك بمبدأ زوجة واحدة على الاطلاق من غير أن يحسب حساب للاحوال الضرورية التى تبرر تعددها ، وما أشبه ذلك من الاحكام المخالفة لحقوق الفرد وقواعد الميراث والاخلاق والشعور العام ، المتجافية ومصالح الفرد والمجتمع وإنا نترك تفصيل هذه الاحكام ونقدها إلى كتب الحقوق مجتزئين باشارة بسيطة اليها .

الوقف :

ان الغرض الاصلى الذى يهدف اليه الوقف مساعدة الانسان من مختلف النواحى فهو إذن مؤسسة اجتماعية غايتها نفع المجتمع بشتى الطرق والوسائل .





جامع السليمانية ومدارسها وسائر ملحقاتها

والواقع الذى لا سبيل الى انكاره ان الوقف أنقذ ـ ولا يزال ـ كثيرا من الاسر والذرارى أن تقع فريسة الفقروصانها من ذل المسألة والعوز وأسدى ـ ولايزال ـ الى العلم والمعرفة والعجزة والمعوزين والشئون البلدية والصحية والأشغال خدمات كانت هى من واجبات الحكومات وبذلك خدم الوقف الحكومات أيضا عن طريق غير مباشر .

ومنع بمساعداته المتنوعة الجهل والفقر والفوضى أن تنتشر فى المجتمع . وما نشاهده الآن من ألوف المساجد والمدارس والمطاعم الخيرية المنتشرة فى ربوع البلاد ، ومن القناطر وجداول المياه والعيون الجارية والأسبلة والمستشفيات ودور الكتب والضيافة والطرق المعبدة والجبانات كل هذه آثار خالدة تنطق بما أدى ولا يزال يؤديه الوقف للانسانية من الخدمات المشكورة .

على أن كثيرا من هذه الآثار تعد مفخرة قومية نفخر بها فى ميادين العلم والفن والصناعة . فانظر اذا شئت الى جامع السليمانية كيف أنه بمآذنه الالهية السامية بعقيدة التوحيد نحو السموات العلى ، يضفى على جمال استانبول جلالا يأخذ بالالباب ويجعل الانسان واقفا أمامه فى خشوع واجلال يردد قوله تعالى : « لم يخلق مثلها فى البلاد » .

وانظر كذلك إلى سبيل السلطان احمد هذه القطعة الفنية الرائعة كيف تشهد بما بلغه فنانونا من دقة الصنعة والذوق الفنى الرفيع البديع . والى المدارس ودور الكتب كيف تنطق بما كان لنا من النهضة العلمية والنشاط الفكرى . والى دور الشفاء والضيافة العديدة كيف أنها تماثيل أقامها اجدادنا تمثل أجمل مافى الانسانية من عاطفة الرحمة والحنان . والى غيرها وغيرها من الآثار الخالدة المنتشرة فى طول البلاد وعرضها أفلا نراها ونشاهدها حتى الآن بعين الفخر والمباهات ونشعر إزاءها بالزهو القومى ؟

الاراضى :

من المفيد جداً ونحن فى سبيل الشروع فى قانون الاراضى أن نلم بتاريخ التملك إلمامة يسيرة تساعدنا على فهم النظم المتبعة فى إدارة الأراضى خصوصاً فى الدولة العثمانية .

يؤخذ مما يرويه التاريخ أن التملك فى العصور الخالية كان جارياً على النظام الاشتراكى القبَلى بحيث كانت الاراضى وسائر الاموال مشتركة بين أفراد القبيلة ذات اليد ينتفعون بها شائعة بينهم واذا رحلت القبيلة من الأرض التى كانت عليها بقيت الارض من غير مالك حتى تأتى قبيلة أخرى فتحتلها وتكون ملكا لها .

وكان التملك فى مبدأ ظهور الاسلام جارياً على أساس التملك الشخصى وقد احترمت الشريعة الاسلامية مبدأ التملك وحق المالك فى التصرف فى ملكه احتراماً بالغا الغاية فالارض التى بنى عليها المسجد النبوى بالمدينة المنورة كانت ليتيمين فنزلا عنها الى الرسول صلى الله عليه وسلم فلم يقبلها الا بعد أن دفع الثمن . واما نزع الملكية فلم يكن يلجأ اليه مالم تكن هناك ضرورة تقتضيه فقد بلغ عمر رضى الله عنه أن والى الشام نزع ملكية بيت يهودى بدون رضاه لتوسيع مسجد فكتب اليه يؤنبه ويوعده قائلا : «انا أعدل من أنوشيروان» مشيراً بذلك الى قضية تجلت فيها العدالة بشكل لم يصادف مثله فى التاريخ .

ومن أحكام الشريعة الاسلامية أيضاً أن الاراضى التى تستولى عليها الدولة عنوة ملك المجتمع يتصرف فيها ولى الامر وفقاً لما تقتضيه المصلحة فاذا أراد ـ أى رأى من المصلحة ـ أقطعها للاهالى اطلاقا ، وفى مقابل العشر او الخراج ، أو يفوضها اليهم فى مقابل أجر [مقاطعة] على أن تبقى رقبتها لبيت المال وفى مبدأ الاسلام كان تفويض الاراضى على الطريقتين المذكورتين . ولكن المفهوم أن التمليك هو الاصل واما التفويض مع بقاء الرقبة لبيت المال فكان بناء على الحاجة فان الأراضى المتروكة الرقبة

لبيت المال كانت تعطى للمحتاجين الى الارض فى مقابل جزء من محصولاتها او اجرة محدودة يدفعها الزارع وتبقى الارض فى تصرفه الى أن يموت . وكان معظم الاراضى التى تملك الدولة رقبتها تتألف من الاراضى التى لا مالك لها والاراضى التى يملكها حاكم البلد المفتوح قبل الفتح وأراضى المقتولين فى الحرب والاراضى التى تستجد بتجفيف المستنقعات والبرك وما أشبهها فكانت هذه الاراضى تفوض الى المحتاجين من الزراع فى مقابل العشر او أجر محدود يسمى « مقاطعة » ويستوفى سنوياً .

وعند ما تفتح أرض ما ، كانت تخطط قبل كل شيء فتحدد مواضع الطرق والميادين والاسواق والمراعى وغيرها من المرافق العامة . وقد اتبعت الدولة العثمانية فى الاراضى التى فتحوها سواء أكانت فى الاناضول ام فى الروملى قاعدة التفويض وترك الرقبة للدولة فهى التى تولت إدارتها من أول الامر ولذلك وضعت مختلف النظم واللوائح فى ادارة الاراضى على حسب مقتضيات الاحوال والظروف وآخر هذه القوانين وضع سنة ١٢٧٤ هـ وادخلت عليها تعديلات كثيرة من حين الى آخر حتى الغيت بالقانون المدنى الذى يعترف بمبدأ تمليك الرقبة .

ومنذ قامت الدولة العثمانية عنيت اكثر ما عنيت بالجندية وما يتصل بها من النظم والقواعد محافظة على كيانها ودفاعا عن سلامتها كما عنيت بالاراضى التى لها صلة وثيقة بالجندية حسب التشيكلات العسكرية فوضعت اصول ادارتها فى عهد السلطان اورخان بمعرفة أخيه الكبير ووزيره علاء الدين باشا والعالم الكبير خليل الاسود الجندرى ثم توسع فيها فى عهد السلطان سليمان القانونى بموجب الفتاوى التى أصدرها مفتى الانام ابو السعود العمادى حيث وضع القانون المسمى « القانون السليمانى » المشتمل على كثير من الاحكام والقواعد(١) .

---

(١) توجد هذه الفتاوى فى الكتب المخطوطة التى تضمها دور الكتب وفى مجموعة فتاوى أبى السعود و « ملى تتبعلر مجموعه سى » (= مجلة البحوث الشعبية) .

وبناء على هذه الضرورة ايضا احصيت كل ما كان فى البلاد العثمانية من القرى والمزارع والمراعى والغابات والمصايف والمشاتى وما إليها من سائر الاراضى مع بيان الجهات التابعة لها إحصاءآ دقيقا من أول عهد الدولة الى عهد الفاتح وفى عهد كل من السلطان سليمان القانونى والسلطان مراد الثالث بشكل أوسع ودونت هذه الاحصاءات فى سجلات توجت بخط السلطان وطغرائه [= الطرة]

وسجلات الاحصاء هذه البالغ عددها سبعين وتسعمائة سجل كانت فى الاول محفوظة فى مخازن محكمة بعناية كبيرة كما أسلفنا الاشارة اليه اما اليوم فتحفظ فى محكمة النقض [=التمييز] بداخل دواليب زجاج فى عهدة موظف .

وتتضمن هذه السجلات إحصاءات عن القرى والمزارع والمراعى والغابات وأمثالها من الاراضى وعن الجهات التابعة لها ، وأما الاراضى التى كانت فى عهدة الاشخاص فكانت مدونة فى سجلات «السپاهية» فانهم وان كانوا ينتمون الى الجيش فمع ذلك كانوا يقومون بأعمال تسجيل الاملاك والاراضى وحفظ الامن ويشرفون على شؤون الزراعة أيضا . وليس بين أيدينا الآن اى سجل من سجلات «السپاهية» التى لها أهمية كبرى من الوجهة التاريخية(١) وانما يعثر من حين إلى آخر على سندات السپاهية فى حيازة بعض أشخاص .

---

(١) يؤخذ من « ملى تتبعلر مجموعه سى » [= مجلة البحوث الشعبيه] التى أصدرها المرحوم المؤرخ عبد الرحمن شرف (بك) أن هناك مخازن مليئة بالوثائق التاريخية لم تفتح أبوابها منذ سنين طويلة . ولعله يعثر فيها على هذه السجلات القيمة ولكن ذلك متوقف على اهتمام إدارة التسجيل بهذا الموضوع التاريخى .

ذكرنا آنفا أن ادارة الاراضى كانت متروكة الى الدولة حسبما اقتضته الظروف ومن جراء ذلك وجدت فى البلاد العثمانية خمسة أنواع من الاراضى نتيجة لمختلف التصرفات ونحن نذكر الانواع الخمسة فيما يلى :

١ — الاراضى المملوكة
٢ — « الأميرية
٣ — « الموقوفة
٤ — « المتروكة
٥ — « الميتة

النوع الاول : الاراضى المملوكة :

هى الاراضى التى يتصرف فيها ملاكها أنواع التصرفات الملكية بدون اذن من الموظف المختص بشؤون الاراضى . وكان هذا النوع من الاراضى اربعة أقسام :

١ — قطع الارض الكائنة فى المدن والقرى . وما كان فيهما من المرافق التى يتوقف عليها الانتفاع بالدور والمبانى ولا تتجاوز مساحتها نصف «دونم»[1]

٢ — الاراضى التى كانت أميرية ثم ملكتها الدولة شخصا على أن يتصرف

---

(١) هذا ؛ ولا يكون مجرد وجود أرض فى المدينة أو القرية سبباً لكونها ملكا فلابد أن تكون من الاراضى الميتة فى الاصل ثم أحييت على أن تكون ملكا عند إنشاء المدينة أو القرية ، أو تكون قد ملكت من قبل الدولة للاهالى . بيد أن قطع الارض الكائنة فى المدن والقرى القديمتين وجرى فيها التصرف على أنها ملك ، تعتبر ملكا . وأما الاراضى التى كانت أميرية ورخص بانشاء قرية عليها أو مدينة فى مقابل اجر ربطت به ، فتظل أميرية .

دونم قسمان : قديم وجديد . فالقديم : أربعون ذراعا معمارياً مربعا . والجديد : مائة متر مربع .

فيها جميع التصرفات الملكية وذلك بناء على مساغ شرعى(١)

٣ — الاراضى العشرية وتسمى أراضى الصدقة هى الارض التى يملكها أصحابها وتستوفى الدولة من محصولاتها العشر ولا يسقط العشر حتى ولو وقفت الارض .

٤ — الاراضى الخراجية ، وهذا القسم من الاراضى ملك ايضاً كالاراضى العشرية . والخراج هو الضريبة وهو قسمان : خراج مقاسمة وخراج وظيفة ، فخراج المقاسمة هو الضريبة التى تستوفى من الخارج من الارض بواقع العشر الى النصف حسب طاقة الارض وخراج الوظيفة هو الضريبة المقررة على الارض نفسها والمستوفاة سنوياً .

النوع الثانى : الأراضى الاميرية :

هى الاراضى التى تفوض الى الافراد ورقبتها لبيت المال كالحقول والمروج والمصايف والمشاتى والغابات العامة والخاصة .

وكانت الاراضى العشرية والخراجية اذا مات ملاكهما بدون وارث ولا وصية صارتا أميرية وكذلك الاراضى التى تغرس فيها الاشجار مثل الحدائق والكروم والتى تبنى فيها المطاحن ، وأرضية الحظائر والمرابض تعد من الاراضى الاميرية .

---

(١) والمساغ الشرعى الذى يبرر تمليك الاراضى الاميرية هو حاجة الخزينة الى المال أو وقاية الارض من التعطيل وانقطاع غلتها وما أشبه ذلك من الحالات . لم يكن تمليك الاراضى الاميرية صحيحاً ، من قبل أى شخص كان ، اذا لم تشتر شراء صحيحاً . الا أن هناك رأياً آخر يصح بموجبه تمليك أرض من اراضى الخزينة لمن يكون لهم استحقاق فى بيت المال كمشوهى الحرب المحتاجين أو الذين سبقت لهم خدمات مادية أو علمية وأدبية للدولة والمجتمع .

وكانت جماعة السپاهية يقدمون مساعدات كثيرة لشئون الزراعة لان عشر الاراضى وايرادها كانت لهم ومن أجل ذلك ما كانوا يتركون أرضاً غير مزروعة . ويصرفون تقاوى لمن ليست لهم تقاوى ويعطون مواشى لمن لم يملكوها وكان لهم مركز محترم فى المجتمع فانهم كانوا سليلى اسر عريقة فى المجد فجمعوا الى صفتهم العسكرية الرسمية أصالة النسب وشرف المحتد وكان الشعب يحترمهم ويجلهم وانهم يقابلون هذا الشعور بالمثل فيحمونه من العاديات ويعطفون عليه ويحسنون معاملته . ولا تزال لهم فى المدن والقرى ذكريات جميلة يرددها الشعب بالتقدير والإعجاب .

كانت الاراضى توزع على المحتاجين اليها وفى حالة وفاة المتصرفين او تركهم الارض وتعطيلهم إياها صارت « محلولة » ولاتؤول الى أولادهم وسائر ورثتهم مجاناً . واستمر العمل بهذا النظام الى سنة ٩٧٥ هـ وفيها وضع قانون بموجبه كانت الارض تؤول الى أولاد المتوفى الذكور مجاناً والى أولاده الإناث فى مقابل بدل يسمى [طاپوى مثل] (١) واذا لم يكن للمتوفى أولاد تؤول اليهم الارض آلت اولا الى ورثته الذين يؤول اليهم ما على الارض من عقار ومبان وأشجار مما يتصرف فيه تصرفاً تبعياً . وثانياً الى الشريك والخليط . وثالثاً الى المحتاجين الى الارض من أهل القرية

---

(١) « طاپو » هو الرسم الحكومى الذى يستوفى مقدما فى مقابل منح حق التصرف فى الارض ويستوفيه الموظف المختص حين اجراء المعاملة اللازمة ويطلق ايضا على الوثيقة التى تثبت حق التصرف . وأما [طاپوى مثل] فهو مايحدده الخبراء الخالون من الاغراض من الرسم المار الذكر . ولا فرق بينه وبين بدل المثل الا أن « طاپوى مثل » هو الرسم المثلى المعجل الذى يستوفى حين تحويل الارض الى من سيتصرف فيها وبدل المثل هو الرسم المثلى المعجل المستوفى ممن ترسو عليه الارض فى المزايدة وبهذا الاعتبار يفترقان .

وذلك فى مقابل [طاپوى مثل] يستوفى من الذين تؤول اليهم الارض . وأخيراً صرح بتحويل أراضى من يتوفون بلا ولد الى شقيق المتوفى وأخيه لاب فى مقابل [طاپوى مثل] ولو لم تكن على الاراضى عقارات ومبان وأشجار . وفى سنة ١٠١٠ ﻫ صرح بتحويلها الى اخت المتوفى ايضاً فى مقابل [طاپوى مثل] اذا كانت من سكان المنطقة التى تقع فيها الارض المذكورة. وبعد سنتين من هذا التاريخ شمل هذا التصريح الأخوات اللائى لسن بسواكن فى المنطقة التى توجد فيها الارض . وفى سنة ١٠١٧ صرح بتحويل أراضى الذين يتوفون بلا ولد ولا أخ الى آبائهم أولا وامهاتهم ثانياً فى مقابل [طاپوى مثل] . واستمر العمل بهذه النظم الى سنة ١٢٦٣ ﻫ وفيها قبل مبدأ انتقال أرض المتوفى او المتوفاة الى أولادهما الذكور والإناث مجاناً وعلى السواء . ونظم الانتقال على ثلاث درجات بموجب قانون الأراضى الصادر سنة ١٢٧٤ ﻫ وأبلغت ثمانى درجات بالقانون الصادر سنة ١٢٨٤ ﻫ وقد توسع فى درجات الانتقال توسعاً كبيراً بموجب قانون « انتقالات الاموال غير المنقولة » الصادر سنة ١٣٢٨ ﻫ (١)

وكانت الأراضى الاميرية فى الاول لاتنتقل الى الورثة ولكن بموجب القانون الآنف أصبح الانتقال قانوناً يعمل به اعتبارا من تاريخ صدوره .(٢)

---

(١) يراجع كتابنا المسمى « الميراث والتطبيقات »

(٢) « ثم اعلم أن اراضى بيت المال المسماة بأراضى المملكة وأراضى الحوز اذا كانت فى أيدى زراعها لا تنزع من أيديهم ما داموا يؤدون ما عليها ولا تورث عنهم اذا ماتوا ولا يصح بيعهم لها ولكن جرى الرسم فى الدولة العثمانية أن من مات عن ابن انتقلت لابنه مجانا والا فلبيت المال . ولو له بنت او اخ لاب أخذها بالاجارة الفاسدة »

رد المختار لابن عابدين

كان من الممنوع أن تعطل الاراضى وتترك من غير زرع بحيث اذا لم يزرعها من كانت فى عهدتهم ثلاث سنين او اكثر نزعت منهم وأعطيت غيرهم . وعداذلك اخذت منهم غرامة مالية باسم «چفت بوزان آقچەسى» [= غرامة معطل الحرث] .

وكان لمن تكون فى عهدتهم أراض أن ينزل عنها الى غيره ببدل وبدونه ولكن بشرط موافقة « السپاهى » المقطعة له تلك الاراضى .

والاحكام المتعلقة بمدى شمول حق التصرف كانت جارية وفقاً للاحكام الشرعية فيما اذا لم يكن هناك قانون خاص أومادة صريحة . ولمعرفة التفاصيل فى هذا الموضوع يرجع الى « القانون السليمانى » ومجامع الفتاوى ، وقانون الاراضى .

النوع الثالث : الاراضى الموقوفة :

أى الاراضى الاميرية الموقوفة . وهى ثلاثة أقسام :

الاول : وقف الضرائب الاميرية – كالعشر ورسم التسجيل – المستوفاة من الاراضى الاميرية الكائنة فى عهد الاشخاص ، على جهة ما .

الثانى : وقف حق التصرف مع الضرائب الاميرية .

الثالث : وقف حق التصرف وحده .

ففى القسم الاول تكون الضرائب الاميرية هى التى وقفت – اى خصصت او أرصدت – وفى الثانى الضرائب الاميرية مع حق التصرف ، وفى الثالث حق التصرف وحده .

وفى حالة وقف حق التصرف وحده تكون إدارة الوقف هى التى تتصرف فى الارض إما بالذات او بتأجيرها للآخر وقبض الاجرة .

وهذا القسم من الوقف أحدث اول ما أحدث من قبل وليد بن عبد الملك

سنة ٨٨ هـ حيث انشأ المسجد الاموى المعروف بدمشق فحبس عليه القرى والمزارع . (١)

وهـذه الاقسـام الثلاثة ليست وقفاً بمعناه الفقهى وانما هى حبس [= تخصيص أو إرصاد] شىء من مال بيت المـال على مصرف [= جهة] من المصارف المعترف بهـا لدى بيت المـال ايضاً . وإنمـا سميت وقفاً باعتبار دوامها .

النوع الرابع : الأراضى المتروكة

وهى قسمان :

القسم الاول هى أراض تركت ليرتفق بها الناس عامة ومنه الطرق العامة والاسواق والموانى والمصلى والمتنزهات العامة ومواقف المراكب والدواب .

القسم الثانى هى الاراضى المتروكة لسكان قرية اومدينة او لقرى ومدن متعددة من المراعى والمصايف والمشاتى والغابات ولا ينتفع بها إلا من خصصت لهم من سكان المدن والقرى .

النوع الخامس : الأراضى الموات .

وهى الارض التى ليست ملكا لاحد مسلماً كان او غير مسلم ولم تترك للاهالى عامة أو خاصة لينتفعوا بها . وتقع على مسافة نصف ساعة تقريباً من أقصى العمران ، من المناطق الجبلية والحجرية وما اليها من مواضع غير صالحة للزرع . وأما الاراضى الصالحة للزرع فلا تعد مواتاً .

---

(١) وفى عقد الجمان تفصيلات فى هذا الموضوع .

وهناك رأى فقهى لايشترط البعد عن العمران لتكون الارض مواتاً وانما المدار عنده على الانتفاع فإذا كانت الارض ينتفع بها فليست بموات وإلا فموات ولو كانت قريبة .

الأحكام المتعلقة بأنواع الاراضى والوقف صحيحه وغير صحيحه مبسوطة فى كتب الفقه وقوانين الاراضى والكتب المؤلفة فى الاوقاف . والغرض من ذكرها هنا الاشارة الموجزة الى المؤسسات الموجودة فى عهد العثمانيين والفاتح . وأما تفصيل هذه الاحكام فخارج عن موضوعنا ، فلنقف عند ما وصفنا .

قانون الجزاء

وقانون الجزاء المسمى فى الفقه الاسلامى العقوبات ، ينقسم الى حد وقصاص وتعزير. الاحكام الاساسية المتعلقة بالحد والقصاص منصوص عليها فى الكتاب والسنة لامساغ للاجتهاد فيها . والمسائل التى يسوغ فيها الاجتهاد قد بينت أحكامها باجتهاد كبار الفقهاء المجتهدين ودونت بجميع فروعها وتفاصيلها الدقيقة فى الكتب الفقهية .

أقسام الحد :

الحد ستة أقسام : حد الزنا ، حد الشرب ، حد السكر ، حد القذف ، حدالسرقة ، حد قطع الطريق . وقد شرع حدالزنا لحفظ النسب والشرف ، وحد الشرب والسكر لحفظ العقل ، وحد القذف لحفظ العرض ، وحدالسرقة لحفظ المال ، وحد قطع الطريق لحفظ الأمن فى حالة السفر .

وهدف الشارع الحكيم من وضع هذه العقوبات الصارمة الى الترهيب اكثر من التنفيذ فان الاصل فى الحدود الدرء بموجب قوله صلى الله عليه وسلم :«إدرؤوا الحدود بالشبهات ما استطعتم ، فانها تندرىء لاسباب كثيرة ولأقل الشبهات واذا اندرأ الحد بالشبهة وجب التعزير .

ضابط التعزير :

كل ذنب لم يرد فيه حد من الشارع وجب فيه التعزير . والفرق بين الحد والتعزير أن الحد مقدر شرعا وأما التعزير فتقديره الى ولى الامر .

ويكون التعزير بالقتل والضرب والحبس والنفى والتأنيب واللوم . وفى بعض الآراء بالاستيلاء على أموال المتهم على أن ترد اليه اذا أصلح شأنه . واختيار واحد من هذه العقوبات الى ولى الامر .

قانون الحرب :

سبق أن ذكرنا فيما ذكرنا من القوانين الموجودة فى عهد العثمانيين والفاتح قانون الحرب ، فلنتكلم هنا على هذا القانون أيضاً بناء على أهميته لنقدم فكرة عنه اجمالية .

وقد ذكرت الأحكام المتعلقة بالحرب ومعاملة الأجانب بجميع فروعها وتفاصيلها فى « السير الكبير » وغيره من كتب الفقه . ولا يمكننا فى هذا المختصر أن نأتى بجميع مسائل موضوع تبلغ من الكثرة حداً يقتضينا أن نؤلف مجلدا كبيرا وإنما نجتزىء بالاشارة الى خطوطها الاساسية .

الاحكام المذكورة فى الفقه تستند الى الآيات الكريمة والاحاديث الشريفة الواردتين فى هذا الموضوع والى آراء المجتهدين وقد تختلف الآراء فى موضوع واحد اختلافاً منشؤه اختلاف النظر فى تحديد احكام الآيات والاحاديث الواردتين فى حوادث وقعت فى أزمنة مختلفة . وإنا عندما نحاول فهم معانى هذه الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة فلا بد من أن نبحث أسباب النزول والورود والظروف والملابسات التى كانت قائمة وقت النزول والورود . ولكن هناك أحكاما أساسية تطبق كدستور خالد لا يقبل أى

تعديل فانها قد نص عليها فى الكتاب والسنة نصاً صريحاً لايتطرق اليها أى شك . ويمكننا أن نجمل الأحكام الأساسية المشار اليها كالآتى :

١ — مراعاة المعاهدات والاتفاقات واجبة . لاينقض العهد سواء أكان خاصاً بأصل الحرب أم بفروعها مالم ينقضه الطرف الآخر بالفعل أويتيقن أنه سينقض[1] .

فلا تجب مراعاة العهد فى الحالة الأخيرة — أى فى حالة التيقن بالنقض — ولكن يجب إخطار الطرف الآخر بأن الاتفاق المبرم معه سينقض .

والحق الذى لامراء فيه أن مراعاة العهود واجبة من جميع النواحى فانها كما تجب من الوجهة الخلقية فكذلك تجب من حيث مصلحة المجتمع فانه اذا لم تبق قيمة للكلام والعهود لا تبقى اى قيمة للانسانية فلا يبقى فى الدنيا شىء يوثق به فيرتفع الامان ويختل الامن والهدوء فى المجتمع فيقوم مقامه الخوف والاضطراب والقلق ومايتبعه من سوء الحال .

ولذلك وصف الله سبحانه وتعالى نقض العهد بأقبح الاوصاف أعنى به الخيانة فقال عز وجل : « وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ان الله لا يحب الخائنين .» الآية ٥٨ الأنفال .

٢ — فى حالة الخصومة والخلاف مع العدو يختار الأوفق للمصلحة من الحرب والصلح حتى يجوز فى حالة الخطر قبول الصلح ببدل .

٣ — لا يقتل أسرى الحرب ولا يؤذَون اذا أمن جانبهم .

٤ — لاحرج على الأطفال والمرضى والشيوخ العاجزين عن القتال والنساء اللائى لم يشتركن فيه ورجال الدين حتى يستثنى هؤلاء من دفع الجزية عند عقد الذمة .

---

(١) يكون النقض معتبراً اذا وقع من قبل الأمير او الجماعة وأما مخالفة بعض أشخاص لا يمثلون الجماعة فلا يعد نقضا للعهد .

هذا ، ولا يسعنى أن اترك هذا الموضوع قبل ذكر القصة الآتية التى قصها على صديقى العزيز استاذنا الجليل فطين گوگمن مدير المرصد السابق باستانبول وانى أنقلها كما سمعته من فمه قال : «كان الكونت استرولوغ المستشار القانونى الانجليزى فى الباب العالى قبل الحرب العالمية الأولى جارى بحى «قنديللى» وكنا نتقابل ونتحادث ولما أعلنت الحرب سافر الى بلاده وبعد أن وضعت الحرب أوزارها عاد الى استانبول فعدنا نتقابل ونتحادث كالاول وكان أكثر أحاديثنا تدور على حوادث الحرب وكان أكثرها إثارة لاهتمامى الحادث الآتى : قال الكونت : عقد مجلس حرب كبير عقب هزيمة الانجليز فى كوة العمارة وحضرت المجلس بوصفى مستشار الشؤون الشرقية فى المجالس الحربية وفى أثناء المداولة قدم وزير الحربية الى لوئيد جورج رئيس المجلس عدة برقيات وبعد أن اطلع عليها الرئيس قال : أيها السادة لست أستطيع أن أفهم ؛ جيوشنا ، نحن الامم المتمدينة ، تكاد تنقلب وحوشاً ضارية فى حالة الحرب والقتال ، وجنود الترك الذين نعدهم متوحشين يكونون متمدينين . هذه البرقية وردت من قائدنا فى العراق يشير فيها الى الخطابات التى تلقاها من قوادنا الاسرى لدى الترك ويقول : إنهم يجدون من الترك معاملة حسنة تفوق العادة فانهم يوفرون لاسرانا جميع الوسائل الكفيلة براحتهم ويداوون جرحاهم فى حدود امكانياتهم فلست أدرى العوامل التى تدفعهم الى ذلك . ومضى الكونت يقول : وبعد أن أبدى بعض آراء فى الموضوع قال وزير الحربية : أنا أيضاً فى حيرة شديدة من هذا الامر ؛ اسرمنا فى إحدى معارك الدردنيل ضابطان وبعض جنود جرحى فوضعوا فى قاعة [عنبر] للمعالجة وكانت بجوارهم قاعة أخرى تضم جرحى نقهين من الجنود الألمان ولم تكد أعينهم تقع على جرحانا حتى انقضوا عليهم يريدون الفتك بهم ولم ينقذهم من أيديهم الا بعض الجرحى من الجنود

الترك المعالجين هناك . وبينما نحن الانجليز نحاول أن نضرب الترك فى صميمهم ضربة قاضية فإنهم يقابلون ذلك بمثل هذا العمل الإنسانى . وبعد ان أتم وزير الحربية كلامه طلب أحد الحاضرين الكلام فقال مشيراً الى : حل هذه المشكلة عند الكونت استرولوغ فلنترك اليه الكلام .فقلت : المسألة بسيطة جداً نحن معاشر الأوربيين لم نعرف أن هناك أحكاماً وواجبات تجب على المقاتلين مراعاتها إلا قبل عصرين تقريباً فوضعناها فى شكل قانون يتطور نحو الكمال بمضى الزمن ، وأما الاسلام فقد عرف هذه الأحكام والواجبات قبل ألف سنة وتزيد ، وعمل بها كقانون إلهى حتى أصبحت سجية فيهم . وهنا أنهى الكونت كلامه وأنا ذكرت له ما أسعفتنى به الذاكرة من أحكام الحرب نقلا من ترجمة السير الكبير فشكرنى ، انتهت القصة .

نعم أيها القارىء الكريم لم يكن فى العالم شىء اسمه قانون الحرب فى حين أن الاسلام عرفه قبل ١٣٠٠ سنة وزيادة ونظم ما سيحدث بينه وبين غيره من الأجانب حكومة كانت أو أفراداً من العلاقات والمناسبات فى صورة تشريع مستند إلى حكم عالمية .

وأما المعاملة التى يجب أن يعامل بها الأجانب فقد ذكرنا آنفاً وجوب مراعاة العهود والاتفاقات التى تعقد مع الاجانب . إذن يجب أن تعامل رعية أى دولة أجنبية فى حدود الاتفاق الذى يعقد معها ، فتراعى أحكام الاتفاقات المعقودة فعلا — حتى ضمناً — مالم تنقض من الطرف الآخر .

ولمعرفة أحكام الأمان والمستأمن وغير ذلك يرجع إلى كتب الفقه .

الفصل الخامس

النظارة والتفتيش

كان القضاة تحت إشراف قضاة العساكر ونظارتهم العامة كما أسلفنافكان قضاة الأناضول تحت إشراف قاضى عسكر الاناضول العام وقضاة الروملى تحت إشراف قاضى عسكرها العام . وكانت أعمال القضاة تفتش من حين لآخر إذا كان هناك ما يدعو الى التفتيش ويؤخذ من الوثائق التاريخية القديمة أنه فى عهد السلطان محمد چلبى الأول (جد محمد الفاتح) عين جمال الدين محمد چلبى مفتشاً عاماً على القضاة باسم « حاكم الحكام العثمانية » وكان يشرف أيضاً على الأوقاف (١) . ثم اختلفت على نظام تفتيش الاوقاف تحولات عدة .

فصل السلطان محمد الفاتح فى بداية حكمه الموظفين الذين حامت حولهم شبهة وعين بدلا منهم من توافرت فيهم الكفاءة والاستقامة(٢) .

وكان رحمه الله يأمر عماله فى المراسيم التى يصدرها اليهم أن يتخذوا العدل والانصاف شعاراً لهم ويساووا بين القوى والضعيف ، وبين الشريف والحقير

---

(١) يراجع كتاب «أوقاف همايون نظارتنك تاريخچه تشكيلاتى ونظارك تراجم أحوالى » [= تاريخ تشكيلات نظارة الاوقاف السلطانية وتراجم النظار] .

(١) يقول المؤرخ كيريتو دولوس: « وبعد ذلك عمد الى شؤون مملكته ففتش اداراتها وفصل الولاة والحكام الذين كانوا موضع شكاية الاهالى . ونصب بدلا منهم من توافرت فيهم الخصال الحميدة من ذوى العقول المستنيرة والكياسة والشجاعة والعدالة وكان أقدم آماله أن تنعم رعاياه بنعمة العدل » .

(ترجمة تاريخ السلطان محمد خان الثانى)

فى الخصومة والادارة ويدفعوا أذى الظالم عن المظلوم . ولم يكن يكتفى بمجرد اصدار الاوامر والمراسيم بل كان يراقبها بعد إصدارها ليعرف نصيبها من التنفيذ .

وكان على ثقة تامة بأن عماله عامة ومحاكمه خاصة تسيران على منهج العدل والحق وبناء على هذه الثقة طلب الى بطريرك الروم فى القسطنطينية أن يختار قسيسين ليوفدهما الى البلاد العثمانية بمهمة تفتيش المحاكم الموجودة فيها والاطلاع على سير العدالة فيها عن كثب والمقارنة بينها وبين محاكمهم الملغاة . وقد أختار البطريرك قسيسين من ذوى الكفاءة والاستقامة فأمرهما الفاتح بأن يطوفا بالبلاد العثمانية ويطلعا على حالة المحاكم ثم يقدما اليه تقريراً يتضمن مشاهداتهما وملاحظاتهما كما هى بكل حرية وبدون محاباة ودفع اليهما مرسوماً سلطانياً بين فيه المهمة التى أوفدا من أجلها . فلما عادا من مهمتهما قدما التقرير الآتى :

« أن المحاكم التى أقامها السلطان فى أيالات بلاده تسير على نهج العدالة كالمحاكم المؤسسة فى استانبول فاذا دامت هذه الحالة فاننا نجرأ على أن نطمئن جلالته بأن حكومته العادلة القوية ستصل عما قريب الى أقصى مراحل التقدم وتدوم دولته وتتمتع رعاياه السلطانية بالرفاهية والسعادة » .

ولاشك أن الفاتح حين اوفدهما بالمهمة المذكورة كان متيقناً من ظهور هذه النتيجة كما أشرنا اليه أنفاً فانه كان يعلم يقيناً كيف تسير الأمور فى مملكته وكيف أن قضاته يؤدون أعمالهم بكفاءة ونزاهة ويتوخون العدل فى أحكامهم .

وجدير بنا أن نكرر هنا مرة اخرى أن تفتيش القضاة كان من الوجهة الخلقية والنشاط العلمى والآداب التى يجب على القضاة مراعاتها . وأما من الوجهة القضائية واصدار الاحكام فلا . اذ لم يكن يؤاخذ أحد من القضاة من أجل رأى أدى اليه اجتهاده فحكم به مادام موافقاً لروح الاسلام فانهم كانوا مستقلين استقلالا تاماً من هذه الناحية .

وقد استمر الامر على هذه الوتيرة بعد عهد الفاتح أيضاً . ويعترف بذلك حتى الغربيون . يروى مونتسكيو فى بعض هوامش كتابه المعروف « روح القوانين » نقلا عن ڤولتير ما يأتى :

« لايتدخل الباشوات باستانبول فى الشؤون العدلية . فالاخبار المنافية لذلك غير صحيحة . يصدر القضاة الحكم الابتدائى . والقضاة تابعون لقضاة العسكر وهم تابعون للصدر الاعظم . وهو يصدر الحكم بالمداولة مع الوزراء الآخرين . وفى الغالب يستمع السلطان إلى المداولات من وراء حجاب .
وفى المسائل الهامة يرفع الوزير مذكرة عنها الى السلطان سائلا رأيه . ويبدى السلطان رأيه فيها ببضع كلمات يكتبها على المذكرة فتنتهى المسألة بهدوء وبسرعة فائقة . فليست هناك حاجة الى المحامين ووكلاء النيابة ولا الى أوراق الدمغة والاوراق الرسمية . وأعضاء المجلس يبدى كل منهم رأيه ولكن بدون أن يرفع صوته ولا تؤجل أى قضية أكثر من سبعة عشر يوماً فن الحكم يبنى على الحادث الواقع لا على الحق . ومن أجل ذلك يرجع فى الشرق الى الشهود فى الشؤون الادارية وقد يكون المدعون والشهود عرضة لعقوبة الضرب بالعصا » .

يظهر أن ڤولتير يقصد بقوله إن الصدر الأعظم .. الخ قرارات الديوان الهمايونى التى أسلفناها ويا ترى هل الذين تولوا شئون الجمهور فى الغرب فى عهد ڤولتير كانوا من أولياء الله الذين رفع عنهم الحجاب واطلعوا على الغيب وحكموا بدون شهود ؟ ! وأما حكاية الضرب فما هى إلا حديث خرافة .

وخلاصة القول : إن القضاة العثمانيين من بداية عهد السلطان عثمان حتى النهاية كانوا علماء متدينين مستقيمين متوخين العدالة فى أحكامهم . وقد استمرت السلطة القضائية العثمانية فى كل العهود قوية عادلة نزيهة بحيث يصح أن يقال: « إن فى البلاد العثمانية محاكم وقضاة » .

وأما ما يعزى إلى السلطان بايزيد الأول الملقب بيلديرم [= الصاعقة] من حبسه قضاة بعض البلاد فى مكان واحد ومحاولة حرقهم عقوبة لهم على ما نسب إليهم من تهمة أخذ الرشوة ، وانقاذهم من هذا الخطر بتدبير بعض الندماء ؛ فلا يمكن قبوله كحادث صحيح واقع اذ ليس من المعقول أن حادثاً خطيراً مثل هذا الحادث تذهب ازاءه محاولات كبار رجال الدولة سدى ويحل بوساطة نديم خصى جاهل .

لذلك يروى أحمد راسم (بك) الحادث بصيغة الشك ويستبعد وقوعه قائلا: « إما ازداد ظلم القضاة للجمهور حقيقة فزاد حنقهم وكثر شكواهم وإما أرادت الحكومة أن تظهر للشعب بمظهر الساهرة على مصالحه والمعنية بشؤونه وأيا كان الأمر فقد استشاط السلطان بايزيد الأول غضباً فجمع القضاة الذين حامت حولهم الشبهة . . . الخ » (١) .

---

(١) والواقع المفهوم من الحقائق أن هذه الشكاوى لم تكن من الرشوة وإنما كانت من فداحة الرسوم التى كانت تستوفى من الوثائق كالاعلامات والحجج . ومن المعلوم أن القضاة الذين ليست لهم رواتب كافية يحل لهم شرعا أن يأخذوا من أجل الوثائق التى يحررونها اجرة بالقدر المعروف ويحدد القدر المعروف بقدر التعب والمؤرخون متفقون على أن القضاة فى عهد السلطان بايزيد الاول لم تكن لهم رواتب كافية حتى القضاة فى العهد الأخير مع أنه كانت لهم رواتب مقررة كانوا يأخذون اجرة من بعض الوثائق .

وتشرح الكتب الفقهية هذه المسألة كالآتى :

« ويحل للقاضى أخذ الاجرة بكتب السجلات والوثائق قدر ما يأخذه فى امثاله فى تحرير الكتابة والعلم بالشروط . قال نجم الدين الزاهدى : والاصح انه مقدر بقدر المشقة وقد يزداد مشقة كتبة الوثيقة فى أجناس مختلفة يبلغ ماليتها مائة على مشقة كتب الف الف النقود ونحوها »

شرح القدورى للزاهدى ملخصاً من فتاوى على الجمالى

والخلاصة : أننا من اول الكتاب إلى هنا حاولنا أن نشرح التشكيلات العدلية والحكومية للعهد الذى نحاول أن ندرس الحياة العدلية فيه ونبين المستوى العلمى لقضاته وسائر عماله . وقد اعتمدنا فى دراستنا على المصادر الموثوق بها ولم نجعل فى كتابنا مكاناً للخرافات او الحوادث المشكوك فى صحتها . مثلا لم نذكر فيه ما يروى من أن السلطان محمد الفاتح أمر بقطع يد المعمار الذى بنى مسجده لانه خالف بعض أوامره ، وان المعمار رفع قضية ضد السلطان ونظرت القضية أمام قاضى استانبول وحكم بإدانة المعمار . . . الخ الحادث الذى تتناقله الالسن حتى الآن ووجد مكاناً فى الكتب الاجنبية أيضاً . فقد اهملنا هذا الحادث لأننا لم نطلع عليه فى المصادر الموثوق بها . فان الغرض الذى نهدف إليه أن نروى للخلف الحقائق كما هى . إذ لا جدوى فى وضع وقائع لا أصل لها او تحريف الحوادث الواقعة . بل الامر على العكس يفتح طريقاً الى الشك فى الوقائع الصحيحة كالتهم التى وجهها مؤرخو الغرب والبيزنطيين الى الفاتح بدافع الحقد والعداوة فانها لم تفد شيئاً سوى إثارة الشك والريبة فى صحة ما قالوا .

وبعد ما أسلفناه من البيانات ، لنستعرض الآن منظر الدولة التى على رأسها هذا العاهل العظيم ، فماذا نرى ؟ نرى دولة تعيش فى أمن تام من العدوان الخارجى لديها جيش باسل ذو تاريخ مجيد وشرف عسكرى يوثق به فى الملمات ويطمئن اليه كل آن ، يحرسها ويحمى زمارها ويدفع عنها مايهدد كيانها وأمنها . ورعية ينعم أفرادها برفاه وهدوء بالداخل ، كل فرد منها مطمئن الى ماله وروحه وعرضه وبعبارة اخرى وأخصر مطمئن الى جميع حقوقه . ومحافظةً على هذا الهدوء والاطمئنان انشئت المحاكم فى كل مكان وبثت حفظة الامن فى أرجاء البلاد . توجد مكاتب فى أصغر قرية من البلاد ومدارس عالية فى المدن الكبيرة وجامعات فى عاصمة الدولة وتزخر أنحاء البلاد بالمؤسسات المدنية والعسكرية



مثال من البسالة التركية

صورة تمثل الفاتح يقتحم بجواده البحر عندما رأى الأسطول يقوم بحركة غير صائبة



والادارية والبلدية والزراعية . والضرائب من القلة بحيث يصح معه أن توصف بأنها لاشيء . والمعيشة سهلة يسيرة وايراد الدولة يفى بمصروفها بالغاً مابلغ . وتنشأ بما فضل منه مؤسسات خيرية مدنية صناعية .

ورئيس الدولة دؤوب على العمل يواصل الليل بالنهار بدون فتور ولا ملل . ويأمر وزراءه وامراءه وحكامه وسائر عماله بالسير على منهج الحق والعدل وبحماية المظلومين . ويراقب أوامره هل تنفذ أو تهمل ؟ دولة هذه صورتها التى يراها من يستعرضها فهل يتصور فيها شيء غير الأمن والعدل ؟ نحيل تقدير ذلك الى القارىء الكريم(١) .

---

(١) ننقل فيمايلى بعض مقتطفات من مراسيم السلطان محمد الفاتح تأييداً لما قلناه

أولا : من البراءة الصادرة الى عيسى باشا أمير امراء [بكلر بكى] الاناضول فى سنة ٨٥٥ هـ .

« . . . وهذا أيضاً يجب عليه أن يتخذ السير على منهج العدل والانصاف شعاراً له ويتجنب الظلم والمحاباة عند الفصل فى الخصومات وإجراء الحكومات . ولا يؤثر القوى على الضعيف ولا يميل الى الشريف دون الوضيع. وأن يعين المظلومين دائماً. ويجعل دفع شر الظالمين فى مقدمة أعماله . ويتعقب اللصوص والبغاة ويقبض عليهم حيثما وجدوا ويدفع عن الشعب أذاهم ولا يدع الفساد ينتشر فى غفلة عنه فيقضى عليه فى وكره حتى يكون الاقليم محفوظاً من الغارة وخوف الاعداء ويعيش السكان فى أمن وسلام مواظبين على ترديد الدعوات الخيرية للدولة القاهرة أيدها الله.. الخ

ثانياً : من البراءه المعطاة للوزير احمد باشا :

«... ويجب عليه أن يبسط ظل الرحمة على الجمهور ويخفض جناح الرأفة للشعب الذى هو وديعة الله تعالى لدى الحكام حتى يشاهد فى مرآة الاعمال سماء الآمال وتجنى ثمرة السرور من شجرة الأمانى »

وما أشبه ذلك من المراسيم والأوامر. ويجب أن يعلم أن هذه المراسيم لم تكن مجرد كلام انشائى ينمق لغرض أدبى وإنما كانت تصدر لتنفذ بكل دقة وبحذافيرها وكان إهمال كلمة منها يعرض المسئول لأشد العقوبات .

خاتمة

قلنا فى مقدمة الكتاب إننا سنبدى فى الخاتمة رأينا فى قوانين الفاتح فقد آن لنا أن ننجز ما وعدنا به .

منح الدين الاسلامى رئيس الدولة التى دستورها الشريعة الاسلامية بعض سلطات فى وضع قوانين واصدار أوامر وهذه السلطات وان كانت معلومة للذين درسوا الفقه الاسلامى فمع ذلك نرى من المناسب أن نقدم بعض معلومات إجمالية عن مدى تلك السلطة المخولة .

تمنح الشريعة الاسلامية ولى الامر سلطة اصدار قوانين فى الامور التى ترك اليه تقديرها مما لا نص فيه من الشارع بشرط ألا يحرم الحلال ولايحل الحرام ولا يخالف الحقوق الطبيعية فالأوامر الصادرة من قبل ولى الامر واجبة الطاعة . ومن فروع هذا الاصل أن تقدير العقوبة فى باب «التعزير» الى ولى الامر فهو الذى يحدد نوع ومقدار العقوبة التى لم يرد فيها نص من الشارع وأما العقوبات المنصوص عليها كالحد والقصاص فلامساغ لاصدار أمر يخالف حكم النص . على أنه اذا سقط القصاص بعفو ولى الدم او اندرأ الحد بالشبهة فتقدير العقوبة اللازمة بعد ذلك يرجع الى ولى الامر أيضاً .

ولولى الامر اصدار قوانين تتعلق بكيفية إدارة الأراضى التابعة لحكومته وبشؤون الادارة العامة وله أن يأمر الرعية بالعمل بما أدى اليه اجتهاده ـ ان كان أهلا له ـ فى المسائل التى يسوغ فيها الأجتهاد ، اوبرأى أى مجتهد آخر يراه موافقاً للمصلحة العامة. وبناء على هذا الاساس جاء فى المذكرة الايضاحية التى قدمت لاستصدار المرسوم السلطانى بالعمل «بمجلة الاحكام»(١) ماتعريبه :

« اذا أمر امام المسلمين بالعمل بأى رأى فى المسائل المجتهد فيها يجب العمل به » .

---

(١) قانون الدولة العثمانية .

فالقوانين التى تتألف من فتاوى المغفورله مفتى الانام أبى السعود العمادى والقوانين الصادرة بعدها المتعلقة بشؤون الادارة العامة وإدارة الاراضى ، ومجلة الأحكام الملغاة كل هذه القوانين تستند على الاساس المذكور آنفاً .

وخلاصة القول : ان لولى الامر أن يصدر قوانين إدارية وجزائية ومدنية فى حدود ما منحته الشريعة الاسلامية من السلطة ولكن يجب أن نكرر هنا مرة اخرى أنه ليس له البتة أن يضع قوانين تخالف المبادىء الانسانية العامة التى تهدف الى صيانة الأرواح والأموال والأعراض والحرية فى العمل وحماية الضعيف . فمثلا ليس له أن يصدر أمراً بمصادرة أموال الناس بغير وجه حق ولا بطرح ضرائب على الرعية فوق طاقتهم ولا بقتل شخص بدون سبب شرعى ولا باباحة الزنى والميسر وما الى ذلك مما يبيح المحرمات ويحرم المباحات وعليه أن يراعى مصلحة المجتمع فى تصرفاته فان تصرفاته المضرة بمصلحة المجتمع لا تكون مشروعة .

ومن أمثلة التصرفات غير المشروعة ان يعفو عن مقترفى الجرائم الواجب عقابهم بدون أن يكون هناك مايدعو الى العفو عنهم خصوصاً فى الحالات التى يغلب فيها حق الافراد . وأن يؤثر بعض الطوائف بالاراضى الاميرية بدون مرجح ولامراعاة الاحتياج . ويقف الحقوق التصرفية الخاصة بمعظم الاراضى الاميرية ، ويصرف مال الدولة لاشخاص لا يستحقونها . ويقرر لشخصه اولحاشيته رواتب اكثرمن اللزوم والحاجة . فأمثال هذه التصرفات غير مشروعة لأنها على حساب المجتمع . وأما الذين أسدوا الى البلد خدمة بعلمهم او سيوفهم او سياستهم او اكتشافاتهم فمن المشروع أن يقرر لهم ولاسرهم المحتاجة رواتب او يأمر بصرف مكافآت لهم .

فعندما يبحث عن مشروعية أى قانون من القوانين او عدم مشروعيته ينبغى أن يبحث على هذا الاساس .

وبعد هذا التمهيد الموجز نشرع فى القانون المقول إنه قانون الفاتح ، هل هذه النسبة اليه صحيحة اولا ثم هل هومبنى على ماذكرناه من الاسس أولا ؟

قوانين عهد الفاتح :

ولكى نكون فكرة عن قوانين عهد الفاتح يجب أن نستعرض الاسس التى قامت عليها الدولة فى مبدأ قيامها والتطورات التى اختلفت عليها الى عهده رحمه الله . لذلك نذكر أولا النظم والقوانين المدونة فى تاريخنا من عهد مؤسس الدولة الغازى عثمان دون أن نقف عند النظم الخاصة بمراسم التشريفات والالقاب بما لا خطر له فى حياة الدولة وإنما نعنى بالمؤسسات والنظم الاساسية ثم نبدى ملاحظاتنا على المجموعة التى تضم القوانين المنسوبة الى السلطان محمد الفاتح .

أقام الغازى عثمان دولته على أسس الشريعة الاسلامية وجعل نشر الدين الاسلامى غاية له(١) وسعى جهده للوصول الى هذه الغاية السامية حتى تقوم دولته على قواعد الحق والعدل وتسير على منهجهما .

ولما أحس رحمه الله بدنو أجله أوصى ابنه اورخان بك قائلا : هأنذا أموت ولكنى غير آسف لانى تارك خلفاً مثلك كن عادلا صالحاً رحيما وابسط على الرعية حمايتك بدون تمييز واعمل على نشر الدين الاسلامى فان

---

(١) الشروع فى الحرب إبتداء للغاية المذكورة فرض كفاية . وللدفاع ومنع العدوان فرض عين . ولا يجب الجهاد على الاطفال وغير القادرين . والصلح مع العدو جائز للمصلحة كما أشرنا اليه فيما تقدم . وتجب مراعاة شروط الصلح والعهد . وعقد الصلح فى نظير المال جائز . يؤخذ فى حالة الحاجة ويعطى فى حالة الخطر . واذا دعا ولى الامر الرعية الى الجهاد فالاجابة واجبة والمخالفة توجب التعزير .

هذه هى واجبات الملوك على الارض . . »

وعلى رواية المؤرخ عاشق باشا زاده أوصى بما يأتى :

«إذا مت فادفنى تحت تلك القبة الفضية فى بروسه واذا كلفك أحد بشىء لم يأمر به الله فلا تقبله واسأل من يعلم اذا كنت لا تعلم علم الدين» (٢) .

---

(٢) اختلفت الروايات فى نصائح الغازى المشار اليه لابنه ويمكننا أن نجملها كما يأتى :

« قدم الاهتمام بأمر الدين على كل شىء . ولا تفتر فى المواظبة عليه . لا تستخدم الاشخاص الذين لا يهتمون بأمر الدين ولا يجتنبون الكبائر وينغمسون فى الفحش وجانب البدع المضرة وباعد الذين يحرضونك عليها وعلى الظلم . وسع رقعة البلاد بالجهاد واحرس أموال بيت المال من أن تتبدد . واعمل على إنماء ثروة الدولة . واعطف على رجال الدولة الذين وقفوا حياتهم على خدمتها بصدق واخلاص وابسط حمايتك على أولادهم وذراريهم . واضمن للمعوزين قوتهم . لا تمد يدك الى مال أحد من رعيتك. وابذل عطفك واكرامك للمستحقين خصوصاً اعمل على حسن استخدام طوائف الجند وتوفير الراحة لهم .

وبما أن العلماء والادباء بمثابة القوة المبثوثة فى جسم الدولة فاعطف عليهم وشجعهم واذا سمعت بأحد منهم فى بلد آخر فاستقدمه وأغره بالمال والاكرام حتى يقيم فى بلدك حذار حذار لا يغرنك المال ولا الجند . ولا تبعد أهل الشريعة من بابك ولا تمل الى عمل يخالف أحكام الشريعة فان الدين غايتنا والهداية منهجنا . خذ منى عبرة . حضرت هذه البلاد كنمل ضعيف فاعطانى الله تعالى هذه النعم الجليلة . فالزم مسلكى واحذ حذوى واعمل على تعزيز هذا الدين المحمدى وتوقير أهله مع سائر رعيتك المطيعة . ولا تصرف أموال الدولة أكثر من اللزوم ولا تضن على أخلافك بنصائحك واحم رعيتك من الظلم »

قلت فيما تقدم إن الشريعة الاسلامية منحت ولى الامر بعض سلطات وحاولت أن أبين مدى هذه السلطة بقدر ما سمح به الموضوع وسأحاول هنا أن أبين كيف استعملت تلك السلطة وغرضى من هذا البيان أن من يطلع عليه يكوّن فكرة إجمالية عن وجه الحاجة الى القوانين وتطوراتها نحو الكمال (١) .

وقلت فى كتابى « منطق الحقوق » : ان المجتمع الانسانى فى حاجة الى جملة قوانين مكفولة التأييد والتنفيذ للمحافظة على الامن والهدوء والنظام . وهذه القوانين يطرأ عليها من التعديل والتغيير بين حين وآخر ما تقتضى به مصالح الافراد والجماعات تبعاً لتطورات الحالة الاجتماعيه . والدولة وإن كانت تملك وضع القوانين فانه يجب أن تكون مستمدة من مصادرها الحقيقية فلا تطاع القوانين المخالفة للحقوق الطبيعية ولا تستجيب حاجات الإنسان الحقيقية . . . الخ وإذا تتبع القارىء الكريم قوانين الدولة العثمانية وتطوراتها من أول قيام الدولة الى نهايتها أدرك مبلغ اصابتنا الحقيقية فيما رأيناه فى الكتاب المذكور .

---

(١) القانون هو القواعد العامة الموضوعة من قبل ولى الأمر لتطاع من قبل الرعية . وينقسم باعتبار الشمول إلى مطلق ونسبى وقد يسمى بعض القضايا الشخصية قانوناً .

وينقسم باعتبار تعلقه بالعامة او الخاصة الى قانون عام او قانون خاص . فالقانون العام فى وقتنا الحاضر هو القانون المدنى والقانون المالى والقانون العسكرى والقانون الجزائى [= قانون العقوبات] والقانون الخاص هو القانون التجارى.. الخ وهذه القوانين أما دائمة او غير دائمة . فالدائمة يعمل بها طوال المدة المحددة لها وينتهى العمل بها بانتهاء مدتها . تقسيم القوانين الى هذه الاقسام مفيد جداً فانه يسهل للباحث مهمته .

أعلن الغازى عثمان الاستقلال فى جمادى الأولى سنة ٦٩٩ ﻫ فبدأ عمله كرئيس دولة ناشئة بتعيين قاض و «صوباشى»(١) الاول يمثل السلطة القضائية والثانى السلطة الادارية والتنفيذية . وكانت الشؤون كلها من العدلية والمدنية والعسكرية والسياسية والادارية والبلدية تسير وفقاً للأحكام الشرعية . ويتولى تنفيذها السلطان وأمراء السناجق [= سنجق بگلرى] و «صوباشى»

لم تكن هناك فى أول عهد الدولة ألقاب كلقب الوزير والوكيل وما إليهما ولكن نجليه النجيبين اورخان وعلاء الدين كانا يقومان بعمل الوزير وكانت قيادة الجيش عهدت إلى اورخان بك من قبل أبيه .

كما لم تكن فى ذاك العهد جنود منظمة فكانت قوة الدولة العسكرية مؤلفة من المجاهدين الذين يكونون تحت إمرة السلطان ينفرون اذا استنفرهم . وكلما اتسعت رقعة البلاد بالفتوحات المتوالية إقتضت الحالة توسيع التشكيلات الادارية فقسم الغازى عثمان البلاد التابعة له الى ألوية وقضاءات فأقطعها للأشخاص الذين اختارهم من المجاهدين الذين قاتلوا معه فى الاستيلاء على تلك البلاد فأقطع «سلطان اونى» لابنه الغازى أورخان و «اسكيشهر» «لـگوندوز آلب» . وقلعة «إين اونى» [= أينونو] لاويغور آلب . و «يارحصار» لحسن آلب و «إينه گولى» لطورغود آلب .

كان إيراد الدولة يتكون من الغنائم والجزية والعشر ورسوم المعادن والملاحات وكان مصرفها جد قليل . وكان معظم المنشآت الخيرية تدار بايراد أوقافها كما أن المساجد والمدارس الموجودة قبل العثمانيين تدار بايراد الاوقاف المحبوسة عليها .

---

(١) «صوباشى» مركب اضافى معناه الاصلى رئيس الجند فان كلمة «صو» فى اللغة القديمة بمعنى الجند و «باش» بمعنى الرئيس و «الياء» أداة الاضافة . ثم أصبح علماً على المحتسب والبوليس ويسمى بالعربية «الشحنة» .

وكان السلاطين الاولون لا يرهقون الشعب بضرائب باهظة متنوعة حتى ان الغازى عثمان لم يوافق على استيفاء رسم قليل جدا من الذين يختلفون الى الاسواق لبيع بضائعهم الا بعد مناقشة طويلة جرت بينه وبين رجاله وأصروا فيها على استيفاء الرسم حتى أقنعوه بانه عادة متبعة فى جميع البلاد. فقرر استيفاء رسم بواقع «آقچتين» عن كل حمل من الذين يأتون إلى الاسواق ببضائع اذا باعوها وبعدم أخذ شيء إذا لم يبيعوها(١).

وكان التصرف فى الشؤون الادارية والمدنية فى الالوية متروكا الى امرائها. والى القضاة فى القضاءات. وأما الشئون الشرعية والبلدية والاحتساب فكانت الى القضاة سواء فى الالوية أو القضاءات.

---

(١) يروى عاشق باشا زاده فى تاريخه هذا الحادث كما يأتى:

لما عين قاض و«صوباشى» أصبح الجمهور يتطلعون الى قانون حتى حضر شخص قادماً من «كرميان» فأبدى رغبته فى التزام رسم السوق فقال القوم: قابل الامير [اى الغازى عثمان] فقابله وعرض عليه الفكرة فقال له الغازى: هل لك دين على أهل السوق فتريد أن تستوفيه من مالهم؟ قال الرجل: مولاى! هذه عادة فى جميع البلاد يأخذ منهم سلاطينهم هذا الرسم. فقال الغازى: هل أمر به الله تعالى اوأحدثه السلاطين من تلقاء أنفسهم؟ ومضى يقول غاضباً: أيها الرجل من كسب شيئا فهل يكون لغيره؟ وأى حق يكون لى فى ملك الغير فآخذ منه المال؟ ثم أنذره قائلا: اغرب عن وجهى ولا تسترسل فى الكلام والا أصابك منى ضرر. فقال القوم: مولانا هذه الاسواق تابعة للسلاطين والامراء فعلى أهلها أن يدفعوا لهم شيئا من المال. قال: حيث إنكم تقررون هكذا فانى أرسم بانه أى شخص يأتى الى السوق ببضائع وباعها فليدفع «آقچتين» عن كل حمل ولا يدفع شيئاً اذا لم يبع. ومن أخل بهذا القانون أخل الله بأمره فى الدين والدنيا»

هذا ، ولم يكن أعمال امراء الالوية إدارية محضة فالى جانب أعمالهم المدنية كانوا يؤدون عملا عسكرياً حيث يلتحقون بالجيش مع رجالهم ورجال ذوى الاقطاعات التابعة لادارتهم عند وقوع الحرب .

وكانت الاراضى تدار وفقاً لنظام الاقطاع كما أسلفنا الاشارة اليه أى أنها تفوض الى المحتاجين من الأهالى على أن يزرعوها ويستغلوها مع بقاء رقبتها للدولة ولا تسترد منهم ما لم يعطلوها ولما كان التفويض عبارة عن تأجير الارض الى أجل غير مسمى فكان على القابض عليها أن يدفع أجراً محدوداً من المحصولات .

وكان عشر الارض ورسم التمليك وغيرها من الرسوم الأميرية وسائر الايراد للسپاهية [اى الفرسان المقطعة لهم الاراضى] يستوفونها من القابضين على الارض وفى مقابل هذا يشتركون فى الحرب ، عند وقوعها ، بعدد معلوم من الفرسان المجهزين تجهيزاً كاملا حسب درجة الاقطاعة وإيرادها . وفى الوقت نفسه يقومون فى مناطق إقطاعاتهم بأعمال الأمن والضبط وتسجيل الاملاك والاشراف على شئون الزراعة .

وقد وضع الغازى عثمان قانوناً كان بموجبه لا تسترد الاقطاعة من المقطعة له بدون سبب وتؤول الى ولده بعد وفاته(١) .

---

(١) « واى شخص اقطع له أرضا لا تسترد منه اقطاعته بدون سبب واذا مات آلت الى ولده ولو كان صغيراً على أن يشترك أتباعه فى الحرب الى أن يكبر الصغير ويصلح للاشتراك فى الحرب بنفسه . لا رضى الله عمن أخل بهذا القانون » .

تاريخ عاشق باشا زاده

ويجد القارىء معلومات مفصلة عن نظام الاقطاع [التيمار] فى نتائج الوقوعات وتاريخ جودت .

قوانين عهد الغازى اورخان :

هذا العهد وماوليه من العهود ، عهد نشأة الدولة وشبابها . والنشاط الذى كان يبديه الغازى عثمان قد استمر فى هذا العهد أيضاً بحماس ملتهب فكان رجال الدولة يعملون جاهدين مخلصين على توسيع حدود الدولة وتكوين وحدة متماسكة تستطيع الدفاع عن كيانها وايجاد موطن تعيش فيها آمنة مطمئنة . وفى هذا العهد كانت الوظائف المدنية والعدلية يقوم بها امراء الالوية والقضاة . ومع الاحتفاظ بنظام الإقطاع أدخلت عليه تعديلات وسعت من دائرتها تبعاً لاتساع رقعة البلاد كما عنيت بالشؤون العسكرية أيما عناية .

وقد أعقب وفاة الغازى عثمان حادث مبارك جلب للدولة الناشئة خيراً كثيراً ودرأ عنها شراً كبيراً .

ذلك أنه لما توفى الغازى عثمان الى رحمة الله تعالى عرض إبنه الغازى اورخان على أخيه الكبير علاء الدين باشا أن يرأس الدولة فرفض قائلا: «كنت أنت معقد آمال المرحوم والدنا وموضع عطفه ودعائه أكثر منى فانه اختارك فى حياته لقيادة الجيش فأنت جدير برياسة الدولة » فوافق رجال الدولة على هذا الرأى وبايعوا اورخان ثم عرض اورخان على أخيه الكبير علاء الدين الوزارة فقبلها ولقد أظهر بهذا العمل النبيل من الايثار وانكار الذات وحب الخير لاخيه وللدولة ما يشهد له بانه كبير حقاً بجميع ما تحمله الكلمة من المعانى وكان رحمه الله مدبراً سياسياً بعيد النظر كما كان عابداً زاهداً فى حطام الدنيا . وهكذا تم الاتفاق بين الاخوين وريثى السلطنة : اورخان وعلاء الدين فعملا منسجمين متحدين تحدوهما غاية واحدة وهدف واحد دون أن يتنازعا ويتقاتلا على السلطنة فتوفر كل منهما لناحية من

شؤون الدولة فكان الغازى اورخان على رأس الجيش يجاهد ويفتح البلدان وكان الوزير علاء الدين على رأس رجال الدولة يضع من النظم والقوانين والتشكيلات ما يوطد أركان الدولة الناشئة ويحفظ كيانها ويضمن نموها .

وكانت من باكورة الاعمال التى تمت فى عهد اورخان القرارات الآتية التى أصدرها علاء الدين مع زملائه وأقرها اورخان .

١ — اتخاذ زى عسكرى جديد لطوائف الجند تمييزاً لهم من الاهالى(١) .

٢ — سك عملة عثمانية(٢) .

٣ — تقسيم الجند الى صنوف وأقسام وتقرير راتب لهم .

وفى مجلس ضم علاء الدين باشا والمولى خليل الاسود الجندرى قاضى « بيله جك » وحضره السلطان اورخان تقرر بعد البحث والشورى إنشاء جند من أبناء الترك الصالحين للجندية بمرتب يومى قدره درهم عثمانى على أن يشتركوا فى الحملة العسكرية وقت الحرب ويقبضوا مرتباتهم وأن يعودوا

---

(١) أختير للرأس لباس من اللبدة البيضاء يسمى « كلاه » [= قاوق] وكان لقبول زى خاص بالجند أثر حميد فى حفظ النظام والشرف العسكرى .

(٢) وإلى هذا العهد كان المتداول بين الجمهور العملة السلجوقية . فسكت النقود العثمانية أول مرة من الفضة والنحاس وكتب فى احد الوجهين كلمة الشهادة وفى الوجه الآخر جملة « اورخان خلد الله ملكه » وبسك النقود باسم السلطان استكمل السلطان اورخان علامات السلطنة وشعارها . وأول عملة سكت فى عهده هى « آقچه » وإلى عهده كانت المعاملة جارية على نظام الدرهم (*) ومعنى آقچه فى اللغة المغولية عملة بيضاء وفى المجلد الاول من تاريخ جودت باشا معلومات عن العملة .

(*) الدرهم العثمانى ربع الدرهم الشرعى . والدرهم الشرعى ريال مصرى وكسور .

الى بلادهم بعد انتهاء الحرب ويشتغلوا بأعمالهم الشخصية معافين من التكاليف الأميرية . وعهد تنفيذ هذا القرار الى المولى خليل المذكور فجند نحو ألف جندى من الأقوياء القادرين على القتال . وسميت هذه الفرقة المجندة «يايا» اى المشاة وعين عليهم ضباط من رتب مختلفة : «اونباشى» [= رئيس العشرة] و «يوزباشى» [= رئيس المائة] و«بكباشى» [رئيس الالف] .

وبعد إنشاء هذه الفرقة واستخدامها بعض مدة لوحظ عليهم أنهم يأتون بأمور غير مرضية سواء فى السفر او الحضر فعدل عن زيادة عددهم واحدث بدلا منهم نظام «ديوشيرمه» [= الجمع] على النحو الآتى :

كان يجمع أطفال المسيحيين بمعرفة الولاة والقضاة ثم يوزعون على القصور والشكنات ويربون تربية اسلامية حتى اذا بلغوا سن التجنيد جندوا بمرتب يومى قدره «آقچه» على أن يقيموا دواما فى الشكنات رهن أمر السلطان . وبنفس المعاملة كان يعامل الأطفال الذين يؤسرون من دار الحرب .

وفى السنة الاولى من إحداث هذه المنظمة [الوجاق] العسكرية جمع نحو ألف طفل ثم زيد عددهم سنة فسنة ووضع لها نظام دقيق محكم فيما يتعلق بتعليم أفرادها وتربيتهم وترقيتهم وتأديبهم وطاعتهم وروعيت هذه النظم بدقة تامة وعناية فائقة زمنا طويلا ولكن بعد مضى نحو ستين ومائتى سنة على انشائها إختلت اختلالا كلياً فتحولت الى بؤرة الفتنة والفساد وفى النتيجة إضطرت الدولة لالغائها . وقد نشأ منهم كثير من العلماء والوزراء والقواد أمثال محمود باشا ورستم باشا ومحمد باشا الصوقوللى ، أسدوا إلى الدولة أجل الخدمات .

يروى أن الولى المعروف الحاج بكتاش(١) دعا لمنظمة الانكشارية ولذلك اعتقدوا أن منظمتهم مقدسة وما سمحوا لاحد أن يتكلم ضدها وكان بينهم والدرايش البكتاشية إخاء ومودة ولذلك الغيت التكايا البكتاشية حين الغيت الانكشارية . ولما كانت مأكولاتهم ومشروباتهم تصرف من قبل الدولة اتخذوا المرجل شعاراً (٢) [= رمزاً] لاتحادهم كما اتخذوا ألقاب ضباطهم من المعانى المناسبة للمأكولات والمشروبات مثل «چورباجى

---

(١) ونذكر فيما يأتى ترجمته نقلا من الشقائق النعمانية : « . . ومنهم الشيخ العارف بالله تعالى الحاج بكتاش . كان رحمه الله من جملة أصحاب الكرامات وأرباب الولايات وقبره الشريف ببلاد تركمان وعلى قبره قبة وعنده زاوية . يزار ويتبرك به وتستجاب عنده الدعوات .

وقد انتسب اليه فى زماننا هـذا بعض من الملاحدة نسبة كاذبة وهو برىء منهم بلا شك قدس الله سره العزيز » «الشقائق النعمانية »

والواقع أن الطريقة المنسوبة الى الولى المذكور قد انطمست معالمها بما طرأ عليها من نزعات باطلة لا يقرها الاسلام .

(٢) وكانوا يرفعون المرجل ويعلقونه فى «آت ميدانى» [ميدان الخيل] باستانبول كلما كانت لهم مطالب اوثارت ثائرتهم . ولما الغيت « وجاقهم » [= منظمتهم] قال الشاعر عزت ملا :

« قويوب قالديرمه دن ايكيده برده
قازان دوريلدى سوندردى اوجاغى »

ومعنى البيت : بينما كان المرجل يرفع مرة ويوضع مرة اخرى فقد انقلب على « الوجاق » [= الموقد] فأطفأه .

ويلاحظ أن معنى «الوجاق» حقيقة فى الموقد ومجاز فى الاسرة والمنظمة وغيرها من المعانى . ولايخفى مافى هذا التعبير من التورية .

باشى » [رئيس الشوربجيه] و « آشجى باشى » [= رئيس الطهاة] و « سقا باشى » [= رئيس السقاة] (١) .

وبعد إنشاء فرقة « الانكشارية » الغى نظام صرف المرتب للمشاة الذين أشرنا الى تأليفهم وانما اقطعت لهم بدلا من المرتب مزارع وأراض على أن يشتغلوا بزراعتها بعد العودة من الحرب معافين من التكاليف الأميرية. وربط هذا بنظام .

كان الجميع يبذلون نشاطاً ملحوظاً لصالح البلد وكان السلطان وابنه ، وهو كبير قواده ، سليمان باشا يعملان دائبين على فتح البلاد . وعلاء الدين باشا يضع القوانين والاسس التى تقوم عليها الدولة من جهة ويعمل من جهة اخرى على تعمير البلاد المفتوحة وتقدمها وتجميل المدن بالمكاتب والمدارس والمساجد والمطاعم الخيرية والقناطر ودور الضيافة والطرق المعبدة وغيرها من المبانى الخيرية والمنشآت المدنية من ضمنها مسجد بروسه الذى شرع فيه سنة ٧٣٦ هـ وانشىء بجواره مطعم خيرى وخان [وكالة] وحبست على هذه المنشآت الخيرية أوقاف كبيرة . هذا مع العناية بحفظ الاوقاف المتخلفة من الدولة السلجوقية والامارات التى قامت على أطلالها .

والخلاصة : خطت البلاد فى عهد الغازى اورخان خطوات واسعة نحو

---

(١) ويروى احمد راسم بك قصة تسمية الفرقة الجديدة [الانكشارية] ودعاء الحاج بكتاش كالآتى : « روى أن الغازى اورخان لما أنشأ فرقة [وجاق] الانكشارية صحب منهم بعض افراد وتوجه الى المكان المسمى « صولوجه قره اويوكى » فى جهة آماسيه حيث يقيم به الولى المعروف بالحاج بكتاش فسأله أن يدعو لهم فوضع الشيخ احدى يديه على رأس احد الجنود فدعا قائلا : « ليكن اسمهم « يكيچرى » [الجند الجديد] اللهم بيض وجوههم وقو أعضدهم واجعل سيوفهم قاطعة وسهامهم قاتلة وأظهرهم على أعدائهم دائماً » ولذلك اعتبرت الانكشارية الولى المشار اليه أباً روحياً لهم وسموا بالبكتاشية كما سمي رئيسهم بأغا البكتاشية .

التقدم والتعمير فى جو من الامن الشامل وزاد سكان المدن والقرى حتى بلغ تعداد سكان بروسه مائة ألف نسمة .

هذا ، وبعد أن فتح الغازى اورخان بعض بلاد من الروملى أمر بكتابة الاوامر والمناشير باللغة التركية والتكلم بها فى الأناضول وكانت الاوامر قبل ذلك تكتب تارة بالفارسية واخرى بالعربية وحيناً بالتركية كما كانت لغة التخاطب مختلفة مثل الرومية والتركية . ولا يخفى أن اللغة خطرها جد كبير فى وحدة الامة وحياتها الاجتماعية ومن ثمة أمر عمر رضى الله عنه بكتابة الاوامر والمناشير والخطابات الرسمية باللغة العربية والتكلم بها أيضاً فى الجهات الرسمية بالبلاد التى فتحها . ومنع مخالفة ذلك كما كانت اللغة العربية لغة التخاطب بالاندلس أيضاً . وبما أن اللغة لها أثرها الإيجابى أو السلبى فى الحياة الاجتماعية فنرى كل شعب يعنى بلغته ويعير لها أهمية كبرى .

قوانين عهد السلطان مراد الاول (خداوندگار)

مات الغازى اورخان بعد أن وسع رقعة البلاد وزاد من قوة الدولة وأنشأ جيشاً منظماً ووضع النظم والاسس التى تحتاج اليها دولة ذات سيادة واستقلال .

وقد سار ابنه مراد وريث هذه الدولة على نهج أبيه ولكن بخطوات أوسع وأثبت وعنى باستكمال نظم الدولة ، من جملتها أنه لما رأى الجيش كبر عدداً وعدداً وانه تحدث بين افراده خصومات تحتاج الى الفصل ، أحدث منصب قاضى العسكر ليفصل فى الخصومات التى تنشب بين أفراد الجيش بعضهم البعض وبينهم والاهالى وليكون مرجعاً للقضاة أيضاً واختير لهذا المنصب المولى خليل الاسود الجندرى قاضى بروسه وهو أول قاضى عسكر فى الدولة العثمانية .(١) ثم اختير لمنصب الصدارة العظمى [رياسة مجلس الوزراء]

---

(١) وكان من التقاليد المرعية فى عهد الغازى اورخان أن يصحب قاضى العاصمة الجيش عند وقوع الحرب .

باسم خير الدين پاشا لما أبداه من الكفاءة الممتازة وأسداه من الخدمات الجليلة ودام هذا المنصب فى أعقابه الى عهد السلطان محمد الفاتح وكان آخر من تولاه منهم خليل باشا الجندرى وقد شهد فتح القسطنطينية . وعنى خير الدين پاشا فى أثناء توليه منصب الصدارة بتنظيم الجند فوضع له نظاماً دقيقة من جملتها ما يقضى بأيلولة الاقطاعة المحلولة من الفرسان ذوى الاقطاعات الى أبنائهم .

كانت رقعة البلاد تتسع باستمرار وكلما اتسعت إزدادت الاقطاعات وازداد عدد الفرسان تبعاً لها ولكن هؤلاء الفرسان ذوى الاقطاعات كانوا يقيمون فى مناطق اقطاعاتهم فاذا دعت الحالة التحاقهم بأمراء الالوية الذين يتبعونهم إحتاج ذلك الى مدة اسبوع على الاقل . وأما فرقة «الانكشارية» [= سلاح المشاة] فكانوا مقيمين بالعاصمة بالشكنات وكانوا فى وضع يسمح لهم بالقيام فوراً فى اليوم الذى يؤمرون فيه بالسفر لذلك مست الحاجة الى إنشاء فرقة فرسان موظفة يقيمون فى الشكنات بالعاصمة رهن الامر على غرار « الانكشارية » . فأنشىء آلاى فرسان باسم أبناء « السپاهية » اختير أفراده من بين أطفال «ديوشيرمه» ومن الاطفال المأسورين فى الحروب المتربين فى السراى السلطانى وقصور الوزراء .(١)

كان العلم العثمانى فى عهد كل من عثمان واورخان أبيض اللون وصار أخضر

---

(١) سميت الاطفال المجموعة فى عهد السلطان مراد « عجمي اوغلانلرى » [= الاطفال المبتدئون « الغشم »] فكانوا يربون ويعلمون ثم يلحقون بمنظمة « وجاق » الانكشارية وقد انشئت لهم ثكنات كبيرة بأدرنه اسكنوا فيها وكانت هذه الثكنات بمثابة مدارس يقضون فيها مدة طويلة يدربون خلالها على الفنون الحربية والاعمال العسكرية على أيدى المدربين الاكفاء .

فى عهد مراد وأحمر فى عهد محمد الاول كما وضعت الطغراء [الطرة] فى عهد مراد . يروى أنه عقد اتفاق مع جمهورية راجوزه وحررت وثيقة الاتفاق فى صورة مرسوم [فرمان] خالية من العلامات الخاصة بالسلطان فطلب ممثل الجمهورية أن تشتمل الوثيقة على علامة خاصة بالسلطان نفسه وإجابة لطلبه وضع يده على الحبر وطبعها على صدر الفرمان وهذا هواول طغراء [طرة] استعملت فى الدولة العثمانية وأنها اصل الطرة المعروفه بشكلها الحالى .

هذا رأى ، وهناك رأى آخر يقول : إن طبع اليد على المراسيم والفرمانات عادة قديمة عند ملوك الشرق فكان جنگيزخان وغيره يطبعون أيديهم على المراسيم وأما الطرة المعروفة فكان إمضاء الغازى اورخان قريباً منها فتطور على أيدى مهرة الخطاطين فأصبح فى صورته المعروفة . وايا كان الامر فالطرة تشتمل على اسم السلطان واسم ابيه وعبارة « المظفر دائماً » وأما المكان الخالى الكائن فوق ذراعى الطرة على الجهة اليمنى فقد كتبت فيه تارة كلمة « الغازى » وأخرى الاسم ، وترك خالياً كما هو فى بعض الاحيان .

عهد السلطان بايزيد الملقب بيلديرم (الصاعقة) ونجله السلطان محمد چلبى :

هما من أعظم سلاطين آل عثمان ولما تولى يلديرم السلطنة إقتفى اثر اسلافه فواصل الجهاد الذى بدأوه فوسع رقعة البلاد الى أبعد حد وأقر فيها الامن والهدوء ووحد الاتراك القاطنين بالاناضـــول وذلك بأن الحق الإمارات الصغيرة القائمة على أطلال الدولة السلجوقية بالجامعة العثمانية . وفتح بلاداً كثيرة ووفق لانتصارات عظيمة ولكن الكارثة التى حلت بالبلد على يد الطاغية تيمورلنك حالت دون الوصول الى أهدافه كاملة فاسر فى معركة أنقره فمات كمداً

كان أجداده يذكرون بلقب البك [= الامير] وقد منحه الخليفة العباسى المقيم بمصر لقب « سلطان إقليم الروم » بعد الانتصار العظيم الذى وفق له فى معركة « نيكبولى » .

لم يجد هذا السلطان العظيم فى المدة القصيرة التى تولى فيها السلطنة وأمضاها فى الحروب العظيمة ، متسعاً من الوقت للاشتغال بشؤون الادارة وتنظيم البلاد ولكنه بناء على عدم رواتب مقررة للقضاة تفى بحاجاتهم المعيشية ونظراً الى شكوى الجمهور وضع فى سنة ٧٩٥ هـ قانوناً بموجبه كان القضاة يستوفون رسماً قدره ٢٥ آقچه من الإعلام والحجة و ٧ آقچه من التسجيل و ١٢½ آقچه من عقد الزواج و ٢٥ آقچه من القسامة .

وقد أحال تيمورلنك كل بلد حل به الى مجزرة بشرية وأطلق جيوشه النهابة على أنحاء البلاد فأمعنوا فيها سلباً ونهباً وتخريباً وقتلا حتى تحولت البلاد خرائب ومجازر وخلت من بشر وشجر وحجر .

وبعد أن إنتقل السلطان يلديرم الى جوار ربه ورحل الطاغية بجحافله الى بلده كادت ريح الدولة تذهب وتتلاشى ولكن الله أبى إلا أن يتم نور الاسلام فى الاناضول والروملى فبعث فى هذه الفترة الحرجة فى حياة الدولة بطلا عظيماً مثل السلطان محمد چلبى فأنقذ الدولة من الخطر الذى يهدد كيانها . فانه رحمه الله بعد أن أنهى تنازع إخوته الامراء على السلطنة وفرغ من أمراء الاناضول الذين شقوا عصا الطاعة ، رأس الدولة سنة ٨١٦هـ وأخذ يعمل على رأب الصدع ولم الشعث وسار على اثر أجداده ليعيد الى الدولة سالف مجدها وانه لكذلك توفى الى رحمة الله تعالى .

ويعتبر السلطان محمد چلبى مؤسس الدولة الثانى بحق فانه فى خلال عشرين سنة من حكمه مضت فى فتن واضطراب كان حركة دائمة لا يحل اقليماً الا لينتقل الى آخر وقد اشترك فى أربع وعشرين معركة وأصابه نحو أربعين إصابة وكان رحمه الله قوى البنية ومعروفاً قبل توليه السلطنة بـ « گورشجى چلبى » [= الامير المصارع] ولكن كثرة الاصابات أنهكت قواه فضعف جسمه وأصبح يقضى معظم أيامه مريضاً فشغلته الاحداث الجسام التى واجهته

عن تنظيم الدولة ومع ذلك يؤخذ مما يرويه التاريخ أنه أول من أرسل السفراء الى الحكومات الاجنبية .

كان رحمه الله عطوفاً على الفقراء يكرمهم ويطعمهم كل يوم جمعة . وهو الذى سن إرسال الصرة الى فقراء مكة المكرمة والمدينة المنورة وعمل أخلافه بهذه السنة فكانوا يرسلون الصرة كل سنة ولكن التاريخ لا يذكر لنا شيئاً عما تحويه الصرة ومقدار المبالغ المرسلة فيها .

عهد السلطان مراد الثانى :

كان السلطان مراد الثانى ملكا شجاعاً حكيماً رحيماً عطوفاً تولى الحكم سنة ٨٢٤ ﻫ بعد وفاة والده فى ظروف حرجة دقيقة فكان من فضل الله على هذه الدولة أن تقلد زمامها مثله فى مثل هذه المرحلة الخطيرة التى تجتازها الدولة فان الجروح التى أحدثتها كارثة تيمورلنك فى جسم الدولة لم تكن قد التأمت بعد والاجزاء التى استقطعها الاعداء من بنيان الوطن لم تكن قد استردت تماماً . وكانت تتوالى على الدولة محن داخلية وخارجية ، فنى الداخل ظهر الامير مصطفى [١] بن السلطان بايزيد الملقب بيلديرم مطالباً بالعرش ومدعياً أنه أولى به من ابن أخيه وبالفعل وجد أنصاراً يؤيدونه . كما اخذ امراء الامارات التى قامت على اطلال الدولة السلجوقية يتحفزون للوثوب

---

(١) اختلف المؤرخون فى الامير مصطفى هذا فنهم من يسمونه «دوزمه مصطفى» اى مصطفى المدعى منكرين أنه ابن السلطان بايزيد . ومنهم من يعتقدون أنه إبنه حقيقة وكان لجأ الى امبراطور القسطنطينية فى كارثة تيمورلنك ولما ساءت العلاقة بين الامبراطور والسلطان مراد الثانى أطلق سراحه وأيده ببعض قوة بحرية ضد السلطان . وهناك مصطفى آخر وهو أخو السلطان مراد ظهر أيضاً مطالباً بالعرش فكان نصيب كليهما الاعدام .

على الدولة . وفى الخارج بدأت هجمات الدول المسيحيه المجاورة . ولكن السلطان مراد بجهاده المتواصل وسياسته الحكيمة الرشيدة تمكن من تلافى الخسائر التى منيت بها البلاد ومعالجة المشاكل والتغلب عليها وقد استردالبلاد المنتزعة كما عنى فى المدة الأخيرة من حكمه بنظام الدولة والجيش .

والى عهده لم تكن فى الدولة أركان تذكر غير الوزراء وقضاة العسكر. كما أن التشكيلات العسكرية وانتظام الجنود لم تربط بالنظم واللوائح كما يجب وانما كانت التشكيلات التى وضعت فى عهد الغازى اورخان تستمر بفرق بسيط . ولما عاد من مغنيسا الى الحكم مرة أخرى اهتم بوضع نظم ولوائح لطائفة الجند ولكن مع الاسف ضاعت هذه النظم فى خبايا الماضى ولم يحفظ لنا التاريخ منها الا الخطوط الاساسية وسنرى فى عهد محمد الفاتح الحالة التى آلت اليها التشكيلات العسكرية .

عهد السلطان المعظم ابو الفتح محمد خان الثانى :

عند ما تكلمنا على حياة محمد الفاتح فى المقدمة ذكرنا ما أدى للامة الاسلامية من جليل الخدمات وما امتاز به من كريم الخلال وما اتصف به من الشجاعة النادرة والحب للعلم والفضيلة وإيثار أهلهما بالعطف والرعاية .

ولما كان موضوع كتابنا دراسة حياته العدلية والقوانين الموجودة فى عصره فسنعنى بدراسة الناحية القانونية تاركين النواحى الاخرى خصوصاً الاحداث الحربية لانها خارجة عما نحن بصدده .

على الرغم من كثرة ما واجهه الفاتح من جسام الاحداث المتعبة لم يهمل النظم اللازمة لبناء دولته فعنى بوضعها عاملا على اصلاح ما كان موجوداً منها واستكمال نواحى النقص فيها حتى أصبحت التشكيلات الموجودة فى عصره من الكمال والصلاح بحيث تكفل إدارة دولة عظيمة وجماعة كبيرة سواء أكانت من الوجهة المادية او المعنوية .

مركز الادارة :

وكان مركز الادارة وأعنى به « الديوان الهمايونى » فى القصر العامر ويتـألف من الوزير الاعظم ووزراء القبة وقاضى العسكر وقاضى استانبول و « النشانجى » و « والدفتردار » وكان هؤلاء أعضاء طبيعيين للديوان .

والى عهد الفاتح كان السلاطين يرأسون اجتماعات الديوان بأنفسهم . وفى وزارة احمد باشا الكدك [الاثرم] حدث ذات يوم أن دخل الديوان رجل قروى رث الهيئة وقال بصوت جهورى ولهجة خشنة : « أيكم السلطان فعندى مظلمة » فلاحظ احمد باشا أن هـذه المفاجأة استاء منها السلطان (١) فاقترح قائلا : من الأنسب أن يستمع مولانا السلطان لمناقشات المجلس من وراء حجاب [قفص] بعد الآن ووافق السلطان محمد الفاتح على هذا الاقتراح وأصبح تقليداً يتبع فيما بعد .

كان الوزير فى مبدأ قيام الدولة اى فى عصر الغازى اورخان واحداً ثم أصبح اثنين وثلاثة وبلغ أربعة فى عهد الفاتح . وهم الوزير الاول [الوزير الاعظم] والوزير الثانى والوزير الثالث والوزير الرابع . وكان الوزير الاعظم وكيل السلطان المطلق التصرف وايذاناً لشمول سلطته واطلاق يده فى تصريف شؤون الدولة يسلم اليه ختم عند تعيينه فى منصبه ويسترد منه حين تركه المنصب . وكان هو مرجعاً لكل فرع من فروع

---

(١) ويا ترى ماذا كان السبب لاستياء السلطان من هذا الحادث ألأن الرجل فاجأ الديوان فى أثناء انهماكه فى بحث موضوع هام أم لانه لم يعرف شخصية السلطان ؟ وأما كونه رث الهيئة فطبيعى أنه لايؤدى الى الاستياء بل يستدر العطف وأياً كان السبب فلا يستطيع المرؤ ألا يحس فى اقتراح احمد باشا هذا شيئاً من المكر فانه قد استغل هـذا الحادث فتخلص من السلطان ليخلو جو المجلس من المهابة التى يضفيها وجوده ، فتدور المناقشات بحرية أكثر .

الحكومة ولجميع السلطات حتى السلطة القضائية . وكان قضاة العسكر ركناً ثانياً فى بناء الدولة . وكان قاضى العسكر واحداً فى الاول فصار اثنين فى أواخر عهد الفاتح احدهما للروملى والآخر للاناضول كما ذكرنا فيما سبق.

وكان المفتى [= شيخ الاسلام] دون قاضى العسكر فى الرتبة حتى دون قاضى استانبول . وكان « الدفتردار » [وهو وزير المالية] ركناً ثالثاً من أركان الدولة وكان فى عهد الفاتح واحداً وهو للروملى ويوجد له مساعد فى الاناضول . و « النشانجى » ركن رابع من اركان الدولة ، وهو رئيس قلم التوقيع السلطانى .

وقد جرت العادة بأن تعزف فرقة الموسيقى السلام السلطانى عند افتتاح جلسة الديوان الهمايونى ويسمعه السلطان قائماً وذلك لانه لما ارسل السلطان علاء الدين السلجوقى الى الغازى عثمان شعار الإمارة وهو العلم والطبل ضرب الطبل السلام السلطانى وسمعه الغازى قائماً تعظيماً للسلطان فصار تقليداً إتبعه أخلافه الى عهد الفاتح والغى فى عهده .

التقسيمات الادارية :

قسمت البلاد العثمانية إدارياً الى ثلاثة أقسام : ولاية ، ولواء ، وقضاء فكانت إدارة شئون القضاء محالة الى القاضى ، وشئون الامن والضبط والربط الى ذوى الاقطاعات [اى ذوى التيمار والزعامة] وكانت إدارة اللواء تعهد الى باشا ذى « طوغ » (١) واحد ممن يسمون « أمير آلاى » و « مير لواء » . واما الولاية فكانت تسند الى باشا ذى « طوغين » ممن يسمون « بكلربكى » [= أمير الامراء] وكان بكلربكى هذا تابعاً لوالى الروملى ومشيرها العام

(١) « طوغ » شارة تتخذ من شعر ذيل الفرس .

المسمى «روملى بكلربكى» إذا كانت ولايته فى الروملى . ولوالى الاناضول ومشيرها العام اذا كانت ولايته فى الاناضول .

السلطة القضائية :

ويمثل السلطة القضائية قضاة العسكر وسائر القضاة . وقد كان فى كل ولاية ولواء وقضاء [= مركز] قاض أوا كثر حسب الحاجة . وكان للقاضى أن ينيب عنه نائباً ليفصل فى قضية إذا دعت الحال الى ذلك .

وكان القضاة يفصلون فى القضايا المدنية والجنائية وفى الوقت نفسه يقومون بالشئون الادارية فى القضاءات كما ذكرنا آنفاً .

وكانت هذه الشئون كلها تسير طبقاً لاحكام الشريعة الاسلامية ووفقاً للقوانين العدلية والنظم البلدية التى يضعها ولى الامر فى حدود السلطة التى منحتها الشريعة وقد سبق أن بينا مدى هذه السلطة بايجاز .

كان السلطان يستشير العلماء والوزراء فى التكاليف المالية وشؤون الحرب والجهاد وعقد الصلح مع الدول والشؤون المالية والسياسية ويعمل وفقاً للرأى الذى تسفر عنه الشورى .

التشكيلات والنظم العسكرية :

بدأت الجندية فى الدولة العثمانية بفرقة الفرسان المغيرين [آقينجيلر] انشأها «كوسه ميخال بك» [= ميخال بك الكوسج] فى عهد الغازى عثمان وأصبحت فرقة منظمة فى عهد الغازى اورخان وعهود من خلفه من السلاطين . وقد تطورت التشكيلات العسكرية فى عهد الفاتح نحو التكامل اكثر من ذى قبل فأضحت فى الوضع الآتى :

قسم الجيش الى قسمين سمى احدهما «قپوقولى» [= عبد الباب] والآخر «أيالات عسكرى» [= جند الأيالات] فالقسم الاول هم جنود الخاصة كما يفهم من الاسم وكانت لهم ، ماعدا الراتب ، أرزاق تصرف عيناً وكانوا يقيمون

بالثكنات فى العاصمة . وقسم هذا القسم الى فرعين : مشاة وفرسان .

وكان مشاة الخاصة مؤلفة من سبعة أسلحة : « يني‌چرى » ، و « عجمى اوغلانلرى » ، و « جبه جيلر » ، و « طوپجيلر » ، و « طوب عربجيلرى » و « خمبره جيلر » . و « سقالر » .

سبق أن بينا معنى كل من « يني‌چرى » [= الانكشارية] و « عجمى اوغلانلرى » . واما « جبه جيلر » فهم جنود مهمتهم اصلاح أسلحة المشاة وسائر معداتهم الحربية وتوزيعها عليهم وقت الحرب والمحافظة عليها وقت السلم ويسمى قائدهم « جبه جى باشى » . « والطوپجية » [= المدفعيون] مهمتهم استعمال المدافع فى الحرب ، وصبها ووضع قواعدها واعداد سائر الذخائر الحربية من قذائف وغيرها ويسمى قائدهم « طوپجى باشى » ويسمى مدير مصنع المدافع « دوكومجى باشى » . و « العربجية » هم سائقو « عربيات» المدافع . و « الخمبرهجية » هم الجنود الذين يطلقون فى المعارك القذيفة المسماة « الخمبرة » بواسطة مدفع « الهاون » .

وهناك صنف من الجنود يسمى « لغمجيه » مهمتهم حفر الالغام والطرق تحت الارض فى أثناء محاصرة القلعة المراد فتحها : والسقاءون كان عليهم أن يمدوا جنود الخاصة على اختلاف أسلحتهم بالماء .

فرسان الخاصة :

هم الفرسان الذين يكونون تحت السلاح دوماً ولم تكن لهم ثكنات يقيمون بها فى استانبول وانما كانوا يقيمون فى القرى والمدن الكائنة بين استانبول وأدرنه وبروسه وذلك ليتيسر لهم تربية الخيول وليتجمعوا بسرعة إذا دعوا الى القتال . وكان سلاح الفرسان هذا مؤلفاً من ست فصائل :

١ — السلحدار
٢ — السپاه
٣ — صاغ علوفه جيلر [= علوفه جيان يمين]
٤ — صول » » [= » يسار]
٥ — صاغ غربا بلوكى [غرباى يمين]
٦ — صول » » [» يسار]

وتسمى الأوليان من هذه الفصائل الست « باش بلوكلرى » والوسطيان « اورته بلوكلرى » والاخريان « آشاغى بلوكلرى »

جنود الأيالات :

بعد أن تكلمنا على جنود الخاصة مشاتهم وفرسانهم وذكرنا ايضاً أن إدارة الولاية كانت محالة الى امير الامراء [بگلربگى] وإدارة اللواء الى امير اللواء [سنجق بگى] وانهما يقومان بأعمال مدنية وعسكرية معاً . نتكلم الآن على تشكيلات جنود الأيالات فنقول : كانت تشكيلات جنود الأيالات موجودة فى الدولة منذ أول عهدها على أساس « ديريلك » ومعنى « ديريلك » ما تتوقف عليه المعيشة من الايراد والأراضى المقطعة (١) .

وعندما تعلن الدولة الحرب وتدعو امراء الولايات وامراء الالوية ذوى الاقطاعة كان عليهم أن يلبوا الدعوة ويشتركوا فى الحرب بفرسان يجهزونهم تجهيزاً تاماً بواقع فارس كامل السلاح قادر على القتال عن كل

(١) هى الاراضى التى يعطى ايرادها الاميرى من عشور ورسوم للسپاهية فى مقابل خدمات عسكرية يؤدونها للدولة فاذا زاد ايراد الارض على مائة ألف آقچه سميت « خاص » وتوجه الى الامراء والا سميت « تيمار »

خمسة آلاف آقجه من ايراد إقطاعته فاذا كان إيراد إقطاعته ثلاثمائة ألف آقجه مثلا كان عليه أن يشترك بستين فارساً. وكانت جنود الأيالات مؤلفة من مشاة يسمون «يرلى قولى» وفرسان يسمون «سرحد قولى» و«طوپراقلى» وكان المشاة تحت قيادة وادارة باشوات الأيالات وبگوات الالوية. واذا دخل هؤلاء الجنود فى الخدمة قبضوا رواتب وأرزاقاً عينية. وكانوا خمسة أقسام:

«عزب»، و«سكبان»، و«تفنكجى»، و«إجاره لى»، و«مسلم»

و«العزب» هم الجنود العزاب الذين لا أزواج لهم. و«السكبان» هم المتطوعون الذين يقدمون أنفسهم للجندية بمحض اختيارهم وقت الحاجة الشديدة الى الجند. و«الاجاره لى» هم المدفعيون الموجودون فى المدن والقلاع الكائنة فى الحدود وسموا بذلك لانهم كانوا يستخدمون فى مقابل الاجر. والمسلمون هم فرقة المهندسين الذين يتقدمون الجيش لمعاينة الطرق والكبارى وإصلاح ما يحتاج منها الى الاصلاح وكانوا فى الغالب من أهالى الروملى والمسيحيين. وكان مسلمو الاناضول يسمون «يوروك»

و«سرحد قولى» هم الفرسان الذين انشئوا لحراسة الحدود ودفع ما يقع عليها من العدوان الخارجى ولذلك كانوا يقيمون على الحدود دائماً.

الاسطول والسلاح البحرى:

لم يشتغل الغازى عثمان ولا ابنه الغازى اورخان بشئون الاسطول فى بداية الدولة لانهما اشتغلا بالجهاد فى البر وحده ولكن الامير سليمان باشا نجل الغازى اورخان قد اجتاز مع بعض الابطال من جنوده الى «گليبولى» على مراكب الروم ففتح فى الروملى مواضع كثيرة ألحقها بالبلاد العثمانية. وفى هذه الاثناء جمعت بعض مراكب فى ميناء «گليبولى» ثم انشئت فيها «ترسانة» فعنيت بالسلاح البحرى ايضاً لما مست الحاجة اليها. وفى فتح القسطنطينية اعدت قوة بحرية كافية لتطويق المدينة من جهة البحر أيضا لان تطويقها براً لم يكن كافياً للاستيلاء عليها.

وعين الفاتح سليمان پاشا بلطه اوغلو قائداً بحرياً عاماً سنة ٨٥٥ هـ وهو اول من ولى هذا المنصب . وبعد فتح القسطنطينية ضوعفت العناية بالسلاح البحرى فلم تمض إلا مدة من الزمن قليلة حتى سيطر الاسطول العثمانى على البحرين الاسود والابيض.

وكان السلاح البحرى يدار من قبل الترسانة وهى إحدى فروع جنود الخاصة [قپوقولى] وكانت تسمى « طائفة العزب » أيضاً ويبلغ عددهم نحو ثلاثة آلاف جندى تتألف من القبطان وقواد السفن والضباط والبحارة .

وكلما خرج الاسطول للقتال أخذ حاجته من الجند من اتباع ذوى الاقطاعات الكائنة فى ألوية السواحل المسماة « دريا قلى » [= قلم البحر] المكلفين بالسفر وحتى من « فرقة الانكشارية » وغيرهم من طوائف الجند ثم أبحر الى وجهته . وأما الپاشا القبطان وطائفة العزب فكانت مهتهم مقصورة على الشؤون البحرية وإجراء مناورات الحرب البحرية فحسب .

وفى عهد السلطان سليم الأول نقلت الترسانة من « گليبولى » الى استانبول . ومن أراد التوسع فى هذا الموضوع فعليه بتاريخ جودت پاشا.

العلوم والمعارف :

ذكرنا فيما تقدم ما كان فى العاصمة وملحقاتها من الجامعات والمعاهد والمدارس وغيرها من المؤسسات العلمية التى أنشأها السلطان محمد الفاتح كما ذكرنا النظم المتبعة فى هذه المؤسسات سواء فيما يتعلق بالدراسة او الامتحانات فليس بنا حاجة الى تكرارها . وانما نريد أن نتكلم هنا بايجاز على مدرسة « أندرون » وتسمى « أندرون همايون » وهى مدرسة انشئت بداخل القصر السلطانى وظلت تؤدى رسالتها العلمية سنين عديدة فتخرج فيها عدد لا يحصى من العلماء والأدباء والشعراء والقواد ورجال الدولة .

وأسست هذه المدرسة التى تعد مؤسسة علمية مستقلة عن سائر المدارس فى عصر السلطان مراد الأول فتطورت على مر الزمن حتى بلغت أوج الكمال فى عهد السلطان محمد الفاتح . وكانت مدرسة « أندرون » مرتبة على ثلاثة فصول باعتبار القاعه [قوغوش] ومدة الدراسة فيها أربع عشرة سنة وكان الفصل الاول يسمى « سفرلى قوغوشى » [= قاعة السفر]

وهو قسم إبتدائى ومنشأ للفصل الثانى الذى يسمى « كيلار قوغوشى » [= قاعة بيت المؤنة] ، ويسمى الفصل الثالث الأخير « خزينه قوغوشى » [= قاعة الخزينة] .

وكانت برامج الفصل الاول تتضمن المواد الآتية : قرآن كريم ودروس دينية مما تجب معرفته على كل مكلف سواء فيما يتعلق بالعقائد او الاعمال . ثم يضاف الى المواد المذكورة التفسير والحديث والفقه والفرائض والمنطق والمعانى والهندسة والهيأة والرياضة والجغرافيا والشعر والانشاء . كما كان تلقى فيها دروس فى الفنون الحربية والثقافة العسكرية بصفة خاصة ويعنى عناية بالغة برفع مستوى الطلبة ماديا كان أو معنويا . وكان نظام وانتظام المدرسة فى غاية من الكمال . وقد حددت أوقات المذاكرة والاستراحة والعبادة وكان يسود بين الطلاب روح المودة والاخاء يعطف الكبير على الصغير ويحترم الصغير الكبير ويطيعه .

هذا ، ولم يكن هناك أى فرق بين مدرسة أندرون وغيرها من المؤسسات العلمية من حيث التعليم والتربية تجمعها كلها عقيدة واحدة وغاية واحدة وخلق واحد وشعور واحد .

وكان يصرف لهم يوميا ثلاث وجبات من الطعام وكانت الدولة تتعهد بجميع حاجياتهم . وتكاد تكون مناصب الدولة مقصورة على المتخرجين فى هذه المدرسة .

الأراضى والاوقاف :

بينا فيما تقدم كيفية إدارة الاراضى والاوقاف . وقد ادخلت على ادارة الاراضى فيما بعد تعديلات كثيرة وفقاً لمقتضيات الاحوال والحاجة . وأما الاوقاف فان لم يكن حظها كحظ الاراضى من كثرة التعديل فمع ذلك احدثت فيها معاملات جديدة كتأجيرها باجرتين : معجلة ومؤجلة ، والمقاطعة (١) ووضعت نظم ولوائح خاصة بانتقال الأوقاف ذات الاجرتين والمستغلات الوقفية ذات المقاطعة القديمة . (٢)

وقد ذكرت التعديلات التى ادخلت على ادارة الاراضى فى قوانين الاراضى ومجامع الفتاوى . واما النظم والقوانين الخاصة بالاوقاف فمذكورة فى الدساتير ذات الترتيب الاول .

النظم المالية : الايراد والمصروف

لا توجد فى أيدينا وثائق تتضمن تفصيلات عن النظام المالى المتبع فى عهد السلطان محمد الفاتح ومن تقدمه من السلاطين الاولين ولا عن ايراد الدولة ومصروفها فى عهودهم . ولكننا مع ذلك نجد فى التاريخ معلومات عن موارد الدولة يمكننا أن نحصرها فى الانواع الآتية :

---

(١) المقاطعة هى الاجر المقطوع المستوفى بدلا من العشر عن الاراضى التى وقفت حينما كانت مزروعة ثم حولت الى حدائق وكروم .

(٢) الى عهد الفاتح كان مرتزقة الاوقاف وخدمها حتى كتبتها — عدا الامام والخطيب — يعينون ويعزلون من قبل النظار . وفى عهده صدر قانون بعرض أمر التعيين او الفصل على السدة العليه وصدور براءة بذلك .

« صولاق زاده »

١ — الغنائم والفيء
٢ — الضرائب المستوفاة من الحكومات المتاخمة
٣ — العشر والخراج
٤ — الجزية
٥ — رسوم الجمرك
٦ — « المعادن والملاحات
٧ — ضريبة التركات
٨ — الغرامات المالية مثل « عوارض » وغرامة تعطيل الحرث .

ومن المفيد أن نقدم بعض معلومات عن هذه الموارد حسب الترتيب .
الغنائم جمع الغنيمة وهى اسم لما يؤخذ من اموال الاعداء على وجه القهر والغلبة . وتنقسم الى قسمين : اراض واموال منقولة . اما الاراضى التى يستولى عليها قهراً وغلبة فالتصرف فيها الى ولى الامر فاذا فتحت بلدة عنوة فولى الامر مخير إن شاء أقر أهلها عليها بجزية على رؤسهم وخراج على أراضيهم او أخرجهم منها وأنزل بها قوماً غيرهم ووضع عليهم الجزية والخراج وبهذه الصورة تكون تلك الاراضى خراجية ، وان شاء قسمها بين الغزاة ، هذا اذا أراد سكان البلاد المفتوحة أن يحتفظوا بدينهم وأما اذا اعتنقوا الدين الاسلامى برضاهم فيتركهم فى ديارهم وفى هذه الحالة تكون الاراضى عشرية ، او لا يقسمها بين أحد فيتركها للدولة وفى هـذه الحـالة تكون الاراضى « ارض المملكة » فيتصرف فيها وفقاً لما تقتضيه مصلحة البلد . وخلاصة القول يتصرف فى الاراضى تصرفاً تقتضيه مصلحة الجماعة .

وأما الاموال المنقولة فحكمها أن تخمس و بقيتها بعد الخمس للغانمين خاصة .
والفيء ما نيل من العدو بعد ما تضع الحرب أوزارها وتصير الدار دار الاسـلام وحكمه أن يكون لكافة المسلمين ولا يخمس . وعند الفقهاء

كل ما يحل أخذه من أموالهم فهو فىء . وتركة من يتوفون بلا وارث من قبيل الفىء . وأحكام الغنائم والفىء مفصلة فى كتب الفقه .

العشر :

هو مايؤخذ من محصولات الأراضى الأميرية بنسبة معينة ويجوز أخذ المال بدلا من العشر . وهذا الذى يستوفى عيناً أوبدلا بمثابة الأجرة تؤخذ فى مقابل التصرف فى الاراضى .

وهناك نوع آخر من العشر وهومايستوفى من الاراضى العشرية وهذان العشران اى ما يستوفى من الاراضى الأميرية وما يستوفى من الاراضى العشرية مختلفان حقيقة وماهية والاراضى العشرية مبينة فى قانون الاراضى الملغى وكتب الفقه . وأما أراضى الاناضول والروملى اراض أميرية لاعشرية ولا خراجية . فان الاراضى العشرية والخراجية من الاراضى الملكية يتصرف فيها أصحابها بجميع انواع التصرفات الملكية .

الاراضى الخراجية هى الاراضى التى تترك فى أيدى أصحابها غير المسلمين عند ما تفتح بلدتهم عنوة وهى قسمان : فاذا فتح الامام بلدة اما يقر أهلها عليها ويترك أرضها فى أيديهم فهذا هو القسم الاول . واما يخرجهم منها وينزل بها قوماً غير مسلمين ويعطيهم أرضها وهذا هو القسم الثانى .

والاراضى الخراجية يؤخذ منها الخراج ، والخراج هو الضريبة وهى قسمان خراج الاراضى وخراج الرؤس ، وخراج الاراضى قسمان أحدهما خراج المقاسمة وهو مايستوفى من محصولات الاراضى التابعة للخراج بواقع العشر إلى النصف حسب طاقة الارض ، والآخر خراج وظيفة وهو المال المحدد المفروض على الارض حسب طاقتها . وبعبارة أخرى الاول ضريبة المحصول والثانى ضريبة الملك . إذا مات أصحاب الاراضى العشرية

والخراجية بلا وارث آلت أراضيهم إلى بيت المال واكتسبت حكم الاراضى الأميرية .

الجزية :

هى ضريبة الرأس التى تؤخذ من ذكور الرعية غير المسلمة وتسمى خراج الرؤس أيضاً ويعافى عنها الأطفال والنساء والشيوخ والمرضى والفقراء العاجزون عن الكسب .

والجزية نوعان : الأول ما يقدر صلحاً وباتفاق فهذا لا سبيل إلى تغييره فإنه يوجب نقض العهد والآخر ما يطرح على الذين بقوا فى ديارهم بعد هزيمتهم فى الحرب وهذا يمكن تعديله حسب ما تدعو اليه الحالة وكما يراه ولى الامر ويقدره .

الجمرك

هو الرسم الذى يستوفى بنسبة معينة من البضائع المصدرة او الموردة وذكرت احكام الجمرك فى كتب الفقه تحت عنوان العشور مع بيان انواع البضائع التى يستوفى منها الرسم ومقداره . وبيان القدر الذى يستوفى من الاجانب ايضاً . هذا ؛ ولم نعثر فيما رجعنا اليه من المصادر على بيان عن مقدار الرسم الذى كان يستوفى فى عهد الفاتح وقبله ، وبأى وسائل يستوفى .

المعادن والملاحات :

تقضى الأحكام الشرعية بانه اذا وجد ذهب او فضة او نحاس او ملح او اى نوع من أنواع الاحجار والمعادن فى الاراضى الاميرية فى عهدة اى شخص كانت ، فهو لبيت المال فليس للقابضين على الاراضى المذكورة أن

يستولوا عليه او يطلبوا حصة منه فان رقبة الاراضى الاميرية لبيت المال فالمعادن التى تحويها جزء من الرقبة فهى أيضاً لبيت المال ولذلك لا حق للقابضين على الاراضى المذكورة الذين هم فى الحقيقة مستأجروها لا مالكوها . وهكذا الحكم فى المعادن التى توجد فى الاراضى الموقوفة التى من قبيل « التخصيصات والارصاد » (١) . فلا يتدخل فيها القابضون على الاراضى ولا إدارة الوقف فان ما يخص إدارة الوقف منها انما هو حق التصرف او العشور والرسوم لا الرقبة . وانما يجب فى مثل هذه الحالة تعويض القابضين على الأراضى أميرية كانت او موقوفة بدفع قيمة الموضع الذى يعطل عن الزرع او التصرف بسبب إخراج المعادن .

وأما المعادن التى توجد فى الاراضى المتروكة والموات فخمسها لبيت المال والبقية لواجدها والمعادن التى توجد فى الاراضى الموقوفة وقفاً حقيقياً لا وقف تخصيص وارصاد فهى خاصة بالوقف وكذلك ما يوجد من المعادن فى الاراضى الكائنة بداخل القرى والمدن تكون لاصحاب تلك الاراضى . والمعادن المستخرجة من الاراضى العشرية والخراجية الصالحة للصهر والإذابة فخمسها لبيت المال والبقية للقابض على الارض واما غير الصالحة للصهر والإذابة فكلها للقابض على الارض .

هذه المبالغ التى تتكون مما يؤخذ من المعادن والملاحات لما للدولة من حق فيهما ، كانت جزءاً من إيراد الدولة وعدا هذه المبالغ كانت هناك ضرائب قليلة المقدار تستوفى فى بعض الجهات باسم العوارض وغيرها لم يكن لها شأن يذكر فى إيراد الدولة ، وانما تسد المصروفات المحلية الضرورية فحسب .

---

(١) راجع فصل الوقف فى ص ١٢٧ — ١٢٨

المصروفات :

لكل دولة مصروفات متنوعة مختلفة تعمل على الموازنة بينها وبين ايرادها لكيلا تصرف اكثر من الايراد فإذا دعتها الحالة الى صرف مبالغ ضرورية أكثر من الايراد حصلت عليها أما بعقد القرض او طرح الضرائب على الشعب .

ويؤخذ من بعض الوقائع التاريخية أن خزينة الدولة فى عهد الفاتح كانت عامرة بالمال على الرغم من أن الشعب لم يكن مثقل الكاهل بالضرائب . فإنه رحمه الله عند ما جرّد حملة عسكرية تحت قيادته ضد حسن الطويل ملك العراقين أقرض جنوده مبلغ مائة حِمْل [كل حِمل مائة ألف قرش] وبعد أن عاد من الحملة منتصراً على خَصمه ، وهب المبلغ المذكور لهم . ومن البديهى أن الخزينة التى تستطيع منح هذه المبالغ الضخمة بالنسبة لتلك العهود لا يتصور فيها أى ازمة مالية . ومما يدل على مستوى ثروة الدولة فى ذاك العهد أن الفاتح أمر بسك عملة ذهبية فى عيار ووزن الذهب المجرى وكانت العملة العثمانية الى عهده تسك من الفضة .

وكانت أبواب المصروف فى ميزانية الدولة كالآتى :

١ — مصروفات عسكرية .
٢ — مرتبات الجند [= علوفه] .
٣ — نفقات العتاد الحربى من أسلحة وذخائر حربية .
٤ — المنشآت الخيرية والمرافق العامة .
٥ — المعارف .
٦ — الفقراء والمساكين .
٧ — الغزاة المعلولون [= مشوهو الحرب] .
٨ — أبناء السبيل .
٩ — المستشفيات .
١٠ — المرضى المحتاجون .

وقد خصصت العشور من ايراد الدولة للوزراء والامراء والموظفين وجنود الايالات والسپاهية يحصلون عليها باسم « خاص » و « زعامة » و « تيمار » ، كما كان يصرف منها للمؤسسات الوقفية أيضاً .

واما المرتبات اليومية المقررة لطوائف الجند المسماة « قپوقولى » ولبعض العلماء والسادات ، ونفقات العتاد الحربى ، والمنشآت الخيرية ، والمرافق العامة وسائر ابواب المصروف ، فكانت تصرف من سائر ايراد الدولة المتقدم بيانه . وكان يصرف على المدارس والمكاتب وسائر المؤسسات العلميـــة والصحية والصناعية من ايراد أوقاف الدولة اى الاوقاف التى من قبيل « التخصيصات » ومن ايراد الاعيان المحبوسة عليها من قبل الاشخاص الخيرين .

وكان من الممنوع منعاً باتاً مصادرة أموال الاشخاص واستخدامهم « سخرة » فإنهما مخالفان للحرية ومصونية المال اللتين أعلنهما الاسلام كمبدأ لا يتغير . وانما تجوز مصادرة الاموال التى جمعها موظفو الدولة عن طريق غير مشروع وترد الى بيت المال ، والاصل فى ذلك مافى البخارى عن ابى حميد الساعدى قال استعمل النبى صلى الله عليه وسلم رجلا من الازد يقال له ابن اللتبية على الصدقة فلما قدم قال هذا لكم وهذا اهدى لى قال عليه السلام: هلا جلس فى بيت أبيه أو بيت امه فينظر أيهدى له ام لا ؟ ، واستعمل عمر رضى الله عنه بعضهم فقدم بمال فقال من أين لك هذا ؟ قال تناتجت الخيول وتلاحقت الهدايا . قال : اى عدو الله هلا قعدت فى بيتك فنظرت أيهدى إليك ام لا ؟ فأخذ ذلك منه وجعله فى بيت المال . وأقره الصحابة والتابعون على هذا التصرف . والحكم بعينه فى الأموال التى تجمع من أموال الدولة بدون وجه حق ،

وعلى هذا الاساس تنبنى الفتاوى المذكورة فى الآتى :

١ — اذا مست الحاجة الى مبلغ كذا من المال لصرف مرتبات المجاهدين

المرابطين فى الحدود لحراسة القلاع الكائنة فيها ، والى مبالغ اخرى كثيره للاستعدادات الحربية من عتاد وذخائر ، وكان بيت المال فى ضائقة مالية لا يستطيع تلبية هذه الحاجات كلها . وكانت عند هند أموال كثيرة جمعت عن طريق الرشوة ، ووردت من خواص بيت المال فهل للخليفة أن يصادر الاموال المذكورة كلها دون أن يترك منها شيئا ويصرفها للوجوه المذكورة من المرتبات والنفقات الحربية ؟ . الجواب : نعم له ذلك بل يجب حتى ان التأخير فى ذلك مظنة إثم ووبال . « الفتاوى الفيضية »

٢ — اذا احتيج الى مبلغ كذا من المال لمرتبات المجاهدين المنوط بهم الدفاع عن القلاع الكائنة فى حدود البلاد الاسلامية ، ولم يوجد فى بيت المال ما يسد هذه الحاجة من المال ، ووجد لدى زيد وعمر وبكر وخالد مبلغ كذا من المال ورد من خواص بيت المال وجمع من الرشوة المأخوذة من أشخاص غير معلومين فهل يجوز للخليفة أن يصادر الاموال المذكورة ، ويصرفها للوجوه المشار اليها ؟ الجواب : نعم يجوز. « الفيضية »

٣ — اذا دفع لزيد من رجال الدولة ورئيس طائفة الجند مبلغ كذا من بيت المال لصرف مرتبات الطائفة المذكورة ولكنه لم يصرف لهم جزءاً من المبلغ المذكور بل احتفظه لنفسه كما جمع مبلغ كذا من المال عن طريق استغلال نفوذه الحكومى ، فهل يستطيع أمام المسلمين وسيد السلاطين أن يصادر المال المذكور كله ويرده الى بيت المال ؟ الجواب : نعم يستطيع .

ويعم هذا الحكم جميع موظفى الدولة ، وفى حكمهم نظار الاوقاف وكتبتها ، يصادر الاموال التى حصلوا عليها عن طرق غير مشروعة ويفصلون من أعمالهم . « در المختار »

وكما لا يجوز لموظفى الدولة الحصول على المال عن طريق غير مشروع فكذلك لا يجوز لهم أن يصرفوا مال الدولة لمن لا يستحقونه ولذلك اذا ملك موظف مختص شيئاً من مال الدولة لمن لا يستحقه أو خصص له منافعه يلغى هذا التمليك والتخصيص حتى ولو كان المملك والمخصص ولى الأمر.

وأما الاشخاص الذين يكونون قدموا إلى الدولة خدمة ممتازة او أبلوا فى المعارك بلاء حسنا فيجوز أن يمتلكوا شيئا من مال الدولة او تجعل لهم منافعه فى رأى معمول به كما ذكرناه فيما سبق .

وعلى هذا الاساس أفتى شيوخ الاسلام ومفتوه وفقهاؤه دون أن يجيزوا خلافه وفيما يأتى نذكر مثالا من فتاواهم فى هذا الموضوع .

مات زيد بلا وارث وهو يملك منزلا فآل المنزل الى بيت المال ووهبه السلطان احمد خان الاول لهند وسلمه اليها ثم ماتت هند عن ورثة فهل تصح الهبة المذكورة ويملك ورثة هند المنزل عن طريق الارث؟ الجواب : لايصح وفى هذه الصورة اذا استرد ملك الاسلام مد الله ظله الى مفارق الانام المنزل المذكور من ورثة هند ووهبه لعمرو وسلمه اليه ووقفه عمرو لنفسه ومن بعده لاولاد أولاد اولاده فهل يصح الوقف المذكور ؟ الجواب : لايصح . يصادر المنزل المذكور لبيت المال » .

هذه المسألة تتعلق بموضوع الاقطاعات . والذين يموتون بلا وارث تؤول اموالهم الى بيت المال وتكون رقبتها له ولا يصح تمليك او وقف اموال بيت المال مالم يكن هناك سبب شرعى يبرر ذلك .

والحكم بعينه فى تمليك وتخصيص المنافع الاميرية وحقوق التصرف ايضاً ومن ثمة قسمت الاوقاف التى من قبيل «التخصيص» الى قسمين تخصيص صحيح وتخصيص غير صحيح وبنى هذا التقسيم على ملاحظة الصحة واللزوم واذا كانت جهة التخصيص من مصارف بيت المال فالتخصيص صحيح ولازم ولا يجوز إلغاؤه واذا لم تكن من مصارفه يجب الغاؤه .

هذا ؛ وانا قد عرضنا لهذه المسائل على اعتبار أنها موضوعات فقهية وقانونية والافليس من غرضنا أن نقدم إلى القارىء معلومات مفصلة عنها فانا لو اردنا ذلك لاقتضانا أن نفرد لكل مسألة منها كتاباً مستقلا .

ترجمة القانون المنسوب الى السلطان محمد الفاتح[1]

كتاب قانون آل عثمان وصورة خط السلطان محمد خان أنار الله برهانه

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا القانون المدون فى هذا الكتاب هو قانون آبائى وأجدادى وقانونى أنا أيضاً فليعمل به أولادى نسلا بعد نسل .

الحمد لله حمداً بغير حد والثناء له تعالى ثناءاً لا يعد ، جل عن الريب والمنون ، وخلق العالم على أحسن نظام وترتيب ، ودبر شئونه وفقاً لقانون الحكمة بدون مشير . والصلوة والسلام على سيد الكائنات وفخر الموجودات سلطان المرسلين وأشرف النبيين . نظمت سننه الشريفة قواعد الدين وبينت أحاديثه الكريمة معالم الشرع المبين .

وبعد ، فيقول العبد الحقير الكثير التقصير كاتب هذه السطور وجامع هذه الاوراق المتضمنة القواعد السلطانية والقوانين الخاقانية محمد بن مصطفى المعروف بليس زاده التوقيعى : استخدمت فى خدمة التوقيع [= الطغراء الغراء] فى عهد سلطان سلاطين الدنيا وملك ملوك العالم حاليا الملك السعيد الرفيع القدر السامى المنزلة سمو الشمس دان وجه

---

(١) حرصت كل الحرص على الحرفية فى ترجمة هذا القانون ـ ماعدا الخطبة ـ لتكون صورة طبق الاصل فليعذرنى القارىء عن ركاكة الأسلوب وما يجده من جمل غامضة أو غير مفهومة فان الاصل ركيك وفيه جمل غامضة وغير مفهومة ولم أجد سبيلا الى جلاء غموضها وفهمها . المترجم

الارض لحكمه وكادت السماء تنزل على إرادته فاتح بلاد الروم بنصر الله الملك القيوم ناظم امور الدين والدولة وواضع قوانين السلطنة صاحب المغازى المشهورة فى أنحاء المعمورة مالك سرير الخلافة بالجدارة بطل العصر صاحب الامن والامان السلطان الاعظم خليفة الله فى العالم السلطان ابن السلطان محمد خان ابن السلطان مراد خان ابن السلطان محمد خان أبد الله دولته وأيد سلطنته .

لما جلس هذا السلطان السعيد المعروف معرفة الشمس المنيرة على سرير السلطنة وحصلت فتوحات كثيرة فى أيام سلطنته خصوصا فتح القسطنطينية عاصمة السلطنة حاليا ، تلك المدينة الكبرى المحروسة العظمى المحمية المرعية مطمح أنظار سلاطين الدنيا ، لم تكن القوانين الموضوعة فى عهد أجداده العظام مدونة فى سجل خاص فأمر بتدوينها بعد أن استكمل نواحى النقص فيها بما أوتى من رأى ثاقب يستكشف ما وراء الحجب ليعمل بها فى الديوان السلطانى أبد الآباد . وبموجب أمره الكريم قام هذا العبد الحقير بوضع القانون ناقلا عن لسان ذلك العاهل الوقور خالياً من الاصطلاحات ليستفيد منه الجمهور مرتباً على ثلاثة أبواب :

١ — فى بيان مراتب الأعيان والعظماء .

٢ — فى بيان التشريفات والمراسم اللازمة للسلاطين العظام .

٣ — فى بيان أحوال الجرايم [= الغرامات المالية] وعوايد كل ذى منصب .

إعلم أن الوزير الاعظم هو رئيس الوزراء والامراء وا كبرهم جميعاً ! ووكيل مطلق فى جميع الشئون . ودفتردارى وكيل مالى وناظر عليه . والوزير الاعظم مقدم على الجميع فى الجلوس والقيام وفى المرتبة .

وشيخ الإسلام رئيس العلماء وكذلك المعلم السلطانى فى مقدمتهم .

يستحسن أن يقدمهما الوزير الأعظم على نفسه مجاملة ورعاية . أما المفتى و « خواجه » (*) فهما فوق سائر الوزراء بمراتب كثيرة ويتصدران ايضاً .

وإذا عقد اجتماع عال او مؤتمر عام لا يدخل فى أهل الديوان غيرهم من الاشخاص الآخرين ، فليجلس اولا الوزراء فقضاة العسكر فالدفتردار فآغا الانكشارية وسائر آغوات الركاب (١) وأمير العلم (٢) وقپوجى باشى (٣) وأمير الاصطبل (٤) .

---

(١) آغوات الركاب هم آغا الانكشارية وأمير العلم وقپوجى باشى [= رئيس البوابين] وأمير الاصطبل ورئيس الچاويشين وچاقرجى باشى وچاشنيگيرباشى وآغوات البلوكات الستة . وسمى هؤلاء بأغوات الركاب لانهم كانوا يمشون بجوار جواد السلطان .

(٢) امير العلم هو حامل العلم السلطانى ورئيس فرقة الموسيقى [علم مهترلرى] التى كانت تعزف امام مخيم السلطان وقت السفر . وإمارة العلم وظيفة قديمة فى الدولة وامير العلم دون آغا الانكشارية وفوق سائر آغوات الركاب .

(٣) قپوجى باشى : رئيس البوابين . وظيفة قديمة فى الدولة . وكان فى الاول واحداً ثم صار اربعة ثم بلغ عددهم عشرة وعين احدهم رئيساً عليهم . وكان اذا عين امير جديد لافلاق وبغدان [رومانيا الآن وكانت تابعة للدولة] أرسل الامير الجديد الى مقر إمارته فى صحبة أحد منهم ويعود حاملا بهدايا ومكافآت محترمة .

(٤) وكان أمير الاصطبل اثنين أحدهما كبير والآخر صغير وكانت وظيفة الاول الاشراف على خدم الاصطبل السلطانى والسروجية وخدم جمال وخيول السلطان وبيع أعشاب المراعى الاميرية وتقديم مبلغ معين من أثمانها الى الركاب السلطانى وترك الباقى لنفسه . وأما الآخر فهو رئيس خدم الاصطبل الصغير وسائق المركبات السلطانية وكان من وظيفته توزيع الخيول على غلمان القصر فى السفر والمحافظة على «عربيات» السلطان .

(*) « خواجه » كلمة فارسية بمعنى الاستاذ والسيد لا تنطق واوها كأنها غير موجودة فتنطق الكلمة هكذا (خاجه) وتجمع على (خواجكان) وتنطق (خاجكان) ، ولعل المقصود منه هنا المعلم السلطانى الآنف الذكر .

يجلس دفتردارومالى فوق جميع الآغوات الموجودين فى بابى العالى . وهم فوق جميع بگوات السناجق ويتقدمون عليهم فى الجلوس ولو كان ايرادهم مائة الف آقچه ست مرات والبگوات يجلسون تحت الدفتردارين .

وآغا الانكشارية من الآغوات وكبير سائر الآغوات . يجلس أغا الانكشارية فى الصدر فأمير العلم فرئيس البوابين فأمير الاصطبل — وقد أصبح أمير الاصطبل اثنين فى الدولة حالياً — فچاقرجى باشى (١) فچاشنيگير باشى (٢) فسائر آغوات البلوك . فرئيس الچاويشين (٣) فكتخدا البوابين (٤) فجبه‌جى باشى (٥) فطوبچى باشى (٦) والجلوس فى الصدر بالديوان السلطانى رسم الوزراء وقاضى العسكر والدفتردارين والنشانجيين .

يجلس اولا الوزراء وفى احد الجانبين يجلس قضاة العسكر فالدفتردارون وفى الجانب الآخر يجلس النشانجى . وإذا كانت رتبة النشانجى الوزارة او إمارة الامراء يقدم على الدفتردارين . واما إذا كان نشانجيا برتبة السنجق فيجلس دون الدفتردارين فألقابه ألقاب الدفتردارين ومرتبته مرتبتهم .

---

(١) هو رئيس صيادى القصر السلطانى والمشرف على الطيور الجوارح التى يصطاد بها .

(٢) هو المشرف على طعام السلطان .

(٣) كانت وظيفته الوقوف بالديوان العالى ، إذا انعقد للنظر فى القضايا ، وفى يده عصا من فضة ، وتنفيذ القرارات التى يصدرها الديوان .

(٤) هو رئيس حراس أبواب القصور السلطانية — ماعدا باب السعادة — وكان عددهم ٢٣٤٢ نفر .

(٥) رئيس فرقة المهمات الحربية الملحقة بسلاح المشاة وكانت وظيفتهم تجديد واصلاح الآلات والذخائر الحربية والمحافظة عليها وقت الحضر وتوزيعها وقت السفر .

(٦) مدير مصانع المدافع .

ويجلس دفترداري فوق مربى الامراء السلطانية .

الوزراء وقضاة العسكر والدفتردارون سواسية فى الخلع ، والشتوية والصيفية والجراية .

والجلوس فى صفة الديوان العالى رسم الحائزين رتبة امير الامراء ويجلسون تحت الوزراء ويجلس الدفتردارون تحت قضاة العسكر . ويجلس امراء السناجق خارج الصفة .

وجميع دفترداري سواء أكانوا فى بابى العالى ام فى البلاد متساوون فى المرتبة ورسم الجلوس والالقاب .

والحائزون رتبة أمير الامراء دون الوزراء بدرجة واحدة . ويتصدرون على قضاة « تخت » ؟ ويجلس القضاة ، ماعدا قاضى عاصمتى ، دون دفترداري .

والذين لهم أن يعرضوا بالذات على ركابى السلطانى هم الوزير الاعظم وقضاة عسكرى ودفترداري . وكذلك يملك العرض من رجال القصر الداخليين « قپو آغاسى » (١) و« اوطه باشى » (٢) و «خزينه دارباشى» (٣) و« گيلارجى

---

(١) « قپوآغاسى » أو « باب السعادة آغاسى » هو رئيس الطواشى وسائر المستخدمين بداخل القصر والمشرف على دائرة الحرم السلطانى وكان ينظر أيضاً على أوقاف الحرمين . ثم أحدث منصب «دار السعادة آغاسى» واسنداليه كثير من إختصاص «قپو آغاسى» وبعد مدة كان «باب السعادة آغاسى» تابعاً « لدار السعادة آغاسى »

(٢) هو رئيس الآغوات الداخلية وكان يقوم بالباس السلطان ملابسه وخلعها ولذلك كان أقرب المقربين منه .

(٣) هو رئيس مستخدمى خزينة السلطان والمحافظ عليها . وعلى عمامته وسجادة صلاته .

باشى » (١) و «آغا سراى العامرة » (٢) . ولكن « قپو آغاسى » المسن هو الرئيس يجب أن يعرض « اوطه باشى » و «قپو آغاسى» فى اكثرالاحوال.
واما العرض كتابياً فرسم امراء الامراء والامراء والقضاة الذين هم « گوترى » (*)

الحصول على رتبة أميرالامراء طريق اربعة من رجال الدولة: دفتردارو المال ، والنشانجيون الحاصلون على رتبة البگوية ، والقضاة الذين راتبهم خمسمائة آقچة ، وأمراء السناجق الذين بلغت رواتبهم أربعمائة ألف آقچة ويجلس امراء السناجق فوق آغوات « گوترى » (*)

الحصول على وظيفة النشانجى طريق مدرسى الداخل والصحن . واذا كان أحد من الدفتردارين نشانجياً كان ذلك بحكم رتبة امير الامراء . واذا كان رئيس الكتاب نشانجياً كان بحكم السنجق . (٣)

---

(١) هو رئيس مستخدمى الـكيلار [= بيت المؤن] السلطانى والمشرف على المطبخ والقائم بصنع الحلويات والشربات .

(٢) هو المشرف على الدائرة المسماة «أندرون همايون» المؤلفة من الغرف الخاصة والـكبيرة والصغيرة والسراى وكان فى معيته أربعون آغا .

(٣) لم يكن عمل النشانجى وضع طغراء السلطان فحسب بل كان عهد اليه تحرير المكاتبات السلطانية الموجهة الى الدول ولذلك كان يختار من بين العلماء القادرين على الانشاء ثم عهدت وظيفة الانشاء الى رئيس الـكتاب فاقتصر عمل النشانجى على توقيع « الطغراء » وتسجيل الاقطاعات وقرى الاوقاف كلما انتقلت من شخص الى آخر .

(*) معناها بالجملة ولعل المقصود هنا من ليس لهم إيراد محدد من الامراء والقضاة وغيرهم .

واذاقبل دفتردار والمال سنجقاً يعطونه بخمسين وأربعمائة ألف. ويمنح السنجق آغا الانكشارية وغيره من آغوات الركاب بثلاثين وأربعمائة الف . ولا يكون أمير السنجق الذى ينقص راتبه [او ايراده] من اربعمائة ألف ، امير الامراء . واذا عين آغا دار سعادتى للسنجق عين بأربعمائة ألف .

وعند تناول الطعام بديوانى السلطانى يتناول الوزير الاعظم مع الدفتردار الاول ويتناول سائر الوزراء مع الدفتردارين والنشانجى ويتناول قضاة العسكر فى مائدة اخرى .

ومن الرسم وقانونى أن يكون دفتر داروالمال والنشانجى الحائز رتبة البكوية وزراء طفرة [دفعة] من غير تدرج .

والطعام المرفوع من أمام الوزير الاعظم لرئيس الجاويشين فليأ كلهمع زملائه . والطعام المرفوع من امام هؤلاء الوزراء لرئيس الكتاب فليتناوله مع مرؤسيه . والطعام المرفوع من أمام قضاة العسكر لكتخدا البوابين .

رئيس الجاويشين ورئيس الكتاب وكتخدا البوابين هم خدم ليس لهم أن يجلسوا فى الديوان . واذا دعت الحالة الى حضور أمير العلم ورئيس البوابين من الاغوات الى الديوان فليس لهما أيضاً أن يجلسا . وإذا دخل أمير امراء معزول او أمير معزول لمصلحة فليجلس امير الامراء المعزول دون الوزراء والنشانجى وليجلس الامير المعزول دون الدفتردارين . وأما إذا كان امير الامراء المعزول فى وظيفة دفتردار المال او آغا الركاب عن طريق منصب جديد فليجلس ؟!

ومن الرسم أن يُلبس الوزراء وقضاة العسكر والدفتردارون خدمتهم

« المجوّزة » . (١) وعلى الحائزين رتبة امير الامراء ، وامراء السناجق أن يلبسوا « اسكف » (٢) .

ولا بد من تعيين « سلام چاويشى » (٣) للوزراء والدفتردارين .

ومن قانونى أن يوقع الوزراء الطغراء ويساعدوا النشانجى ؟

الدفتردار الاول ناظر على جميع أموالى . وشئون العالم [المالى] مفوضة إليه فلايبت فيها بدون أمره بحيث لا تدخل « آقچه » ، ولا تخرج الا بعلمه . هو وامير امراء الروملى سيان فى المركز . وجميع دفترداري أموالى وكلاء عنى فى أموالى . فالقبض والصرف مفوضان إليهم . ونصب وعزل جميع الكتبة متروكان إليهم .

ليشاور الوزير الاعظم سائر الوزراء ودفتردارى فى شئون السلطنة ولا يطلع عليها احد غيرهم .

واصدار الاحكام بطغرائى الشريف مفوض الى ثلاث جهات : فلتكتب الأحكام المتعلقة بشئون العالم بعرض [بيورلدى] الوزير الاعظم . والاحكام المتعلقة بمالى بعرض [بيورلدى] دفتردارى . والأحكام الشرعية بعرض [بيورلدى] قضاة عسكرى .

---

(١) المجوزة من العمائم المستعملة فى الدولة العثمانيه وكانت تمتاز عن «القاوق» المسمى «سليمى» المحدث فى عهد السلطان سليم الاول بما عليها من القطعة الحمراء الشبيهة بالطربوش . وكان يلبسها رجال القصر فى الايام العادية ويلبسها القپو كتخداءون(*) و«أمين الشهر» والمحتسب وبعض الموظفين فى الاحتفالات .

(٢) كلمة رومية . وهى نوع من لباس الرأس منسوج من الصوف الاحمر وكان يلبسها سكان البحر الابيض المتوسط .

(٣) تشريفاتى الوزراء والدفتردارين .

(*) ممثلو الولاة لدى الباب العالى باستانبول .

وليشاور دفترداری الأول ایضاً الوزیر الأعظم فی الشئون المتعلقة بمنصبه بحيث لا تبق هناك شئون خفية تحتاج الى البحث مرة ثانية . !

ليحضر وزرائی وقضاة عسكری ودفترداریّ جنازة من يتوفون من أولادی .

ومن أصول الدفترداربن أن يرقوا الى وظيفة الدفتردار الاول . ويرقى الى وظيفة الدفتردار من كان فی احدى المرتبات الثلاث :

اولا — من قانونیأن يكون كل من امين الدفتر(١) و« امين الشهر » (٢) دفترداراً . ومن قانونی أن يكون القاضی الذی راتبه ثلاثمائة آقچه كبيرة دفترداراً . والقاضی الذی راتبه ثلاثمائة آقچه فی مرتبة خمسمائة آقچه . والقاضی الذی راتبه ثلاثمائة آقچه واحد فی الوقت الحاضر. ومن قانونی أن يكون دفترداراً بعد أن يبلغ الراتب ثلثمائة . ومن قانونی أن يكون رئيس الكتاب دفترداراً اذا روعی . وفی المراتب يجلس امين الدفتر [اولا] ويليه «أمين الشهر» ويليه رئيس الكتاب .

ويملك «أمين الشهر» مرتباً قدره مائة وعشرون آقچه .

وفی مراتب الكتبة يجلس رئيس الكتاب [اولا] فكاتب الانكشارية

---

(١) هو المشرف على شئون الاقطاعات بأنواعها الثلاثة : « خاص ، زعامت، تيمار » وسائر المعاملات المتعلقة بالاراضی وما اليها من الرسوم والاعتبار . وكان أمين الدفتر تابعاً للنشانجی فی الاول ثم تقدم عليه .

(٢) « امين الشهر » هو المشرف على الاعمال الانشائية الجارية فی القصور السلطانية من اعداد مواد الانشاء وصرف اجور الصناع والعمال ومرتبات بعض مستخدمی السرای . وليس المقصود هنا رئيس البلدية كما فی عرف استانبول .

فكاتب الروزنامجى فالمقابله جى والمقاطعه‌جى فالتذكره‌جى فكتبة الرئيس .

والكتبة المقدم ذكرهم فى مقام « الخواجه » يحضرون الديوان لابسين ملابس طويلة الأكمام .

وكتبة الرئيس [فى حكم] نفر . والكتبة الآنف الذكر عزلهم ونصبهم متروكان الى دفتردارى فانهم خدمهم . و « المتفرقة » ذوالمراتب مقدم على الچاشنيگيرين[١] . وبعد الچاشنيگيرين متفرقة الاقطاعة [التيمار] وبعدهم الچاويشون[٢] .

الاقدم من الچاويشين والكتبة هو موضع الرعاية والاعتبار .

واقطاعة [تيمار] الچاويش والكاتب حرة .

وطريق « المتفرقة » ذوى الرواتب الى دفتردارية التيمار . وطريق دفتردار التيمار الى وظيفة كتخدا الدفتردار[٣] ، واذاروعى كتخدا دفترالروملى

---

(١) هم الندل [السفرجية] وكانت مهمتهم تقديم الطعام عندما يتناول السلطان طعامه فى الغرفة المسماة « خاص اوطه » أيام انعقاد الديوان وكان عددهم أربعين فى الاول ثم ابلغ مائة وسبعة عشر نادلا .

(٢) الچاويشية وظيفة قديمة فى الدولة وكانت موجودة فى الدولة السلچوقية أيضاً وكان عددهم ثلثمائة أربعة وعشرين نفراً يستخدمون فى أعمال السفارة والمحادثات السياسية كما كانوا ينتدبون لاعمال التفتيش فى داخلية البلاد ثم اسندت بعض هذه الاعمال إلى « قپوجى باشى » كما اسندت السفارات والمحادثات السياسية الى آخرين واقتصرت أعمال الچاويشين على خدمة السلطان فى السراى ومصاحبته عندما يخرج للتجول فى العاصمة وحمل سلاحه المسمى « طوپوز » وإذا خرج السلطان للسفر يقفون أمام مخيمه عندما تعزف فرقة الموسيقى السلام السلطانى .

(٣) هو المشرف على شئون الاقطاعات من نوعى التيمار والزعامة وكان تابعاً لامانة الدفتر .

جاز أن يكون دفتردار المال .

وطريق كتبة الرئيس أن يكونوا كتاب الخزينة ، و«مقاطعه جى»[١] . و«محاسبه جى» [= رئيس الحسابات]

ومدرسو الصحن [اى المدارس الثمان العالية] فى مقام «مولويت» [= القضاء العالى] فيتصدرون على جميع أمراء السناجق . وكذلك مدرسو الداخل ومدرسو الخارج فى مقام «مولويت» ، ويكون [راتب المدرس] فى كل من الخارج والداخل خمسين آقچه . وقد سميت المدارس العالية التى أنشأتها حاليا «صحن» ، والمتخرج فى الصحن يصل الى وظيفة القضاء بخمسمائة آقچه وكذلك المتخرج فى مدرسة «آيا صوفيا» .

والملازم [المدرس] الجديد يلتحق بالمدرسة اول مايلتحق بعشرين آقچه ثم يصل الى خمس وعشرين آقچه فثلاثين فخمس وثلاثين فأربعين فخمس وأربعين فخمسين . والمدرس الذى راتبه خمسون آقچه يجلس فوق جميع الأغوات وبعد أن يصل المدرس الى مدارس الصحن يكون قاضياً بخمسمائة آقچه ثم يكون قاضى العسكر .

قاضى عاصمتى وأمراء الامراء سيان .

وإذا كان مدرس بمدارس «ايچ ايل»[٢] ، وراتبه عشرون آقچه ، قاضياً كان بخمس واربعين آقچه .

والقاضى الذى راتبه ثلثمائة آقچه فى مقام «مولويت» [= القضاء العالى]

---

(١) هو رئيس الكتبة القائمين بشئون المقاطعات الاميرية [= الالتزامات] وامين السجل المدونة فيه المقاطعات المذكورة .

(٢) تطلق على مدارس استانبول وادرنه وبروسه والمدارس الممتازة الموجودة فى المدن الكائنة حوالى البلاد المذكورة .

وسائر القضاة الذين تكون رواتبهم مائة وخمسين آقچه يجلسون فوق كتخدائى الدفتر وامراء الآلاى . واما «السنجق» فيجلسون تحتهم ولو كان راتب احدهم [أو ايراده] مائتى الف آقچه . واذا لم يبلغ [راتب منصبه] ثلثمائة لا يستحق دفتردارية المال . ومن قانونى اسناد الدفتردارية والنشانجية الى مدرسى « الداخل » ومدرسى « الصحن » أيضاً .

وليكن أبناء الوزير الاعظم «متفرقة»(١) بستين آقچه . وأبناء سائر الوزراء بخمسين آقچه . وأبناء النشانجيين بخمس وأربعين آقچه . وكذلك أبناء الحائزين رتبة أمير الامراء بخمس واربعين آقچه .

ليأخذ أبناء أمراء السناجق اقطاعة [زعامت] ايرادها ثلثون ألف آقچه وليمنحوا أبناء الجاويشين اقطاعة [تيمار] ايرادها عشرة آلاف آقچه

---

(١) لما بدأت الدولة تسند المناصب الكبيرة كالوزارة والقيادة وإدارة الأيالات الى الرجال الذين نشأوا من اطفال «ديوشيرمه» [= مجموعة] من أبناء المسيحيين ومن الغلمان المأسورين ـ فقد احدثت منظمة سميت «متفرقة» و«واجب الرعاية» يلتحق بها أبناء هؤلاء الرجال براتب حسب مناصب آبائهم ومراكزهم فى الدولة ، كما سبق ذكره فى متن القانون وذلك لان ابناء هؤلاء الرجال لم تكن لهم أصالة النسب كاولاد رجال الدولة القدماء ولم تكن القوانين الموجودة فى ذاك الوقت تسمح لهم بشغل المناصب الكبيرة بمجهوداتهم الشخصية مثل آبائهم فاحدثت لهم هذه المنظمة المسماة « المتفرقة » ثم توسع فى نظام المنظمة فأصبح يلتحق بها بعض رجال القصر حتى ابناء بنات السلاطين واخواتهم وبعض افراد من رجال العلم والفن والادب . ولم يكن لجماعة المتفرقة عمل فى الدولة يؤدونه وانما كانوا يكونون فى معية السلطان اذا خرج لتفتيش العاصمة مشوا أمامه واذا خرج للسفر كانوا فى معيته وقد زاد عددهم حتى بلغ ستمائة نفر .

وليقبض كل من أبناء المفتى و«خواجه»(١) من أبناء الموالى العظام ستين آقچه من «أمين الشهر». [وقد عرفت معناه فى ص ١٨٤]. ولأبناء قضاة العسكر راتب قدره خمس وأربعون آقچه.

ولابن معلم الامير السلطانى راتب قدره ثلاثون آقچه. ولأبناء مدرسى الصحن راتب قدره عشرون آقچه.

وإذا طلب الملازم الجديد «زعامة» فليعطوه «تيماراً» ايرادها عشرون ألف آقچه.

ومن قانونى أن يمنح الوزير الاعظم بدون عرض «تيماراً» ينقص واحداً من سته ؟

ويصرح لقضاة عسكرى أن يمنحوا بدون عرض آقچتى الجهات التى لا تتعلق بالسلاطين.

ويصرح لدفتردارى أن يمنحوا بدون عرض آقچتين من خزينتى العامرة.

وليوجه أمراء الأمراء الموجودون فى أنحاء المملكة التيمار والزعامة بالعرض وليقبل عرضهم.

ليعرض دفتردارونا الايراد والمصروف على سدتى السلطانية فى العام مرة واحدة وليلبسوا [عند العرض] ملابس فاخرة.

المدرس الذى راتبه خمسون آقچه يتصدر على رئيس الكتاب وأمين الدفتر.

وليقدم امين الدفتر و «امين الشهر» على آغوات البلوك. هذا، وأمين الدفتر قريب من الدفتر دار فى الرتبة فليقدم على «امين الشهر» ورئيس الكتاب ويصرح لدفتردارى ان يرشحوا من يخدمون الدولة لتولى الچاويشية والسپاهية والكتابة حسب استحقاق كل منهم وطريقه، وأن يعرضوا ذلك. وليعرضوا ايضاً منح السنجق والزعامة اذا لزم.

---

(١) راجع ص ١٧٨

ولتصرف خمس اذرع من الجوخ والبفتة لكل فرد من افراد الانكشارية كل عام .

قد نظمت شئون السلطنة بهذا القدر وليعمل على اصلاحها من يأتى من بعدى من اولادى الكرام .

في بيان ترتيب المراسم المتعلقة بشئون السلطنة :

لتنشأ اولا غرفة للعرض ولا جلس أنا وراء الحجاب فليدخل وزرائى وقضاة عسكرى ودفترداري على سدتى العلية أربعة أيام فى الاسبوع للعرض . واذا حضر وزرائى وقضاة عسكرى ودفترداري الى الديوان كل يوم فليستقبلهم رئيس الچاويشين وكتخدا البوابين ما شين أمامهم .

وإذا كانت هناك اخبار خارجية تتعلق ببعض المصالح فليبلغها آغا الباب كتخدا البوابين وليبلغها هو وزرائى وقضاة عسكرى ودفترداري . [أو: واذا كانت هناك أوامر تتعلق بالمصالح الخارجية فليبلغها عنى آغا الباب . . . الخ]

قد أنشئت غرفة خاصة ايضاً فليكن فيها مع غلمانها البالغ عددهم اثنين وثلاثين غلاماً ، « سلحدار »(١) و « ركابدار »(٢) و« چوقه دار »(٣) وغلام الشاشة(٤) . والاشراف على غلمان الغرفة المذكورة مفوض إلى رئيس الغرفة

---

(١) هو امين سيف السلطان . اذا سافر السلطان الى جهة كان يمشى فى يمينه حاملا السيف المذكور . ثم ارتفع شأنهم فأصبحوا يلازمون السلطان كل يوم ويعرضون عليه الشئون . وتولى كثير منهم الصدارة والوزارة والقيادة والايالات الكبيرة مثل مصر . والغى هذا المنصب فى سنه ١٢٤٧ هـ بعد وفاة السلحدار على آغا الگريدى . وهو آخر من تولى هذا المنصب .

(٢) كان يمشى فى ركاب السلطان ويمسك به اذا خرج وحده للتريض . اذ لا يوجد فى مثل هذه الحالة آغوات الركاب .

(٣) كان يحمل معطف السلطان فى الاحتفالات الرسمية ويمشى فى يمينه وكان ينوب عن السلحدار اذا غاب .

(٤) أمين عمائم السلطان والقائم بنظافتها .

[اوطه باشى] ومصرح للسلحدار أيضاً ان يؤدب الغلمان المبتدئين [الغشم] باللطم . واذا لزم إخراج هؤلاء من القصر [اى تعيينه فى وظيفة خارج القصر] يكون كل من السلحدار والركابدار متفرقة بخمسين آقچه على أنه اذا روعى يكون آغا البلوك ورئيس الچاشنيگير . ويكون من عداهما من غلمان الفرقة المارة الذكر بخمس وثلاثين آقچه . وقد حدث أن كان السلحدار رئيس البوابين .

ويخرج غلام الخزينة بثمانى عشرة آقچه(١) . ورئيس بيت المؤنه [گيلارجى باشى] هو الذى يضع الطعام امام السلطان .

قد عين للحديقة رئيس البستانيين فإذا ركب السلطان القارب فليمسك هو بالدفة وليضرب احد البستانيين المجداف(٢) .

وكان من أوامرى أن يخرج العرش ويوضع بميدان الديوان فى الاعياد .

وبعد مراسم تقبيل اليد يقف وزرائى وقضاة عسكرى ودفتردارىّ . . يقفون خلف قبل « خواجه » ومفتى الانام .

---

(١) كانت التقاليد تقضى ان الغلمان الاسرى وغلمان الديوشيرمة [المجموعة] اذا تم تعليمهم وتدريبهم سواء منهم من كانوا فى القصور السلطانية او فى ثكنات الغلمان المبتدئين [الغشم] الحقوا بمختلف أسلحة الجيش والوظائف المدنية ويسمى هذا الالحاق «چيقمه» [اى الخروج] . ولما ألغى نظام «الديوشيرمه» اقتصر هذا التعبير على الذين يخرجون من السراى السلطانية وحدها [اى يعينون فى وظيفة خارج السراى] .

(٢) استخدم بعض من غلمان «الديوشيرمة» والغلمان الاسرى فى حدائق القصور السلطانية وسموا « بستانجية » ثم استحالت هذه الجماعة الى منظمة عسكرية تحت ادارة رئيسهم واسنداليه الاشراف على شئون الامن حوالى البسفور مع القيام بالمحافظة على القصور السلطانية وحدائقها كما عهد الى طائفة منهم العمل فى القوارب السلطانية الخاصة وفى المراكب التى تنقل الخشب اللازم للمساجد الجارى انشاؤها والحطب للسراى .

ومن قانونى أن أقوم بنفسى لوزرائى وقضاة عسكرى ودفترداری الاول والنشانجی .

ومن قانونى أن يقبل الچاويشون اليد . ومن قانونى أن يقبل اليد ذو منصب من ذوى المناصب الصغيرة مثل الامير الاى . ومن قانونى أن يقبل « المتفرقة » اليد اذا كان ذا راتب . ومن قانونى أن يقبل « الچاشنيگير » اليد .

وليس بلازم أن يقبل اليدَ الزعيم [= صاحب الاقطاعة المسماة « زعامت »] ولا أصحاب الاقطاعات المسماة «تيمار» وأما اذا كانت متفرقة [راتب] الزعيم مائة وخمسين آقچه فمن قانونى أن يقبل اليد .

ومن قانونى أن يقبل اليد قضاة تكون رواتبهم فوق ستين آقچه ، وسبعين آقچه .

ومن قانونى أن يقبل اليد المدرس الذى راتبه عشرون آقچه .

وليس من قانونى أن يقبل اليد من طوائف الكتاب كتبة الرئيس وكتبة الدفترخانه الذين هم نفر ، لاعند تعيينهم كتبة ولا فى العيد . ومن قانونى أن يقبل اليد « محاسبه جى » (١) وكاتب الانكشارية (٢) وكاتب السپاهية والروزنامجى (٣) من ذوى المناصب .

---

(١) هو المشرف على حسابات الدولة من ايراد ومصروف .

(٢) هو القائم بتسجيل اسماء جنودالانكشارية فى سجل خاص ووضع كشوف مرتباتهم التى كانت تصرف فى ثلاث دفعات فى السنة .

(٣) هوكاتب اليومية يقيد المبالغ الموردة للخزينة والمصروفة منها فى سجل يسمى « روز نامه » [= دفتر اليومية] .

والذين يحضرون الديوان عليهم جميعاً أن يحضروا لابسين قفتاناً ذا كم طويل فهم فى مقام (خواجه) (*) .

واذا توجه جنابى العالى الى السفر فمن القانون أن يقترب منى وزرائى وقضاة عسكرى ودفترداريّ .

ومن قانونى أن يقترب ايضاً المعزولون من الحائزين رتبة أمير الامراء والامراء اذا دعوتهم .

وليدفع لكل من وزرائى خمسون قطاراً [القطار مؤلف من خمس رؤس] من ابلى وبغلى وخمسة قطر من البغل لكل من دفترداريّ وذلك لتحمل خزائنهم (عند السفر) .

وليس من قانونى أن يتناول احد الطعام مع جنابى العالى الا أن يكون من الأهل والأسرة . وكان أجدادى العظام يسمحون لوزرائهم أن يتناولوا معهم الطعام فالغيت أنا هذا التقليد .

واذا خرجت للسفر فليمش فى ركابى السلطانى رئيس « الصولاق » (١) ورئيس « البيك » (٢) .

---

(١) «صولاق» بمعنى أعسر والمقصود هنا جماعة ينحصر عددهم فى أربعمائة نفر تحت ادارة رئيس يسمى « صولاق باشى » وكانت وظيفتهم المشى فى ركاب السلطان سواء فى السفر او فى الاحتفالات الرسمية وكان رئيسهم يمسك بلجام جواد السلطان عند اجتيازه قنطرة [كبرى]

(٢) كلمة فارسية بمعنى المراسل والدائر فى فلك الغير . والمراد هنا نوع من جنود « الصولاق » وانما يتقدمونهم فى المشي فى ركاب السلطان ويمتازون عنهم فى الزى فحسب ولم يكن لهم اى عمل فى الدولة سوى المشى المذكور فكانوا جنود الزينة وكفى

(*) راجع ص ١٧٨ .

ويحملون صندوقاً صغيراً فيه عملة «فلورى» لمصروف الجيب .

وأى شخص يتولى السلطنة من أولادى فمن المناسب أن يقتل إخوته من أجل نظام العالم وأجازه اكثر العلماء فليعملوا به .

وليدفع الى غلام غرفتى الخاصة خلعة وقفتان أربع مرات فى السنة . وعلاوة عليها فلتدفع تقية من «چاتمه» ومداس [حذاء]

ليبق ختمى المبارك لدى وزيرى الاعظم . واذا لزم أن تختم خزانتى ودفترخانتى أو تفتحا فلتفتحا ولتقفلا بمحضر من دفتردارىّ وبأوامرهم .

وما يورد الى خزينتى وما يصرف منها من النقود فليورد وليصرف بأوامر دفتردارىّ .

فى بيان أحوال الجرايم [= الغرامات المالية] والمحصولات المخصصة بذوى المناصب .

اولا — لتكن الجريمة [= الغرامة] فى القانون ثلاثة آلاف آقچه سواء لصوباشىّ الميرى اولصوباشىّ ذوى التيمار(١). ولتكن [اى الغرامة] خمسمائة والف آقچه لفقأ العين ، وألف آقچه لكسر الذراع ، وخمسين آقچه لشج الرأس .

اذا سب شخص شخصاً آخر يعزر شرعاً وتؤخذ منه غرامة أربعين آقچه.

اذا نظر شخص الى حرم شخص آخر تؤخذ منه غرامة عشرين آقچه .

اقطاعة [تيمار] الچاويش والكاتب حرة مطلقة من سلسلة البكوات الا أن تكون امور عظيمة . قرى وتيمار خواصى السلطانية حرتان مطلقتان من سلسلة البكوات . و«گوترى» خاص بدفتردارىّ ومفوض اليهم مايلزم له من الحل والعقد ! ؟ .

---

(١) ترجمة حرفية للاصل بدون أى تصرف . ولا سبيل الى فهم المقصود . راجع ص ١٤٥ لمعرفة معنى « صوباشى »

إذاوجد دفترداری - لدى أى شخص سواءلدى وزرائى اوغيرهم، خاصاً يصلح لى فليأخذوه من يده وليعطوه بدلا منه ما كان بغير حاصل من خواصى!؟

وليكن وزرائى بمائة ألف آقچه اثنى عشرة مرة ، وليعين الخاص بهذا المقدار ؟!.

عوائدهم :

اذا ورد الى سدتى العلية خراج وهدية من أى جهة كانت فلترد حصص لوزرائى ودفترداری - ايضاً . وليبلغ امراء الامراء مائة الف ، عشر مرات واثنتى عشرة مرة . ليكن اولا بمائة الف ، ثمانى مرات ؟!

ليمنح دفترداری - « خاصاً » ، وليمنحوا مائة الف آقچه ست مرات . وان صرفت « ساليانة » من الخزينة فالساليانة عالية فلتصرف من مائة وخمسين الف الى مائتين واربعين الف .

وان صرفت « ساليانة » من خزينتى لوزرائى فلتصرف من مائتين وأربعين ألف الى ثلثمائة وخمسين الف آقچه وليصرف لسائر وزرائى مائة وعشرون ألف آقچه .

واذا طلب الوزير الاعظم التقاعد فليصرف له مائة وخمسون الف آقچه فى السنة .

وليكن تقاعد امراء الامراء بمائة الف آقچه . وليكن تقاعد سائر دفترداری المال بثمانين ألف آقچه . وامراء السناجق بستين الف آقچه .

لا يمنح اولاد بناتى وظيفة امير الامراء وليمنحوا وظيفة السنجق الثقيل. فليصرف لوزرائى القدر الكافى من عشب مروجى . وليقبضوا من « أمين الشهر » القدر الكافى من ثمن الحطب .

عائدة دفترداری :

ليأخذوا حق التوقيع بواقع الف آقچه عن كل حِمل [الحِمل مائة الف قرش] من الاحمال التى هى قيمة «الخواص» التى يمنحها الامناء من «خواصى» السلطانية سواء بالالتزام او بالامانة .

وكلماورد الى خزينتى العامرة اى مبلغ فليأخذوا رسماً باسم «كسر الميزان» بواقع اثنين وعشرين آقچه عن كل ألف آقچه . وليأخذوا رسم الكتابة للكتبة الذين يخدمون الدفتردارين وليدفعوا لدفترداری معونة من عشور «خواصى» السلطانية تساعدهم فى ما كولاتهم

اذا جاءت هدية الى جنابنا العالى من اى جهة فليعطوا وزرائى ودفترداری حصة منها .

وليأخذ القضاة سبع آقچات عن التسجيل الواحد ، واثنتين وثلاثين آقچه عن الحجة واثنى عشرة آقچه عن استخراج صورة من السجل ، واثنى عشرة آقچه عن الامضاء ، وعشرين آقچه فى كل الف عن قسمة الاموال، واثنتين وثلاثين آقچه عن عقد النكاح إن كانت بكراً وخمس عشرة آقچه إن كانت أيماً .

وليصرف لقاضى عسكرى مرتب يومى (١) من الخزينة قدره خمسمائة آقچه. ولآغا الانكشارية أربعمائة آقچه ، ولأمير العلم مائة وثمانون آقچه ، ولامير

---

(١) هذه المرتبات وان كانت يومية ولكنها لم تكن تصرف يوميا وانما كانت تصرف لبعض الموظفين مرة فى الشهر بواقع المقدار المقرر عن كل يوم ، وفى اربعة أقساط لمعظمهم ، وكل قسط منها يسمى « مواجب » وكانت مواجب الجنود بعضها يصرف لهم فى ثكناتهم ، والبعض الآخر فى ديوان الصدر الاعظم . وكان من التقاليد صرفها يوم الثلاثاء .

الاصطبل مائة وخمسون آقچه . ولكل من رؤساء البوابين مائة وخمسون آقچه.
ولكل من آغوات البلوك مائة وخمس وعشرون آقچه ولرئيس الچاويشين
ستون آقچه ، ولكتخدا البوابين ستون آقچه ، ولكل من رئيس الجبه جية
ورئيس المدفعيين خمسون آقچه .

ولتكتب الالقاب كالآتى :

لقب الوزير الاول : « الوزير الاعظم والدستور الاكرم المشير الافخم نظام العالم ناظم مناظم الامم انيس الدولة القاهرة جليس السلطنة الزاهرة مدبر أمور الجمهور بالرأى الصائب متمم مهام الانام بالفكر الثاقب مؤسس جناب الدولة والاقبال مخصص اركان السلطنة والاجلال المحفوف بصنوف عواطف الملك الاعلى الوزير الاعظم أدام الله اجلاله » .

وليختصر هذا اللقب قليلا اذا كتب الى سائر الوزراء .

وليكتب الى المفتى و « الخواجه » [لعله معلم السلطان] وقضاة العسكر كالآتى :

« اعلم العلماء المتبحرين افضل الفضلاء المتورعين ينبوع الفضل واليقين وارث علوم الانبياء والمرسلين كشاف المشكلات الدينية وصحاح المغلقات اليقينية (١) كشاف رموز الدقايق حلال مشكلات الحقايق شيخ الاسلام والمسلمين مفتى أنام المؤمنين المستغنى عن التوصيف والتبيين استاذى مولانا محمد أدام الله فضائله . ومولانا بدر الدين القائم بخدمة الفتيا . ادام الله تعالى فضائله » .

وليكتب من جانب الديوان الى دفتردارى على النحو الآتى :

« افتخار الامراء والاكابر مختار الكبراء والافاخر مستجمع المعالى

---

(١) فى الاصل [متعلقات تعينيه] .

والمفاخر ذو القدر الاتم والصدر الاكرم المختص بمزيد عناية الملك البارى دفتردار خزينتى العامرة دامت معاليه.

وليكتب من جانب المالية كالآتى :

« قدوة أرباب العز والاقبال عمدة أصحاب القدر والاجلال . جامع وجوه الاموال . عامر الخزاين بأحسن الأحوال المختص بمزيد عناية الملك الاعلى دفتردار خزينتى العامرة دامت معاليه » .

وليكتب الى امراء الامراء كالآتى :

« اميرالامراء الكرام كبيرالكبراء الفخام . ذوالقدر والاحترام صاحب العزوالاحتشام المختص بمزيد عناية الملك العلام اميرامراء «قرمان» دام اقباله».

وليكتب لأمراء السناجق كالآتى :

« قدوة الامراء الكرام عمدة الكبراء الفخام ذو القدر والاحترام صاحب العز والاحتشام المختص بمزيد عناية الملك العلام » .

وليكتب لآغا الانكشارية وسائر اغوات الركاب كالآتى :

« افتخار الأماجد والاكارم جامع المحامد والمكارم المختص بمزيد عناية الملك الدائم » .

وليكتب لقضاة « تخت » الذين مرتباتهم خمسمائة آقچه كالآتى :

« أقضى قضاة المسلمين اولى ولاة الموحدين معدن الفضل واليقين وارث علوم الانبياء والمرسلين حجة الحق على الخلق اجمعين المختص بمزيد عناية الملك المعين » .

وليكتب الى مدرسى الصحن ومدرسى الداخل كالآتى :

« افتخار العلماء المحققين مختار الفضلاء المدققين . ينبوع الفضل واليقين وارث علوم الانبياء والمرسلين المختص بمزيد عناية الملك المعين » .

وليكتب الى القضاة الذين رواتبهم مائة وخمسون آقچه كالآتى :

« قدوة قضاة الاسلام وعمدة ولاة الأنام مميز الحلال عن الحرام » .

وليكتب الى من هم أقل رتبة بحذف جملة .

وليكتب الى «أمين الشهر» ورئيس الكتاب كالآتى :

« افتخار الاعالى الاعاظم . مختار الاهالى والاكارم المختص بمزيد عناية الملك الدائم » .

وليكتب الى الچاويشين كالآتى :

«قدوة الاماثل والاقران »

وليكتب الى الكتبة : «قدوة أرباب التحرير»

وليكتب «الاخ» الى الحكام الجليلى القدر ذوى السلطنة المطيعين اذا كان صاحب سكة وخطبة فى المملكة .

وليكتب «الأمير» اذا كان حاكم بلد أبآعن جد وليس بصاحب خطبة ولا سكة .

واذا لزم أن يكتب حكم الى ابنى الامير، أدام الله عمره ، فليكتب هكذا: نجلى الاعز الاسعد الامجد وارث الملك السليمانى نورحدقة عينى السلطانية سيد السلاطين صاحب العز والتمكين ، محض لطف الله الكريم نجلى السطان جم أدام الله بقاءه .

وليكتب الى أولاد المدرسين والباشوات : «قدوة المخاديم الكرام عمدة المعاظم العظام »

وإذا لزم ان يكتب حكم الى إحدى الخواتين أو احدى بنات السلاطين والامراء فليكتب هكذا : حضرة صاحبة العفة والعزة والجاه والدولة «درج السلاطين وغرة برج سيد الخواتين الاعظم بنات السلاطين » عائشة بنت نجلى السلطان محمود دامت عصمتها .

« تمت(*) الكتاب بعون الملك الوهاب» .

« تحريرآ فى غرة ذى الحجة الشريفة سنة ١٠٢٩ »

(*) هكذا فى الأصل :

هذا هو القانون المقول إن السلطان محمد الفاتح أمر بوضعه وانه المجموعة الاولى المنقولة من النسخة الاصلية الموجودة فى المكتبه الملكية فى «ڤينا».
وقد نقلناه مترجماً ترجمة حرفية(١).

وهناك مجموعة اخرى يقال انها ايضاً منسوبة الى السلطان المشار اليه ومدونة فى فهرست مكتبة «ڤينا» ولكنها خالية من الامضاء والتاريخ وظاهر ان هذه المجموعة الاخرى الخالية من الامضاء والتاريخ ليست

---

(١) ان المؤرخ التركى المرحوم عبد الرحمن شرف يلفت النظر فى التكملة الاولى الى عدم ذكر مؤرخينا شيئا عن وجود مثل هذا القانون ويقول : نرى المؤرخين الأفرنج يتحدثون فى كتبهم عن قانون منسوب الى محمد الفاتح نقلا عن المؤرخين الروم ولكننا لم نعثر على القانون المذكور مجموعاً ومدوناً لا فى قيوداتنا القديمة الحكومية ولا فى كتبنا التاريخية وذلك إما لان القانون المتحدث عنه قد أصبح بما أدخل عليه فى عهد السلطان سليمان القانونى من التعديلات والملحقات ، قديماً عديم الاعتبار فاغفله المؤرخون لهذا أو لسبب آخر من الاسباب . ومع ذلك قد دون وروى بعض مواده .

وقد أطال المؤرخ هامر النفس فى التكلم على ما يحتويه هذا القانون من المواد ووقف بصفة خاصة عند مادة قتل الاخ وقفة طويلة حيث وجدفيها فرصة طيبة للاعراب عن عدائه الموروث للدولة العثمانية وحقده الكمين عليها .

للفاتح كما يفهم من صريح محتوياتها . ولا يقطع بوجود مجموعة كهذه المجموعة ولاى عهد من العهود .

يذكر كاتب چلبي فى كشف الظنون وجود ثلاثة قوانين للدولة العثمانية مع الاشارة الى موضوعاتها ولكن واحداً من هذه القوانين الثلاثة لا يوافق المجموعة المنقولة من نسخة فينا فى ترتيبها . ولا شك أن هذه المجموعة الثانية ليست للفاتح كما قلنا آنفاً وأصل المسألة هل المجموعة الاولى التى نقلناها حرفياً فيما تقدم للفاتح اولا ؟ هذه المسألة هى التى تجب دراستها .

رأينا أن مجموعتنا هذه مؤرخة غرة ذى الحجة سنة ١٠٢٩ ﻫ ولا ريب فى أن هذا التاريخ تاريخ النسخ ويوافق مرور ١٤٣ سنة على وفاة الفاتح . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى ليس بمعلوم من هو الناسخ ومن أين نسخ وأين يوجد الاصل ؟اذ لم يعثر فى دار المحفوظات [خزينة الاوراق] عندنا على مجموعة كهذه المجموعة إذن فمن الضرورى أن نرجع الى الاصول العلمية لنعلم نصيب هذه المجموعة من حيث صحة نسبتها الى الفاتح او عدم صحتها إذ ان صحة مؤلف رسمى تثبت أولا بأدلة رسمية . ثم أن المؤلفات على وجه العموم رسمية كانت او غير رسمية إنما تعلم صحة نسبتها الى مؤلفيها بقوة الرواية عنهم وبما يحتويه الكتاب نفسه من أبحاث .

وتعتبر المؤلفات صحيحة النسبة الى مؤلفيها اذا كانت روايتها عنهم قوية وكانت محتوياتها لا تدفعنا الى الشك فى صحة النسبة اليه . وأما اذا كان الامر على عكس ما قلناه فالذى يحصل عندنا هو الشك لا العلم ولا الظن .

مثلا إننا نعلم بالادلة الرسمية وبالروايات المتواترة أن هناك مجموعة قوانين تعرف بقانون الاراضى ومجموعة قوانين اخرى تعرف بمجلة الاحكام الشرعية وأن هاتين المجموعتين وضعتا من قبل هيئة علمية وأعلنت قانونيتهما للعمل بهما ثم الغيتا بعد أن عملت بهما مدة من الزمن .

وكذلك نعلم بالروايات أن التاريخ المنسوب الى ابن خلدون مثلا انما هوله . والروايات المتواردة فى هذا الصدد من القوة والشهرة بحيث لايخامرنا معه اى شك فى ذلك . وهكذا الشأن فى مؤلفات المولى خسرو وغيره من كبار العلماء .

واما الكتاب المؤلف ضد محى الدين بن عربى المنسوب الى العلامة سعد الدين التفتازانى فنشك بحق فى صحة نسبته اليه نظراً الى مندرجاته .

هذه المجموعة المقول انها تحتوى قوانين الفاتح كما لا توجد فى دار المحفوظات عندنا فكذلك لم يذكر مؤرخونا شيئاً عنهاولاعن محتوياتها انما يتحدثون فى بعض كتب التاريخ عن قانون ، ومع عدم التوافق بينه وبين المجموعة التى بين أيدينا فى الترتيب لم يذكروا أنهم رأوه ولم يشيروا الى شىء مما يحتويه . وليست هناك رواية اخرى غير هذه الرواية . ولنفرض أن شخصاً ما وضع من تلقاء نفسه قانوناً خاصاً بعهد من العهود وأودعه مكتبة من المكاتب فماذا تكون قيمة هذا القانون ؟ فالقانون الموجود فى مكتبة « ثينا » الذى هو موضوع بحثنا من هذا القبيل وليس بينهما كبير فرق.

توجد فى مكتبتى الخاصة مجموعة مخطوطة تحمل اسم « مجموعة القانون الجديدة » وتضم فتاوى ومسائل تعود الى عهد المغفور له السلطان سليمان القانونى والعهود المتأخرة عنه . وهناك مجموعة أخرى تسمى «معروضات ابى السعود» تضم فتاوى فى شتى الموضوعات ومختلف المسائل. والمفهوم أن شخصاً جمع هذه الفتاوى والمسائل من هنا وهناك ونسبها الى ابى السعود واذا لم تتأكد أنها صادرة منه فليس لها اى قيمة .

وبعد هذه الملاحظات نعود الى المجموعة موضوع بحثنا لنلقى نظرة على ما تحتويه من الخطبة والمواد . نجد الخطبة تتحدث أن هذه القوانين وضعت بأمر السلطان محمد الفاتح ونقل عن لسانه بمعرفة شخص يسمى محمد بن مصطفى

الشهير بليس زاده القائم بخدمه التوقيع السلطانى فى ذاك العهد .

وتدل التحريات التاريخية على أنه لا يوجد توقيعى بهذا الاسم بين من تولوا عمل التوقيع فى عهد الفاتح وانما يؤخذ من أقوال الباحثين المؤرخين أنه وان كان يوجد شخص معروف بـ « ليس چلبى » عاش فى عهد كل من الفاتح وابنه السلطان بايزيد الثانى ولكن ليس اسمه محمد وليس اسم ابيه مصطفى وانما اسمه نور الدين حمزه واسم ابيه على .

هذا ، وكان المفهوم من خطبة المجموعة أنها تحتوى قوانين آبائه وأجداده . والحال انها لا تحتوى عشر القوانين المذكورة كما أن اكثرها لا يوافق قوانين آبائه وأجداده .

يضاف الى ذلك أن محتويات المجموعة عبارة عن الامور التى تأتى فى الدرجة الثانية او الثالثة فى الاهمية وعن الشؤن التى ليس لها اى اهمية ومن هذه الوجهة لا موافقة بين الغرض الوارد ذكره فى الخطبة وبين المحتويات. ومن المشكوك فيه جداً أن الفاتح اطلع عليها ووافق فان المطلع على هذه المجموعة يرى أن اسلوبها ابدائى وفيها أخطاء لغوية وينقصها الترتيب ويسودها الفوضى وعدم الانسجام . مثلا ذكر عنوان الباب الثانى فى الخطبة هكذا : « فى بيان الاصول والمراسم اللازمة للسلاطين العظام » وعنوان الباب الثالث هكذا: « فى بيان أحوال الجرايم وعوائد ذوى المناصب » ولكن ذكر العنوان الأخير فى المتن هكذا : « فى بيان أحوال الجرايم والمحصولات المخصصة بذوى المناصب » .

وهذا الاختلاف المشاهد فى عبارة العنوانين جدير بالالتفات اليه . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى لا مناسبة ولا ترتيب بين العناوين والمواد المذكورة بعدها . وقد ذكرت الوظائف والمرتبات والمؤسسات التى يتخرج فيها

الموظفون مبعثرة هنا وهناك ومختلطة لا رابطة تربط بعضها ببعض . كما أنه لا يفهم المعنى المقصود من بعض الجمل والعبارات .

والخلاصة ان المجموعة ليس فيها ترتيب ولا تصنيف مع أن اهمية الموضوع ظاهرة . ومن المستبعد جدا أن شخصاً يشغل منصب التوقيعى الرفيع يضع قانوناً غير مرتب مثل هذا القانون ويقع هذا القانون ، من سلطان عالم اديب مثل السلطان محمد الفاتح ، موقع القبول والموافقة .

فاننا نعلم من كتب التراجم أن الاشخاص الذين وصلوا الى منصب التوقيعى فى ذاك العهد كانوا فى مستوى رفيع من العلم والثقافة . وكانوا جميعاً من الذين حذقوا العلوم العقلية والنقلية . وكان بعضهم شاعرا منشئاً .

لسنا نريد أن نقول : لم يكن هناك قانون فى عهد الفاتح إذ لاشك فى أن السلاطين العثمانيين ابتداء من مؤسس السلطنة الغازى عثمان أصدروا ـ بحكم السلطة المخولة لهم ـ أوامر وقوانين الى جانب الاحكام الشرعية وكان ضمن القوانين المذكورة قوانين وأوامر اصدرها الفاتح فيما يتعلق بشؤون الجيش والموظفين ومرتباتهم ، ويخص بقواعد التشريفات والمراسم السلطانية والتعزير والتأديب ، والشؤون البلدية والمرافق العامة والاوقاف والنظارة عليها . . . الخ وقد ذكرنا أهم مواد هذه القوانين فيما تقدم .

نعم ، قد يكون بعض المواد التى تضمها المجموعة مطابقاً للواقع جمعها شخص «هاو» من هنا وهناك او سمعها من آخرين فدونها فى هذه المجموعة هذا ممكن ومحتمل .

ولكن لا يمكننا أن نمنحها ثقتنا ولا نبنى عليها أحكامنا لانها تتعلق بالنظم الاساسية التى تسير عليها الدولة . ولو كانت القوانين المذكورة وضعت ودونت بأمر الفاتح حقيقة لكان يتناقلها الخلف عن السلف ولكانت نسخها توجد فى دور الكتب وعند العلماء ورجال الدولة وكانت تصل الينا فى عهدنا الحالى .

يا للعجب ! هذه القوانين التى تخص شئون الدولة ولا توجد فى دور المحفوظات ولا فى دور الكتب الكائنة فى بلادها وانما توجد فى مكتبة امبراطورية اجنبية !.

والواقع أننا اذا تركنا بعض المسائل مما تحتويه المجموعة جانباً فما عداه يتعلق بالمراسم والمراتب والمرتبات . وانما المهم الجدير بالعناية هي المواد المتعلقة بقتل الاخ والجرايم [الغرامات المالية] واسناد بعض المناصب .

غنى عن البيان أن القتل من أعظم الجرائم فى الشريعة الاسلامية لايقتل اى شخص بغير سبب . وقد وردت آيات كثيرة تنهى عن القتل وتدل على أنها جريمة شنعاء منكرة . وكان قانون الدولة العثمانية هى الشريعة الاسلامية .

وكان السلاطين لا يبتون فى المسائل الهامة من غير أن يستشيروا العلماء ويأتى السلطان محمد الفاتح فى مقدمة من يحترم هذا المبدأ ويحرص كل الحرص على تطبيقه(١) . فانه كان عالماً دينيا كبيرا واقفاً على أحكام القرآن ومن كانت هذه ثقافته وصفته فلا بد أن يقدر شناعة جريمة القتل هذا الى انه رحمه الله كان دائم الاتصال بعلماء الدين مثل المفتى وقضاة العسكر وغيرهم من كبار العلماء . ومن المؤكد أن هؤلاء العلماء الاعلام كانوا يصرفون الفاتح عن نيته بمجرد الإطلاع عليها لو فرضنا انه أراد أن يقرر مبدأ قتل الاخ خوفا من أن تتكرر الحوادث المؤسفة التى قام بها الامراء السابقون ، وحرصاً على سلامة الوطن من الانقسام ، وتجنيب البلاد ويلات الحروب الاهلية ، وضمانا للامن العام . ولكن لم يصل الينا اى اعتراض أو لغط اثير حول هذه المسألة الخطيرة .

وفى المادة الخاصة بقتل الاخ نرى الجملة الآتية : «وأجازه اكثر العلماء ...الخ » وينقل المؤرخ النمسوى هامر الجملة المذكورة على النحو الآتى الذى لايوافق نسختنا :

---

(١) كان الشعب العثمانى الى عهد الفاتح فى حالة جيش مقاتل وهو الذى أحال هذا الشعب الى دولة متمدينة منظمة فمست الحاجة الى وضع نظم وقوانين تتفق والوضع الجديد وتستجيب حاجة الدولة فى وضعها الجديد وباستشارة العلماء نظم ادارة الدولة ورتب مصالحها الهامه . « تاريخ الدولة العثمانية »

« ذكر أكثر الفقهاء أن من جلس على العرش من أولادى وأحفادى الامجاد فله أن يقتل اخوته لسلامة الجمهور ، ومن أجل ذلك فعليهم أن يعملوا به » ليس هناك عالم حقيق واحد ـ بله أكثر العلماء والفقهاء ـ يجيز هذه الفعلة الشنعاء . فاننا نعلم من كتب العلماء والفقهاء الذين نشأوا فى ذاك العهد والعهود التى سبقته مبلغهم من الصلابة الدينية ومتانة الخلق . منعتهم خشيتهم الدينية أن يضيفوا الى الكتب الفقهية شيئاً من تلقاء أنفسهم مع أن ثقافتهم الواسعة ونضوجهم العلمى يسمحان لهم بذلك .

والواقع أنه يجوز ، سياسة ، قتل من يسعى بالفساد ويعمل على إخلال الأمن بالبلد ويقوم بأعمال تهدد سلامته فى الداخل والخارج اذا ثبت عليه ذلك ثبوتاً شرعياً ولكن ليس بجائز قتل اى شخص بناء على مجرد الوهم والظن . ولا سيما الأطفال الابرياء فلايدور بخلد أحد مثل هذه الفكرة التى ترمى الى قتلهم بناء على مجرد الوهم ولا يمكن أن يصدر أى عالم دينى فتوى بقتلهم . واما اذا كان المقصود من الاخوة المذكورة فى المادة المشار اليها الاخوة الساعين بالفساد فلا يكون هذا موضع نقد أو اعتراض . ولكن الاخوة الذين يلتزمون الطاعة المطلقة ويعيشون لخدمة الدولة والمجتمع ، وكذلك الاطفال الابرياء كيف يستساغ قتلهم حفظاً لنظام العالم ؟

نحن لا نبدى هذه الملاحظات مدفوعين بما نشعر به نحو الفاتح من الحب والاحترام ، وانما نبديها مستمدة من نور العقل وحكمة المنطق . فانه اذا لم تكن هناك وثيقة تصلح للاستدلال بها ولم يثبت أن الغرض من المادة المذكورة كما فهم المؤرخ هامر [ونقلناه آنفاً] فالحكم الذى يصدره اى شخص محايد خال من الاغراض لا يعدو غير الذى وصلنا اليه .

الآن ننتقل الى باب الجرايم

أشرنا فيما تقدم الى عدم المطابقة بين عنوان الباب الثانى المذكور فى الخطبة وفى متن القانون فإنه ذكر فى الخطبة بصيغة تختلف عما ذكر به فى المتن ،

وبقطع النظر عن هذا الاختلاف لايفهم المقصود من المواد الاولى الواردة بعد العنوان المذكور فى المتن ، وذلك بسبب الاخطاء اللغوية .

فالمادة الاولى من المواد المذكورة هكذا : « اولا لتكن الجريمة فى فى القانون ثلاثة آلاف آقچه سواء لصوباشيٓ الميرى اولصوباشيٓ أصحاب « تيمار » ولتكن آقچه/١٠٠٠ لفقأ العين . ولتكن آقچه/١٥٠٠ لكسر الذراع . ولتكن آقچه/٥٠ لشج الرأس . واذاسب شخص شخصاً آخر فليعزر شرعا ، وليؤخذ منه غرامة أربعين آقچه . واذا نظر شخص الى حرم شخص آخر فليؤخذ منه آقچه/٢٠

ومن الصعب جداً استنتاج معنى صحيح من هذه العبارات . هل المقصود ان « الصوباشيين » هم الذين يحصلون هذه الغرامات المالية ؟ ولكن العبارة لا تسمح باستنتاج هذا المعنى .

فان جملة « اولا لتكن الجريمة فى القانون ثلاثة آلاف آقچه سواء لصوباشي الميرى . . . الخ افسدت المعنى أيما افساد .

وخلاصة القول : لا يمكن قبول هذه المجموعة كمجموعة صحيحة ، ولا يبنى عليها حكم .

وهنا نقرر الحق ونقول : إننا لا نكتم إستغرابنا من أن بعض باحثينا فى المدة الأخيرة أصبحوا يكتبون بحوثاً ومقالات طويلة حول هذه المجموعة كأنها صحيحة ومطابقة للواقع .

الحمد لله أولا وآخراً وصلى الله على سيدنا ونبينا محمد أفضل الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه وأتباعه أجمعين .

وفى أثناء الطبع ظفرنا بقصيدة رائعة جادت بها قريحة شاعرنا النابغة حضرة الاستاذ ابراهيم صبرى استاذ الادب التركى بجامعة الاسكندرية سجل فيها مفاتن استانبول وجمالها السحرى مع التنويه بذكريات الفتح وقد جعلناها ختام المسك للكتاب . وها كم القصيدة بنصها وترجمتها العربية .

استانبول

بش يوزنجى سنهٔ دوريهٔ فتحى مناسبتيله

بريانده چامليجه يله يتيشمش سماره ،
بريانده گوكله يرله اينمش ده مرمره ،
استانبولك سحرلى برآينه يله عكسنى ،
نقش ايله‌مش ازلده كى بر رسمه مبتنى :
دريايه ، آسمانه ، زمين وزمانه هب ..
طلسملى حسن وآننه مطلق بودر سبب .
صيغماز خياله وسعت آفاقى وهلة ،
درياده آسمان وسمالرده يرگوره‌ن ،
ظن ايلر : اينمش اورده كى ألواحى سيرايچين ،
جنتلر يله عالم لاهوت اولوب زمين .
الماس تراش بروازو حالنده در بوغاز ،
پارلار ايچنده ساق مناره يله بم بياض
زانبا قلرك مثالى اولان نملى قبه لر ..
يكپاره سجده سيله جوامع اوزار كيدر ،
محراب بى نهايتى كوياكه برجسيم
فرسوده معبدك ، بومبانى من القديم :
هرشاه اثر ، عبادت ايچين ايله‌مش قيام ،
دورمش اوكنده صف ايله دمبستهٔ نظام ،

باخود سرور فتح أيله تبريك ايدر غزا ،
اهراملر گلوب دورو ويرمش ده برحذا .
خلقتده اولمش آبده لر شهرى ، مملكت :
فيشقيرمش آسمانله دكزدن دمت ، دمت .
برياندە أولكه لرجه معظم دفينه لر ،
ايران ، مجار وروسدن آلنمش خزينه لر ،
آلتونلر ، اينجيلر ومجوهرله دهشته
القا ايدركن عالمى ، برياندە دولته ،
حشمتلى ساحليله خدائى سراى اولان ،
دهرك افقلرندن آشوب ، داستان دولان ،
تاريخ سطورتنده دورلر آچان بو ير :
استانبول ! .. ايشته گوكدن اينن برجهان دگر
شاهانه پايتخت ، بو شاهانه دولته .
الله ديكمش آبده گويا طبيعته ،
آيات فتحى ذكر ايچين آفاق عالمه ..
برشهر برگذار مقدس كه قومه ،
شايسته پادشاه جهانگيره قيمتى ..
استانبول ! ايشته : فاتحك اك شانلى همتى ! ..

* * *

بو يرلر ، يوم فتحك خاطرا تندن نه لر سويلر ،
طبيعتدن مذهب جلدى برتاريخدر هر ير .
دكز ، مرمر مجلا برستوندر آبداتندن .
اوقور هر نقش أمواجنده شعر داستان انسان .
دورور فرمانه رام اولمش بوغاز ، حالا بويون اگمش
صاريق صارمش ده داغلر هب ، حصارلردن قاووق گيمش

دعا ایتمش ولیلر بورده گلمش پوستی سرمشلر ،
دوغارکن فجرلر برگون کسیلمش هر طرف عسکر ..
یقیلسین دینمش ایمانسز بیزانسك برجی تیزکوندن ،
أرنلر کوستروب کچمش کرامت سورك اوستندن
سلیمانیه ، سلطان احمد ، ایزلردر او دیولردن .
باصوب آفاقه ، آتمشلر آدیم گویاکه جولردن .
صانیر سك قبه لردن مردیون قورمش ده مریخه ،
او یوکسکلکدن آلمشلر چیقوب برأولچو تاریخه ،
بو یوکسکلکده بردولت ایچین تاقطبه گیتمشلر .
أساطیرك إیچندن أورنك آلمش ، عودت اتمشلر ..
بوحالتدرکه : برافسانویلك بخش ایدر شهره ،
دیکه ر تورکك دهاسندن دوغان برشاه اثر دهره .
نه روحانی بیاضلقدر دوغان ، مرمر معابددن ،
ایدیلمز فرق برچوق لحیه دار آواره زاهددن :
سبیللر ، تربه لر ، مسجد ، مدارس .. افقه دیز چوکمش ..
سلیمانك ، سلیمك ، فاتحك معماری ، هم دوکمش
اساطیری قازانلردن خمور ایتمش ده احجاری ،
هم آلمش ایشله مش نقش ایله یوب احجاره افکاری .
مقاصسز بیچگی بیچمش ، طاشده أطلس نسجی گورمشلر ،
مگر ایپلك اگیرمشلرده طاشدن ، أورگو أورمشلر .
بیزانس آرتق بومرمر أورتونك آلتنده در : مجهول ،
دوغوب عثمانلی معماریسنك ابداعی : استانبول !..

قاهره : ١٩٥٢/١٢/٢٨ م

« ابراهیم صبری »

استانبول

بمناسبة مرور خمسمائة عام ميلادى على فتح استانبول

انعكست قمة جبل « تشامليجه » على بحر « مرمره »
فاذا هو قد سما بها حتى بلغ السموات العلى
ثم انحدر بها الى قراره على الثرى
فرسم صورة استانبول بمرآة سحرية من اصل محفوظ فى لوح الازل
رسمها على البحر والسماء والارض والزمن
هذا السحر هو سر جمال استانبول الفاتنة
يضيق الخيال عن عظمة آفاقها عند النظرة الاولى
إن من يرى السماء على الارض والارض فى السماء
يخيل اليه ان العالم العلوى بجناته قد هبط الى الثرى
يتأمل مفاتنها ، فلم يملك إلا أن يفنى فيها
والبسفور كأنه قارورة من بلور يتلألأ
تلوح فيه المآذن كسيقان الأزهار
والقباب البيض الندية كزهر الخزامى
والمساجد كأنها سجدة واحدة استطالت صفوفها
فكأنها محراب لا نهاية له فى معبد عظيم متداع
قامت فى نواحيه آيات الفن تؤدى شعائر دينها
أو كأنها اهرامات قد جاءت فرحة لتشهد نبأ الفتح
واصطفت تهنىء بالغزو والظفر
بلدة جعل الله أرضها منبتاً لآيات الابداع
فانشقت بباقات من البحر ومن السماء
أرض حوت ملأ الدنيا ثروة

وحوت خزائن فيها غنائم ايران والمجر والروس
بينا تراها تبهر العالم ببريق الذهب واللآلى والجواهر
اذا بك تخالها بشاطئها الفخم قصرا أبدع الله صنعه
كانت فتحاً جديدا فى تاريخ عظمتها
تاريخ غطت صحائفه آفاق الدهر وامتلأت بآيات الفخر والمجد
هذه الارض . انها استانبول
هبطت من السماء لتصبح عاصمة لهذه الدولة العظمى
عاصمة لا نظير لها كأنها نصب مركوز على هامة الدنيا
يذكر العالمين بآيات الفتح
تذكار مقدس لقومى الترك تليق بمكانة الفاتح
هذه هى استانبول أمجد أثر خلفه محمد الفاتح

* * *

بقاع هى أبلغ لسان فى الحديث عن ذكريات يوم الفتح
كل مكان فيها أصبح كتاب تاريخ جلدته الطبيعة وزخرفته
وما بحر « مرمره » الا نصب فى صرحها
سطرت عليه اشعار الفخر المنقوشة على أمواجه
وقف البسفور ولبى ناكس الرأس مطيعاً للامر الذى صدر اليه
لبست الجبال عمائمها و شمخت بين هاماتها حصون قلعة حصار كأنها «قاووق»(١)
هنا نزل أولياء الله وتضرعوا الى ربهم
فلما بزغ الفجر برزت الارض تغطيها الجيوش

---

(١) « قاووق » كلمة تركية وهى غطاء للرأس كان يلبسه رجال الدولة وجنود الانكشارية .

ونادى مناد أن اهدموا أبراج بيزنطه
وظهرت كرامات المشايخ فقفزوا من فوق الاسوار
واذا مسجد سليمانيه وسلطان احمد أثران من اقدام هؤلاء العمالقة
كانت خطاهم فى الجو من افق الى افق
وكأنهم اتخذوا القباب سلما الى المريخ
لكى يقدروا سموقه ليجعلوه مقياساً لتاريخهم
انهم فتحوا أقطار الارض لكى تسع هذه الدولة الشامخة
ثم عادوا بانموذج من عالم الأساطير
وكذلك نفضوا على هذه البقعة لونا من ألوان الأساطير
لتكون آية الدهر منصوبة للعبقرية التركية
فياله من لون روحانى يشع من بياض رخام المعابد
هذه المدارس والأضرحة والمساجد والسبل أشباح رابضة على الأفق
يشق على العين تمييزها وكأنها جماعة من الزهاد والمساكين ذوى اللحى
ان بانى مسجد سليمانيه وسليم وفاتح قد عجن أحجارها فى آنية اسطورية
ثم سبكها ثم جمع روائع الأفكار ونقشها على صفحاتها
كانت الصخور بين أيديهم كنسج من الحرير فشقوها بغير مقص
غزلوا الفخر خيوطاً ثم نسجوه
ضاعت معالم بيزنطه تحت هذا الستر من الرخام
وأشرقت استانبول آية ابداع الفن العثمانى .

وهذه قصيدة غراء لحضرة الأستاذ الكبير أحمد خيري أشاد فيها بذكرى فتح استانبول وفاتحها السلطان محمد الثاني فنشرناها هنا شاكرين .

ذكرى فتح الآستانة

الحقُّ يَحميهِ القويُّ فَيُرْفعُ — والعَدْلُ يَطْلُبُهُ الضَّعيفُ فَيُوضَعُ (١)

والدِّينُ يَعْلُو بالرِّجالِ وَيَنْحَلِي — والمُلْكُ يُدْعَمُ بالكُماةِ وَيُمْنَعُ (٢)

والصِّدْقُ مَيْنٌ إنْ أَتَى مِنْ عاجزٍ — والزُّورُ يُسْمَعُ إنْ وقاهُ المِدْفعُ (٣)

والشَّرُّ مِمَّنْ تَتَّقِيهِ ضَرُورَةٌ — والخَيْرُ مِمَّنْ تَزْدَرِيهِ مُضَيَّعُ (٤)

والخصمُ تُفحِمُهُ بِأَلْفَىْ حُجَّةٍ — فَيَرُوغُ أمَّا بالحُسامِ فَيَقْنَعُ (٥)

إن كنتَ ذا جاهٍ تَنَلْ ما تَبْتَغِي — والخَلْقُ تجرِي فى رضاكَ وتُسْرِعُ (٦)

أمَّا إذا كُنْتَ الحقيرَ فقد غدَتْ — فِيكَ العُيوبُ بغيرِ وِزرٍ تُجمعُ (٧)

فَالعِزُّ أنْ تُخْشَى فتحْيَى سَيِّداً — والذُّلُّ أنْ تُغْشَى وأنتَ المَطْمَعُ (٨)

بَهرتْ عيونَ العاجزِينَ أشِعَّةٌ — والشَّمْسُ قِدْماً للإضاءَةِ مَنْبَعُ (٩)

وانْهارَ بَأسُ الغَرْبِ لمَّا فَلَّهُ — صَقْرٌ مِنَ الشَّرقِ العَتيقِ يُرَوِّعُ (١٠)

وَرِثَ الحَماسَةَ والعَزِيمَةَ والتُّقَى — وَغدا بها قَبْلَ السِّلاحِ يُدَرَّعُ (١١)

---

(١) يوضع — من أوضع على ما لم يسم فاعله — أى خسر .

(٢) الكماة : جمع الكمى ، وهو الشجاع المتغطى بالدرع والبيضة .

(٣) مين : كذب ، المدفع : غير عربية لأن اللفظ وضع فى القرون الأخيرة لما استحدث المدفع .

(٥) تفحمه : تسكته ، فيروغ : يميل ويحيد ، والحسام : السيف القاطع .

(٨) تغشى — بغين وشين معجمتين — تؤتى وتدهى على المجهول فيهما .

(١٠) فله : هزمه وكسره ، العتيق هنا الكريم الجميل ، وفى اللفظ تورية بالمعنى الظاهر وهو القديم .

وَأعدَّ جَيْشاً فِيهِ كُلُّ غَضَنْفَرٍ يَجِفُ العَدُوُّ إذَا رَآهُ وَيَفزَعُ(١٢)

مِنْ كلِّ مَنْ بَاعَ الدنيَّةَ وَاشْتَرَى غَفْرَ الإلَـهِ وَجَنَّة تَتَضوَّعُ(١٣)

لاَ يَعْرِفُونَ سِوَى الهُجُومِ وَيَسْتَوِى
نَصْرٌ لَدَيْهِمْ أوْ مَمَـاتٌ يَرْفَعُ(١٤)

وَشِعَارُهُمْ اللهُ أكْبَرُ فى الوَغَى واللهُ يَنْصُرُ مَنْ بِهَا يَتَذَرَّعُ(١٥)

حَسْبِي فَخَـاراً أنَّهُمْ مِنْ أمَّةٍ تُعْزَىٰ إلَى خَيْرِ الأنَامِ وَتَرْجِعُ(١٦)

هَجَمُوا عَلَى أعْدَائِهِم أُسْدَ الشَّرَى تُفرى وَتَبْطِشُ بِالرِّجَالِ وتَصْدَعُ(١٧)

فَتَحُوا البِلاَدَ ولَمْ تُطِقْ طُوفَانَهُمْ أُمَمٌ فَبَاتَتْ لِلضَّيَاغِمِ تَخْضَعُ(١٨)

فالرُّومُ تُدْهَىٰ والبُلُونُ تبَلْبَلَتْ والهُونُ هَانَتْ والفِرنْجَةُ تَجْزَعُ(١٩)

---

(١٢) الغضنفر : الأسد ، يجف : يضطرب .

(١٣) تتضوع : تنتشر رائحتها الذكية.

(١٥) الوغى : الحرب ، يتذرع : يتوسل .

(١٦) تعزى : تنسب ، والمراد الأمة الإسلامية أعزها الله ، وكان العثمانيون من عيون أبنائها ؛ والأنام : ما ظهر على الأرض من جميع الخلق ، وقيـل : الإنس والجن.

(١٧) الشرى : جانب الفرات ، يضرب المثل بأسده ، فى اللسان والأساس التمثل بأسود الشرى ـ بالألف المقصورة ـ ، وتفرى : تقطع ، يقال : أفرى الأوداج قطعها

(١٨) الضياغم : الأسود .

(١٩) البلون ـ بضم الموحدة واللام ـ سكان بولونيا ، تبلبلت : تفرقت آراؤها واختلطت ، والهون : سكان هنغاريا أى المجر ، والفرنجة هم الفرنسيون ، والشعوب الأربعة المذكورة فى البيت من سكان أوربا .

وعَلَى حِمَى السَّكسُونِ رَنَتْ ذِلَّةٌ　　لَمَّا اسْتُبِيحَ بِمَنْ يَصُولُ وَيَرْتَعُ (٢٠)

وَبِصَدْرِ أُورُبَّا بَدَتْ أَعْلَامُهُمْ　　حَتَّى فِيِنَّا كَالْكَوَاكِبِ تَلْمَعُ (٢١)

فَاذْكُرْ كُمَاةً زَيَّنُوا الدُّنْيَا وَمَا　　زَالَتْ بِذِكْرَاهُمْ تُضِيءُ وَتَطْلُعُ (٢٢)

أَرَأَيْتَ قَوْمًا فِي المَعَامِعِ جِنَّـةً　　يَهْوِي بِهِمْ بَأْسُ العَدُوِّ وَيُقْمَعُ (٢٣)

طَلَعُوا عَلَى الدُّنْيَا فَكَانُوا عَيْنَهَا　　لَكِنَّهَا مِنْ حَزْمِهِمْ لَا تَدْمَعُ (٢٤)

وأَتَوْا مَدِينَةَ قَيْصَرٍ يَبْغُونَهَا　　بِحَمَاسَةٍ مِنْهَا الحِمَى يَتَصَدَّعُ (٢٥)

دُهِشَتْ عُلُوجُ الرُّومِ لَمَّا شَاهَدَتْ　　شُمَّ الجَوَارِي فَوْقَ أَرْضٍ تَطْلَعُ (٢٦)

كَانَتْ تَتِيهُ بِأَنَّ عِزَّ حُصُونِهَا　　يَزْرِي عَلَى بَيْضِ الأَنُوقِ وَيَشْنَعُ (٢٧)

---

(٢٠) السكسون : من الألمان ، ومن أصول الإنجليز ، ورانت : غلبت ، استبيح : استؤصل ، يصول : يستطيل ويثب .

(٢١) أوربا قارة معروفة كانت للترك فيها صولات وجولات ، وفينا عاصمة النمسا وتقع على نهر الدانوب فى وسط أوربا ، ووصل الترك إلى أسوارها .

(٢٢) كماة : شجعانا ، كما مر فى البيت الثانى .

(٢٣) المعامع : شدة الحرب والجد فى القتال ، وجنة ـ بكسر الجيم ـ الجن ، يقمع : يقهر ويذل .

(٢٥) مدينة قيصر هى القسطنطينية كما ذكرت فى صحيح البخارى .

(٢٦) شم الجوارى : السفن العالية ، وتطلع ـ بفتح اللام ـ من الصعود فى فى الجبل ، خلافا لتطلع ـ بضم اللام ـ للشمس والكواكب .

(٢٧) يزرى عليه : يعيبه ، ويشنع يسب ويفضح ، والأنوق ـ بفتح الهمزة وضم النون ـ الرخمة ، وقيل : ذكر الرخم ، يضرب المثل بعزة بيضه لأنه لا يظفر به حيث يكون فى رؤوس الجبال .

حَتَّى أحاطَ بهـا عُقابٌ عَزْمُهُ ... يُمْضِي إرادَتَهُ إذا ما يُزْمِعُ (٢٨)

فاجْتاحَ عالِيَها وَحطَّمَ سُورَهَـا ... وَغدَتْ كَتائِبُها تَفِرُّ وَتُهرَعُ (٢٩)

وأتى الـكنيسةَ فاسْتحالَتْ مَسْجِدًا ... يُتْلَى بِهَا الذِّكْرُ الحكيمُ وَيُسْمَعُ (٣٠)

لَمْ تَكفِهِ تِلكَ الهدِيَّةُ بَلْ بَنَى ... صِنْواً يَجِلُّ بِمَنْ يَقومُ وَيَرْكعُ (٣١)

وَبَنَى المدارِسَ يَلْتَقِي بِرِحابِهَا ... متعـلِّمٌ ومدرِّسٌ ومُجَمِّعُ (٣٢)

وبَغى مكاناً مِثْلهمْ فلعَـلَّهُ ... يَجِدُ الأمانَ بِهِ إذا ما يُخْلَعُ (٣٣)

---

(٢٨) العقاب ملك الطيور وجنسه باللاتينية Aquila ويهم من يظنه النسر فالنسر باللاتينية فصيلته Vulturidae ، ويزمع الأمر . يثبت عليه عزمه .

(٢٩) اجتاح : استأصل ، تهرع — بضم أول وفتح الراء — يحث بعضهم بعضاً على الإسراع فى فرارهم .

(٣٠) هى كنيسة أيا صوفيا وتمتاز بأنها المسجدالوحيد الذى بنى قبلالإسلام ، وظل على بنائه الأصلى إلى اليوم فقد أقيم البناء الحالى سنة ٥٣٧م ، وكان مولد النبى صلى الله عليه وسلم سنة ٥٧١ م ، وصلى السلطان الفاتح فيها ظهر يوم الثلاثاء ٢٠ من جمادى الأولى سنة ٨٦٧ ﻫ وهو يوم الفتح وأعلنها مسجداً ، والمأمول من أولى الأمر فى تركيا الآن أن يعيدوها مسجداً مجيداً لذكرى الفاتح واحتراما لإرادته .

(٣١) الهدية أيا صوفيا إشارة إلى قول شوقى المتوفى سنة ١٣٥١ ﻫ عنها :

كنيسة صارت إلى مسجد ... هدية السيد للسيد

والصنو ، الشبيه المماثل فى الأصل ، والمراد جامع الفاتح بالآستانة .

(٣٢) مجمع — بتشديد الميم — من جمع القوم شهدوا الجمعة وقضوا الصلاة فيها .

(٣٣) فى هذا البيت وتاليه إشارة إلى ما ورد فى هامش ص ٨٠ من كتاب « السلطان محمد الفاتح وحياته العدلية » طبع مصر سنة ١٣٧٢ ﻫ من أن السلطان طلب حجرة فى مدارسه التى أنشأها عند جامعه وقال : أقيم بها إذا خلعت من الملك فقال له القائمون عليها : إن شرطها أن يؤدى الطالب الامتحان ، فخضع السلطان =

وأرادَ حجرتة فقـــالوا شَرْطُهَا … فَانْصَاعَ يَخْشَعُ للنظامِ ويصدعُ(٣٤)

أعْظِمْ بِسُلْطَانٍ يُوَطِّدُ حُكْمَهُ … حَقٌّ يُزَيِّنُ عَهْدَهُ وَيُرَصِّـــعُ(٣٥)

وَإِذَا جَمَعْتَ مَعَ الْعَدَالَةِ قُوَّةً … أَنْشَأْتَ مَمْلَكَةً تَسُودُ وَتَبْرُعُ(٣٦)

عَرْشُ الْقَيَاصِرِ بِالْمَكَاحِلِ ثَلَّهُ … لاَ بِالْأَمَانِيِّ الْكَوَاذِبِ تَخْدَعُ(٣٧)

لَمَا أَطَلَّ عَلَى مَدِينَـــةِ قَيْصَرٍ … أَضْحَتْ بِدِينِ مُحَمَّـدٍ تَتَمَتَّعُ(٣٨)

طُوبَى لِسُلْطَانٍ يَتِيهُ عَلَى الْوَرَى … وَيَذِلُّ لِلَّهِ الْقَوِيِّ وَيَخْشَعُ(٣٩)

لاَ يَسْتَعِزُّ بِعِزَّةٍ تُرْكِيَّةٍ … لَكِنْ بِحَبْلِ اللهِ إِذْ لاَ يُقْطَعُ(٤٠)

يَقْضِي الْحَيَاةَ مُنَافِحًا وَمُكَافِحًا … وَقِوَامُهَا بَيْضٌ بِبِيضٍ تُقْرَعُ(٤١)

بَاتَتْ أُورُبَّا لاَ تُطِيقُ خَيَالَهُ … وَتُجَنُّ مِنْ هَوْلِ الْفُتُوحِ وَتَهْلَعُ(٤٢)

وَرِجَالُهَا دَهِشٌ تَحَيَّرَ أَوْشَجٍ … يُنْحِي عَلَى إِخْوَانِهِ وَيُقَرِّعُ(٤٣)

= للنظام ، وأدى الامتحان ونال حجرته بشرطها لا بالاستثناء ؛ انصاع : ذهب مسرعا ، صدع بالأمر : جاهر به اه .

(٣٦) تبرع : تفوق سواها فى السؤدد .

(٣٧) المكاحل : آلات يضرب بها بندق الرصاص فى لغة المغاربة (تاج العروس) وثله : أهلكه .

(٣٩) الورى : الخلق .

(٤١) المنافح : المدافع . والمكافح : الذى باشر الأمور بنفسه ، بيض الأولى ـ بفتح الباء ـ جمع بيضة ، وهى الخوذة الحديد ، وبيض الثانية ـ بكسر الباء ـ السيوف .

(٤٣) دهش ـ بفتح فكسر ـ ذاهب العقل من الفزع ، شج ـ بفتح الشين المعجمة وكسر الجيم منونة ـ حزين ، وينحى ـ بضم أوله ـ على إخوانه باللوم : يقبل عليهم به ، يقرع ـ بتشديد الراء ـ يعنف ويوبخ .

لـكِنَّهُمْ مِنْ بَطْشِـهِ وَجِلاَدِهِ ... دُكَّتْ عَزَائِمُهُمْ فَأَمْسَتْ تَخْنَعُ (٤٤)
وَالشَّهْمُ يَقْتَحِمُ الْمَدَائِنَ وَالْقُرَى ... وَيَنَالُ نَصْراً تِلْوَ نَصْرٍ يَفْرَعُ (٤٥)
حَتَّى إِذَا وَخَطَ الْمَشِيبُ حُلاَحِلاً ... لاَ يَسْتَـكِينُ وَلاَ يَلِينُ وَيَقْبَعُ (٤٦)
قَالُوا اسْتَرِحْ قَالَ الَّذِي يَبْغِي الْوَغَى ... فِي اللهِ لاَ يَعْنُو وَلاَ يَتَضَعْضَعُ (٤٧)
أَكْرِمْ بِقَوْلٍ زَانَ غِطْرِيفاً لَهُ ... حِجَجٌ غَدًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَنْفَعُ (٤٨)
فَاللهُ يَقْبَلُ مَنْ يُبَجِّلُ دِينَهُ ... وَعَنِ الْجِهَادِ إِلَى الْمَدَى لاَ يُقْلِعُ (٤٩)
وَإِذَا ذَكَرْتَ مُحَمَّداً وَنِضَالَهُ ... وَرَأَيْتَ إِعْجَازاً وَسِحْراً يَصْنَعُ (٥٠)
فَاذْكُرْ نِظَاماً أَرْسَيْتَ آسَاسُهُ ... بِالْعَدْلِ حَتَّى فَاقَ دُرًّا يَنْصَعُ (٥١)
حَالُ الْوُلاَةِ عَلَى الْمَلِيكِ دَلاَلَةٌ ... فَالْوَجْهُ يُنْبِىءُ عَنْ حَشاً يَتَوَجَّعُ (٥٢)

---

(٤٤) الجلاد والمجالدة : المضاربة بالسيوف ، تخنع : تذل .

(٤٥) يفرع ، بالفاء ، يعلو ويفوق .

(٤٦) حلاحلا ـ بضم الحاء المهملة الأولى وكسر الثانية ـ سيداً ركيناً ، يقبع . يتخلف ويتأخر .

(٤٧) الوغى : الحرب ، يعنو : يخضع ويذل ؛ وفي البيت إشارة إلى ما سمعته من الأخ محمد شعراوى إن السلطان كان فى غزوة فى أخريات أيامه ، فعجزت الخيل عن صعود جبل ، فترجل وتسلقه ، فلما بدا عليه التعب قالت له حاشيته : ألا تستريح فقال : إن الذى يجاهد فى سبيل الله لا يتعب أبداً ، وأخبرنى أنه قرأ هذه الحكاية فى كتاب أوربى ، قلت : ناهيك بها من شهادة .

(٤٨) غطريف ـ بكسر المعجمة فسكون المهملة ـ السيد الشريف السخى .

(٥١) الآساس ، بالمد ، الأسس ، ينصع : يشتد بياضه ويخاص ، وفى البيت إشارة إلى نظام السلطان الذى وضعه للدولة .

(٥٢) الحشا : واحد الأحشاء ، وهى ما فى جوف الإنسان من أعضائه .

وَبِطَانَةُ الْبُزْيُونِ مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَعَلَى الْفَيَافِي يَسْتَقِرُّ الْأَجْرَعُ (٥٣)

دَعْ عَنْكَ بَعْضَ هَنَاتِهِ لِفُتُوحِهِ وَلَعَلَّ فِيهَا مَا يَسُوغُ وَيُشْرَعُ (٥٤)

وَاسْتَغْفِرِ الرَّحْمٰنَ لِلسُّلْطَانِ إِذْ كَانَ الْخِضَمَّ بِكُلِّ فَخْرٍ يُتْرَعُ (٥٥)

وَلَهُ حَوَى التَّارِيخُ فِي صَفَحَاتِهِ ذِكْرًا وَضِيئًا خَالِدًا لَا يُنْزَعُ (٥٦)

لَا تَعْجَبُوا مِنْ صَرْخَتِي وَإِشَادَتِي بِالتُّرْكِ أَوْ أَنِّي بِذَلِكَ مُولَعُ (٥٧)

---

(٥٣) البزيون ، بضم الموحدة وسكون الزاى بعدها ، آخر الحروف مضمومة السندس وهو رقيق الديباج ورفيعه ، والاستبرق : غليظ الديباج ، الفيافى : الصحارى والأجرع : كثيب جانب منه رمل وجانب حجارة .

(٥٤) والمراد من هناته ما حدث من السلطان من قتل أخيه الرضيع وتعذيب وزيره سنان الدين باشا ، فأما الوزير فلعله ارتكب أمرا ، ويكفى أن السلطان منع عنه الضرب بمجرد احتجاج أحد العلماء ، كما حكى صاحب « الشقائق النعمانية » ، وأما قتله الرضيع فحسبك ما حدث بعد ذلك بين ولديه السلطان بايزيد الثانى والأمير جم ، ومحاولة فرسان رودس والبابا وملك فرنسا استغلال الأمير لإضعاف السلطنة وكسر شوكة الإسلام ، فكأن السلطان استشف ريح الفتنة من حياة أخيه ، وقد قص الله تعالى علينا فى سورة الكهف قتل الغلام خشية أن يرهق أبويه طغياناً وكفرا . نعم ! إن السلطان لم يكن يوحى إليه كالخضر عليه السلام ، ولكن فعلته غير حسنة ، ولكن ألا يكفى فتح الأستانة وجهاد ثلاثين سنة فى سبيل الله لمحو هذه السيئة ، وقد قال الله تعالى : « إن الحسنات يذهبن السيئات » .

(٥٥) الخضم ، بكسر ففتح المعجمتين وتشديد الميم ، الكثير العطاء . يترع على المجهول يمتلىء .

فَلَهُمْ لَدَىَّ صَنِيعَةٌ وَخُؤُولَةٌ ... وَأُخُوَّةٌ فِي الدِّينِ لاَ تَتَزَعْزَعُ(٥٨)
وَشِعَارُنَا الْإِسْلاَمُ يَجْمَعُ شَمْلَنَا ... نِعْمَ الْوِشَاحُ بِهِ لِمَنْ يَتَلَفَّعُ(٥٩)
فَالْمُسْلِمُونَ عَلَى اخْتِلاَفِ شُعُوبِهِمْ ... كُلٌّ يَحِنُّ إِلَى أَخِيهِ وَيَنْزِعُ(٦٠)
وَغَدًا عَلَى حَوْضِ النَّبِيِّ لِقَاؤُنَا ... وَلَنَا جَمِيعاً فِي الْقِيَامَةِ يَشْفَعُ(٦١)

﴿ تمت بحمد الله ﴾

أحمد خيرى

---

(٥٨) الصنيعة هو مولانا الكوثرى المنتقل إلى رحمة الله تعالى بعصر يوم الأحد ١٩ من ذى القعدة سنة ١٣٧١ والذى أفدت منه طوال أربع عشرة سنة علماً لا يزال فضله فى عنق أبدا . والخؤولة إشارة إلى أن والدتى منحدرة من أصول من أتراك الأناضول وأتراك كريت والجراكسة .

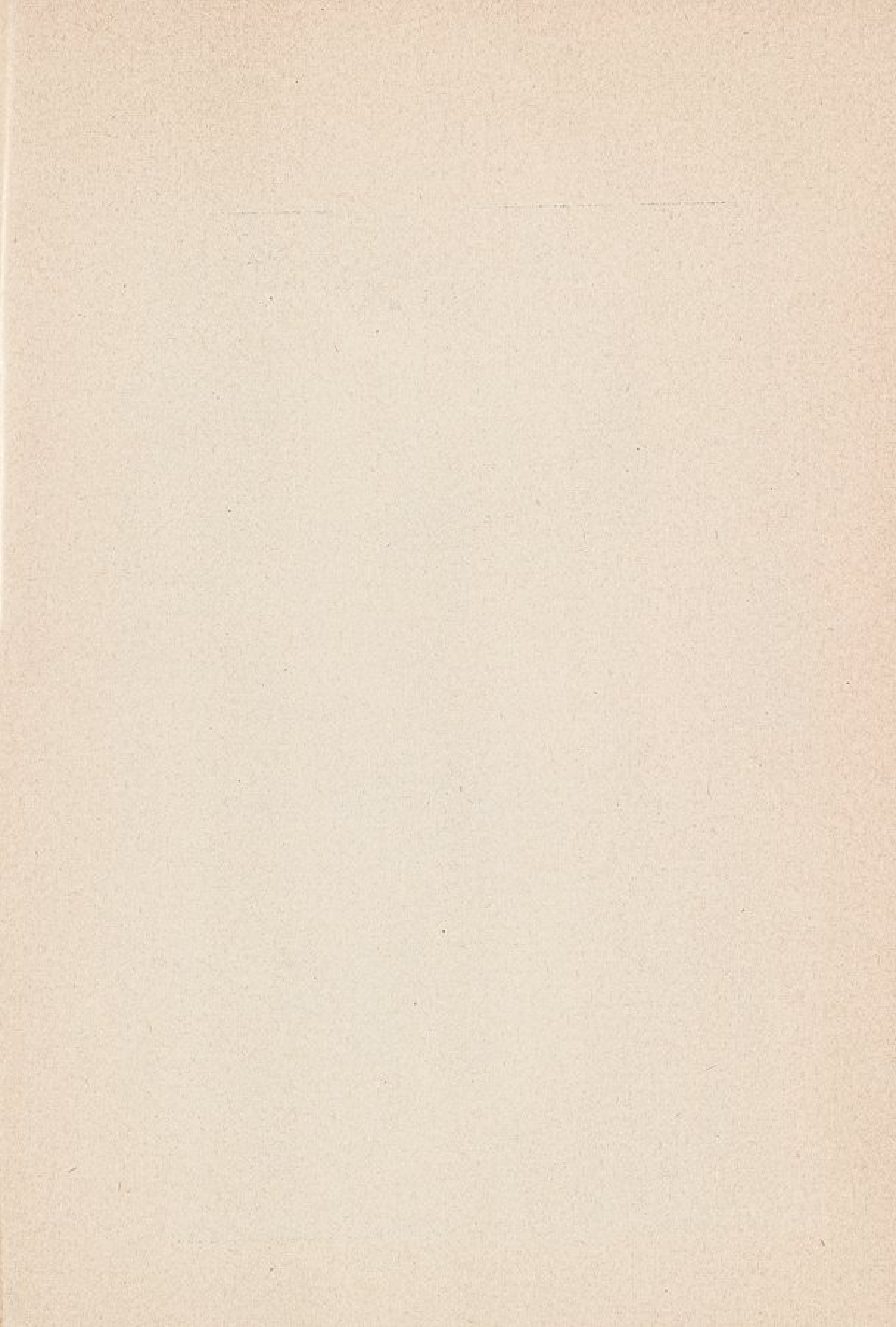
(٦٠) ينزع إلى أهله ، بكسر الزاى ، يحن ويشتاق .

﴿ تمت والحمد رب العالمين ﴾

أحمد خيرى



منظر لضريح السلطان محمد الفاتح من الواجهة



ثبت المراجع العربية

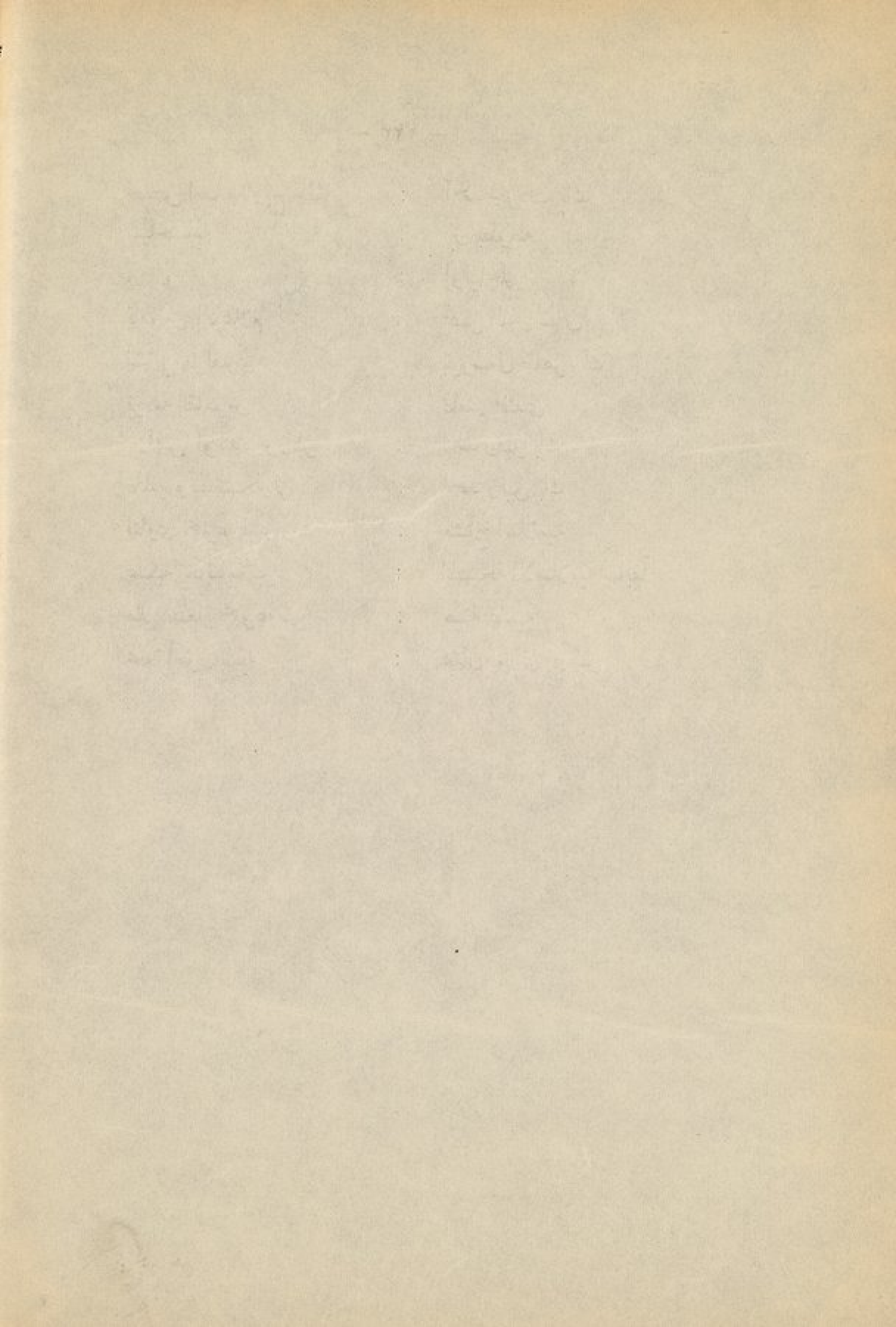
اسم الكتاب		المؤلف
كشف الظنون	:	كاتب چلبي [= حاجي خليفه]
بدائع الصنائع فى ترتيب الشرائع	:	علاء الدين الكاسانى
رد المختار	:	ابن عابدين
تاريخ التمدن الاسلامى	:	جرجى زيدان
المبسوط	:	السرخسى
الموافقات	:	الشاطبى
فتح البارى	:	ابن حجر
عمدة القارى	:	البدر العينى
الاحكام	:	شهاب الدين القرافى
المحلى	:	ابن حزم
شرح الكنز	:	فخر الدين الزيلعى
نصب الرايه	:	جمال الدين الزيلعى
الشقائق النعمانيه	:	طاشكبرى زاده
الفوائد البهيه	:	عبد الحى اللكنوى
اعلام الموقعين	:	ابن القيم
الهدايه	:	برهان الدين المرغينانى
ابو حنيفه	:	محمد ابو زهره
روح المعانى	:	الآلوسى
الجامع لأحكام القرآن	:	القرطبى
احكام القرآن	:	ابن العربى [القاضى ابوبكر]
الاختيار	:	عبد الله بن محمود الموصلى

تاريخ الدولة العلية : محمد فريد
بداية المجتهد ونهاية المقتصد : ابن رشد
سبل السلام : الصنعانو
نيل الأوطار : الشوكاني
مقدمة ابن خلدون : عبدالرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمى

المصادر التركية

تاريخ عاشق پاشا زاده : درويش احمد
« صولاق زاده : صولاق زاده محمد افندى
« سلطان محمد ثانى : فيرتيو دولوس ترجمة قاروليدى
« ابو الفتح : طورسون بك
« نشانجى : نشانجى محمد پاشا
« نعيما : مصطفى افندى
« جودت : احمد جودت پاشا
« مفصل : مدحت افندى
« دولت عثمانيه : عبد الرحمن شرف بك
« الدولة العلية العثمانية : خير الله افندى
عثمانلى تاريخى : احمد راسم
تاج التواريخ : خواجه سعد الدين افندى
تذكرۂ سهى : ادرنه‌لى سهى
كنه الاخبار : عالى افندى
اثمار التواريخ : خير الله افندى
دول اسلامية : خليل ادهم بك
فاتح سلطان محمد ورسام بللينى : احمد رفيق

قصص انبيا وتاريخ خلفا	:	احمد جودت پاشا
سياحتنامه	:	ابن بطوطه
«	:	اوليا چلبى
قاموس الاعلام	:	شمس الدين سامى
عثمانلى مؤلفلرى	:	بروسه‌لى طاهر بك
ترجمة القاموس	:	عاصم افندى
بيزانس اوننده توركلر	:	احمد رفيق بك
عالملر وصنعتكارلر	:	احمد رفيق بك
فتاوى مجموعه لرى	:	مشايخ اسلاميه
علميه سالنامه سى	:	المشيخة الاسلامية سابقاً
مللى تتبعلر مجموعه سى	:	هيئة علميه
مجلهٔ أمور بلديه	:	عثمان نورى إرگين



فهارس

فهرست الأعلام

(ب)

(ت)

محتويات الكتاب

مقـــدمة

الفصل الأول

الفصل الثانى

الفصل الثالث

الفصل الرابع

القوانين والنظم فى عهد العثمانيين والفاتح

الفصل الخامس

النظارة والتفتيش

خاتمة

الموضوع | ص

تصويبات

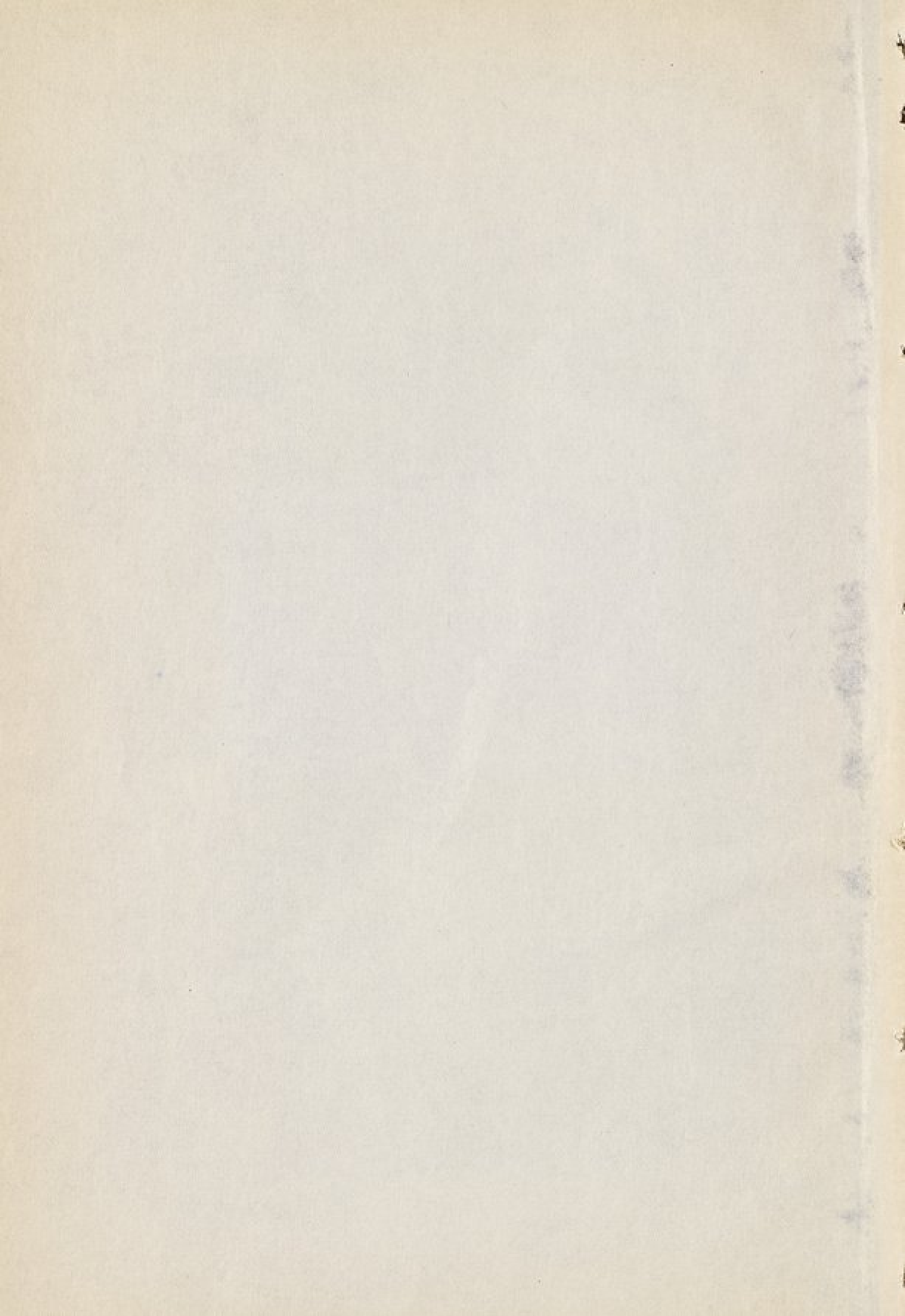
الصفحة	السطر	غلط	الصواب
٦	٢٢	بأرادته	بإرادته
٧	٩	يوثر	يؤثر
٩	٥	العثماتية	العثمانية
١١	١٢	مسوّدأ	مسوّداً
١٤	١٦	بغيته	بغيـة
١٤	٢٢	حقيقية	حقيقة
١٥	١٧	بها	بهما
١٥	٢١	تليني	بليني
١٥	٢١	وفيق	رفيق
١٦	١٤	بسجيتة	بسجيته
١٨	١٠	داري	دراى
٢٠	٢٣	م	ثم
٢١	١٩	المغفوو	المغفور
٢٣	١	فنى	فتى
٢٦	١٩	النى	التى
٣٠	٩	مغنيسيا	مغنيسا
٣٨	١٩	كنان	كنعان
٣٩	١	إنشاء	إنشاد
٤١	١٨	أبى	أبى
٤٢	١٨	صوفيه	صوفيا
٤٢	٢٤	اعريبوز	اغريبوز
٤٨	٦	تم	ثم
٤٩	٢١	الديون	الديوان
٥٠	٢١	الدفترداريين	الدفتردارين
٥٨	٧	فوضو	فوضوا
٥٨	١١	الرعبة	الرغبة

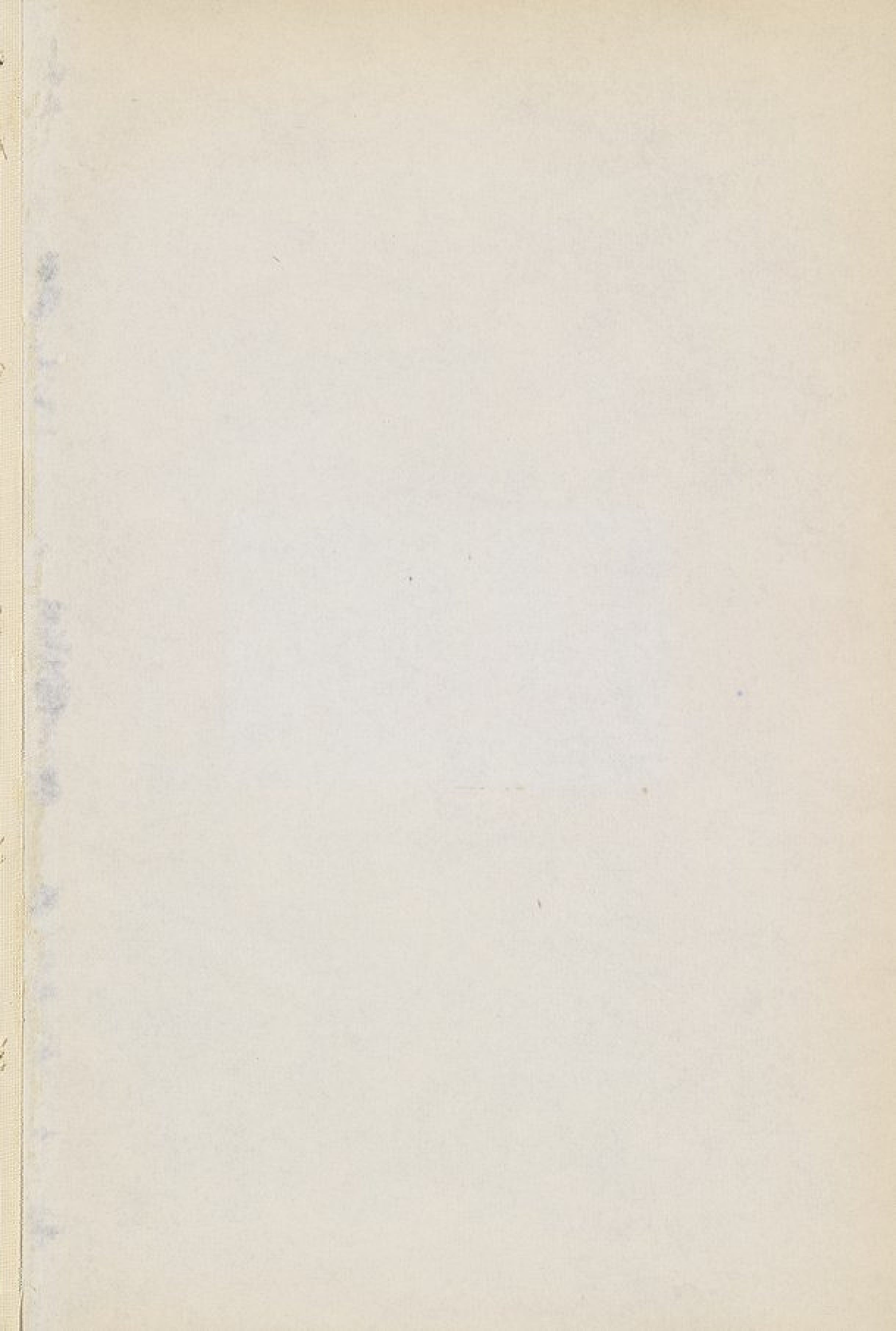
الصفحة	السطر	غلط	الصواب
٥٨	١٢	فـه	فيه
٧٠	١٤	اهم	انهم
٧١	١٧	الاندلس	الاندلس
٧٥	١٦	يمين	يمين
٧٨	٥	فانها	فانها
٧٩	١٩	لقر حصار	لقره حصار
٨١	١٦	آياصوفيه	آياصوفيا
٨٢	٥	آياصوفيه	آياصوفيا
٨٦	١٦	ينبغى	ينبغى
٩١	٢٠	قبو	قپو
٩١	٢٢	ذيوان	ديوان
١٠٢	١٨	الفوائد	الفوائد
١٠٤	١٥،١٦	سيناء	سينا
١١٠	٣	تصدون	يتصدون
١٣٤	١٦	(١)	(٢)
١٥٩	٤	و«والدفتردار»	و«الدفتردار»
١٦٠	١١	السلجوقى	السلچوقى
١٦١	١	بكلربكى	بگلربگى
١٧٩	٨	فطوبجى	فطوپجى
١٨٨	١٢	دفتردارى	دفتردارىٌ
٢١٠	٢	غام	عام
٢١٣	٥	ينحلى	ينجلى
٢١٥	١	رنت	رانت
٢١٥	١٦	القسطنطينة	القسطنطينية
٢١٦	٢١	الفاتح	الفاتِح
٢١٨	٥	حجج	حـجج
٢١٨	١٩	المعجمعة	المعجمة
٢٢٢	٣	الصنعانو	الصنعانى

اعتذار

لظروف مطبعية نعتذر عن عدم نشر
فتوى الأزهر التي أشرنا إليها في ص ٦٧

مطبعة السعادة بمصر







مطبعة السعادة بمصر

يطلب من :
مكتبة الخانجي بشارع عبد العزيز بمصر
مكتبة المثنى - ببغداد